

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY

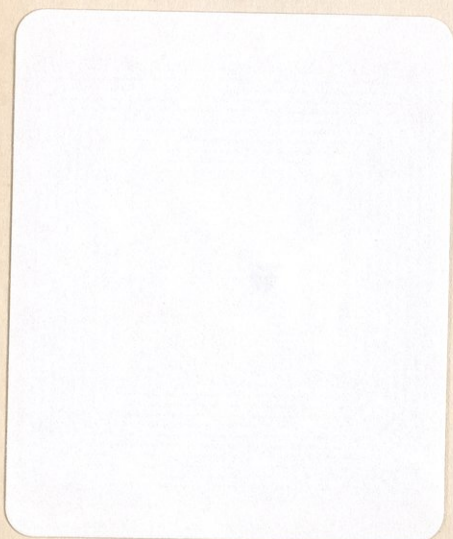


3 8534 01070 6012

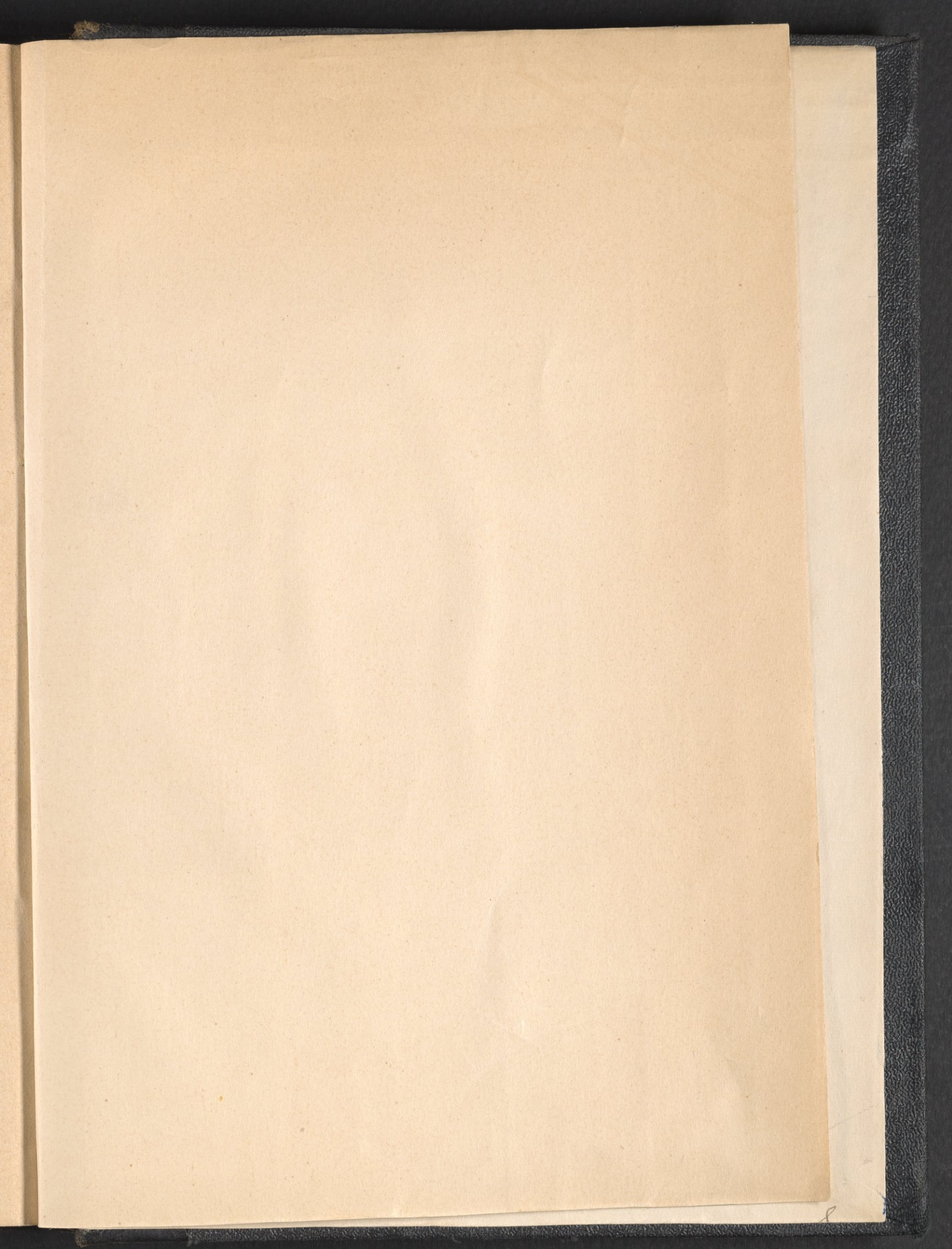
112117P

01-B9

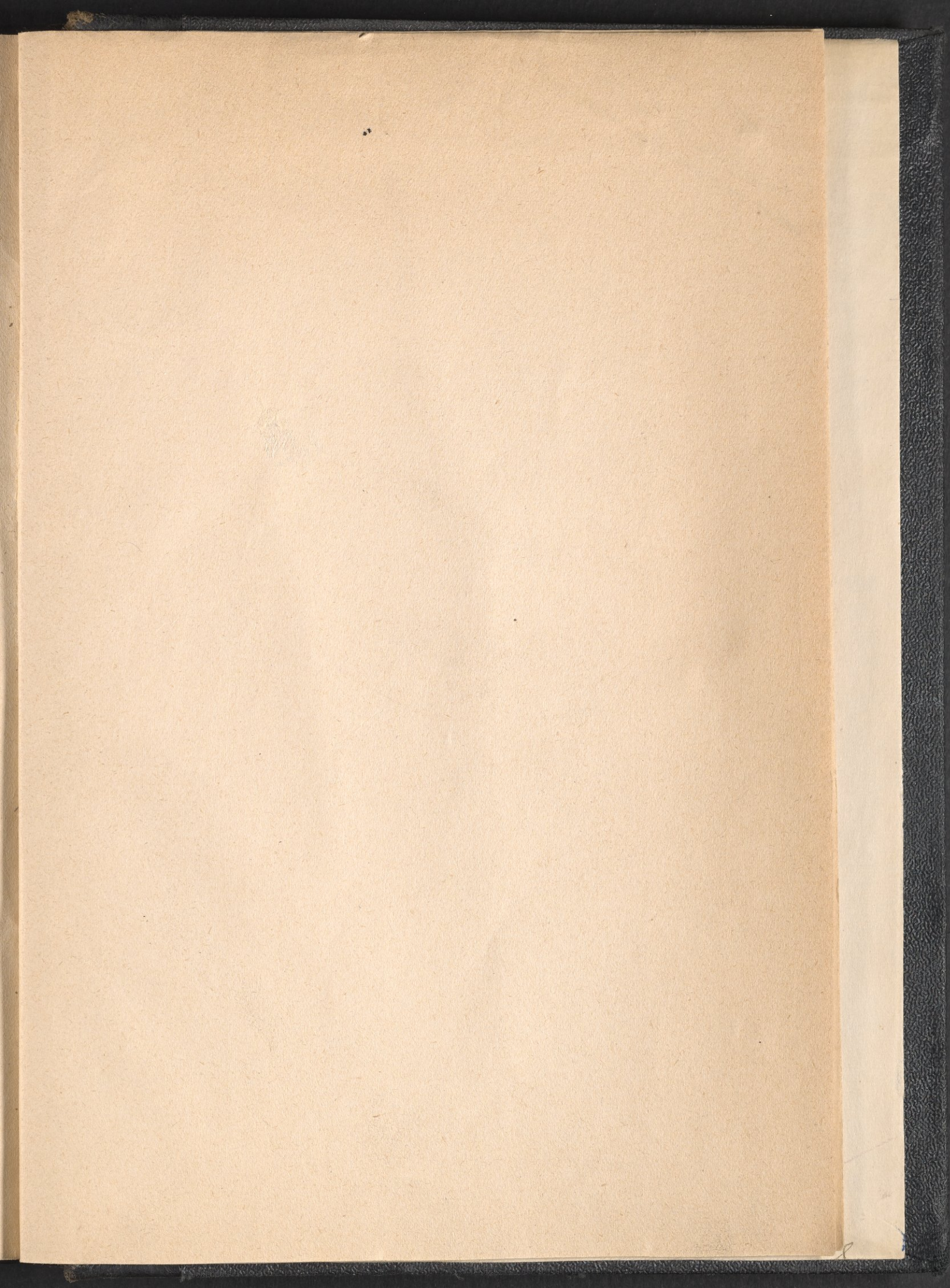
Part Jan 2nd



100
100
100
100



نسخة هدية



PJ
7745
I16
23X
1951

AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
CAIRO

عبد العزيز سيد الأهل

المفكش بوزارة المعارف المصرية والمنتدب للتدريس في الكلية العاملة ببيروت

عبد العزيز المعتبر

الأب مؤيد علمه

دار العلم للطباعة - بيروت

١٩٥١



٩٢٨

ع. غيب

36465

الطبعة الاولى

بيروت - شباط ١٩٥١

مقدمة

نشرتُ على الناس منذ عامين قصة ما كان حول خلافة ابن المعتز في كتابي «يوم ولية»، ولن اجاوز الحق والوفاء اذا ذكرت نعمة الله علي في تلك القصة حين انفردت في تصوير حادث ابن المعتز بها اوسع تصويراً واصدقه فتهاقت عليها القراء من اقطار الارض بما هداً جنبي وأفرح قلبي . على ان تلك القصة كانت آخر ما كتبت عن ابن المعتز ، أما ما كتبت أولاً فهو هذا الكتاب ، ودراسة ابن المعتز فيه دراسة مستفيضة مضمية كان لها الفضل في تعريفني بالرجل حتى استطعت أن أصوره كما رأي القراء في قصة خلافته .

وحين عدتُ إلى ما كتبتُ أولاً رأيت أن أنقيّه من سيرته وتاريخه إلا فيما يتصل بانتاجه العلمي أو الادبي ، ورأيت ان أعرضه في هذه الفصول :
١ - العصر العباسي المتوسط : وقد بحثت فيه بيئة العصر من الناحيتين

العامّة والخاصّة ليرى القارئ المؤثرات التي صنعت أدب الرجل وعلمه .
٢ - مذهبه الشعري : وقد ابرزت فيه النواحي التي امتاز بها شعره .
٣ - فنون شعره : وإن كان هذا العرض قد أصبح تقليدياً إلا أنني
بذلت في هذه الفنون اجتهاداً مرضياً وبينت فيها كثيراً من أسرارها
ونواحي تجديده .

٤ - الأراجيز : وقد افردت هذه ببحث خاص لعلو نفس ابن المعتز
في أراجيزه ، وأتبعته بكلام في التوشيح ولم أفرد له فصلاً مستقلاً لأن
ابن المعتز لم تكن له موشحة .

٥ - النقد والبلاغة : وفي هذا الفصل تبين عبقرية ابن المعتز واتساع
افقه ونفوذه ادراكه .

٦ - انواع نثره : وقد قسمتها الى قسمين : علمي وادبي ، وسيروى
القارئ رأياً جديداً في كتابته التي سماها « الفصول القصار » .

٧ - صفته و اخلاقه : وقد جعلته في آخر الكتاب ليصل اليه
القارئ وقد عرف عن الرجل ما يقنعه برأينا فيه .

وقد دلت على مراجعي التي رجعت اليها حين الدراسة في ثلاثة :
فما كنت محتاجاً فيه الى نص جعلته في اثناء الكتاب ، وما كنت
محتاجاً فيه الى اشارة جعلته في ذيل الصفحات ، وعدت في آخر الكتاب
فذكرت المراجع كلها مرتبة على احرف الهجاء .

وسيقدر القارئ انني ارتحلت الى آثار ابن المعتز رحلة شاقة طويلة
لمدى ، وحسب المنصف ان يُقرّ بجهد الغواص وان لم يظفر باحدى لآليه .

عبد العزيز سيد الاهل

١٥٨٥٠٤٣

العصر العباسي المتوسط

البيئة العامة

التدخل العام

شغلت حياة ابن المعتز جزءاً غير قصير من العصر العباسي المتوسط ،
ذلكم العصر الذي يبدأ بحكم المعتصم في سنة ٢١٨ هـ وينتهي باستمکان حکم
المقتدر سنة ٢٩١ هـ . وكان هذا العصر قنطرة امتدت نحو خمسين عاماً
عقبت على عصر الصعود في اول الدولة ، ومهدت لعصر الهبوط في
أواخرها .

أما التدخل والانحلال فقد كانا باديين على كل أركان الدولة من أعلى
قمتها إلى أدنى القدم منها :

الخلافة

فالخلافة قد ضاعت هيبتها بغل يد الخلفاء عن كل ما يطلبون ، وبالفدر

بكبارهم وصغارهم كما شاء الترك الذين انتقلت الى أيديهم أزيمة الأمور ،
وحق الوزراء الذين لم يكونوا من جنس الترك اضطروا لمسايرتهم والخضوع
لقوتهم وأهوائهم . وقد تبع ذلك ازديادُ التقليل والارتجاف في مناصب
الوزراء والولاة على العمالات والكتّاب والقضاة .

المال والجند

وكان المال والجند - وهما عصب الدولة - على أتم الاضطراب
والتخلخل ، فالجند موفور العدد والعدة ، وقد تمت لديه الشجاعة
لانحداره من عناصر الترك الرعاة ، واما العرب فلم يعودوا جنداً ، وإنما
انصرفوا عن الجندية منذ قتل الأمويون وقتل الحجاج بن يوسف
عصبيتهم ، ومنذ أتم العباسيون قتلها بغضهم من أعنة بني هاشم ،
ومعاداتهم لبني عمهم الطالبيين . ومع وفرة العدد والعدة وتنام الشجاعة
لدى الجند الترك فقد كان متشعب الأهواء ، محباً للمال ، نهماً إلى زيادة
الأعطية ، وكانت الثورة أهون عنده وأمرأ على نفسه من لزيد
الطعام وشهيّ الشراب . ومع أن الدولة كانت كثيرة الموارد ، والمال
يفد إلى خزائنها على كثر من العمالات ، والجواهر النفيسة محتشدة في
الخزائن مع ارتفاع أثمانها ارتفاعاً عظيماً فإن كل ذلك المال وكل تلك
الجواهر كان ينفق حيناً قليلاً في وجهه وأحياناً كثيرة في غير وجهه ،
فيبدده الخلفاء ونسائهم ووزرائهم وعلمائهم بلا روية ولا إسفاق ، وكثيراً
ما أشرفت خزائن الدولة على الافلاس .

قانون المصادرات

واستيقظت في هذا المعترك مطامع النساء وشهواتهن ، وفغرت الفتنة
فمها فابتلعت عدالة القضاة ، فأفتوا بما يعين على نكث العهود والغدر
بالمؤمنين واصطلام الأرواح ، وانتصب قائماً على الناس قانون المصادرات
ليطبّق عند أوهي الأسباب لسد حاجات القصور والجند ، فاضطرب لذلك

المال اضطراباً آخر في أيدي الاغنياء والتجار ، إذ كان ينمو نمواً عجيباً
ثم تفتتح عليه العيون فيصادر أو يدفع به الى مخابىء تفصيه عن سوق
التجارة ، وما كان أحد يأمن على ماله مهما تقرب من الخلفاء .
ولم يكن هناك أدنى تفكير في مثل ما نسميه نحن اليوم بالعدالة
الاجتماعية ، فقد أقصي جيل العرب جملة عن مناصب الدولة الكبرى ،
وجفت الأرزاق في أيدي الأكفاء ، ولم تقم ضمانات من احترام الدولة
أو القانون لحقوق الناس . ويبدو لي أن قانون المصادرات لم يكن إلا
نتيجة محتومة لاستيلاء غير الأكفاء على الثروات من وجوه غير مشروعة ،
وإنما خفف وقع هذه الكارثة التاريخية التي أصابت الشعب العربي كله
في أرجاء مساكنه أفعال فردية من الخير والمروءة جرت على يد من أحبت
الكارثة قلوبهم . ومن العجب أن كان عمل الخير من الحاكم نفسه - ولو
في حدود واجباته - يعدّ في باب الفضل والاحسان الذي يستحق عليه
مؤليه جزاء عاجلاً أو آجلاً * .

الترف والجود

ومع هذا الاضطراب والتخلخل في مناصب الخلفاء والوزراء وفي
الأمن والأموال ، فقد تردد الناس بين الترف والجود ، فانغمس في الترف
القادرون عليه ، وبنوا القصور والحانات والحدائق والبرك ، وغالوا في أثمان
الجواهر والتجلي بها ، واتخذوا الرياش والاثاث والملابس والأطعمة ، ومالوا
الى الدعة والراحة والتطرح في الاديرة وعلى الشطآن والحدائق ، وانهمكوا
في الملهيات ، وزاد اللهو بالغناء والالخان فأقبل عليهما الخلفاء والامراء
اقبال القيان والمغنين ، وأغري كثيرون بهذه الصناعة ، فأقبل عليها من
ليس له عرق فيها من النساء والرجال .
واما الذين لم يقدرُوا على الترف من الجماهير فقد تطرفوا فكبتوا

* انظر كتاب المكافأة لأحمد بن يوسف المشهور بابن الداية .

انفسهم ، وتشددوا على غيرهم في امور الدين ، واسرعوا في تقويض ما يكرهون من الآراء والقصور المبنية والمدن المشيدة .

الامراض

وانصرفت الدولة في هذا الحضم الهائج عن النظر في امور العباد ، فاجترفت الخلائق تيارات جارفة من الامراض والطواعين والسرقات . كان حقاً هناك بيمارستانات يتباهى بها من ينشئها او ينفق عليها ، ولكنها كانت في قصبات البلدان دون ريفها وقراها ، ولم تكن تتسع الا لعدد قليل من المرضى ، ولأنواع خاصة من الأدوية .

وهكذا صرنا نسمع لهذا العصر اصوات بكاء ، كما كنا نسمع له صيحات غناء ، يتعادلن معاً بل يزيد الشقاء ، وشاعت اخلاق الرهبة والخوف واليأس والجمود والانحراف .

المذاهب

واهتزت آراء الناس بين التزمّت والاباحة والتقيد والانطلاق في امور الدين والدنيا ، وطغت فتن عديدة من المحافظة والاحاد ، واخذت المذاهب الدينية تتعادي في عنف وشدة ، وواجهت فتاوى المتشددين ضلالات الميجان والمتطرحين والمنجمين . وكان من اثر طغيان هذه الفتن ان وضعت اصول الفقه والاحكام ، ومهدت الطريق لاستقرار المذاهب ، ولا سيما مذاهب اهل السنة ، وساعد على استقرارها اقفال باب الاجتهاد عندهم ، واكبر الظن ان ذلك قد حدث لان خلفاء ذلك العصر ارادوا ان يكتسبوا انفس الخلافات الدينية سواء أكان منشؤها سياسياً ام دينياً خالصاً ، فوضعوا القدم الحابسة على فوهات الانطلاق . وبات اسعد المذاهب حظاً مذهب ابي حنيفة لانه ظفر باقراره مذهباً رسمياً للدولة .

المعتزلة

وقد ساد ايضاً مذهب الاعتزال ، او استمر سائداً ، لتشديد أصحابه في المسؤولية الشخصية التي تشد من أزر العقوبات . وكان مذهب النظام في الجدل قد استمكنت طريقته من العقول ، وغذته الفلسفة اليونانية التي نضجت بشكل متوسط بين العقلين الغربي والشرقي على ضفائي دجلة والفرات ، وامتاز هذا الجدل بالعمق واستيعاب الأدلة ، وهي طريقة تعين على المغالاة في حبّ النصرة وسدّ مذاهب الطريق على الخصوم ، وقد كثر أتباع هذا المذهب حينئذ في سامرا وبغداد .

العلم والادب

ويبدو لك جلياً أن الاضطراب الذي ساد في هذا العصر قد أدى الى أoxم العواقب في السياسة والتدين ، وخلف من موارثه هذه الخلافات القائمة بين المذاهب الاسلامية في حدودها الواسعة والضيقة على سواء ، لأن الأمرين من السياسة او التدين لا يَحتملان التآرجح أو ما يسمى بالاعتدال ، فاما الى هذه الناحية واما الى تلك .

أما أن هذا الاضطراب قد أدى الى العلم والأدب جيلاً فذلك ما لا مرية فيه ، فقد ظل العلم - إذا لم يدسّ يده في أمور السياسة دساً ظاهراً - مصون الجانب ، وظل العلماء والادباء في أماكنهم الرفيعة نسبياً ، وكانهم كوفئوا من الدولة بذلك لتبعد خطرهم ، كما حدث في الدولة الأموية للشعراء ، وقد أحدث هذا الأمن بين صفوفهم ، وهذا التقدير للعلم والأدب حركة مباركة ، فكثرت الطرق والوسائل والآراء ، وذلك ما يزيد به العلم والأدب فراهاة واتساعاً .

العلوم الحديثة

ولم يكن هناك بد وقد أقبلت الفلسفة * والمنطق والرياضيات والفلك

* لم تكن للفلسفة في ذلك العصر حدود عند العرب ، وإنما كان أغلب ما يأتي

والكيمياء من ان تغشى معسكرات العلوم القديمة ، وإن ظلت هذه مدة من الزمن وهي تظن أنها لا تنزلق مع الجديد الى الأمام ، فتأثرت العقول القديمة بالجديد عن رغبتها او برغبتها واضطرارها .
ومع خطر العلوم الحديثة وتأثيرها في الفكر تأثيراً قوياً ، واشتغال العلماء في البحث والتنقيب والتقليب بين المواد للعثور على الخصائص ، فقد ظلت في الطبقة الثانية من العلم ، وتركت للعلوم العربية اللسانية مكانها الاول من إقبال المتعلمين . ولعلنا لا نخطئ إذا عددنا ذلك جموداً من الدولة ، او تمهيداً لطور الجمود الذي جاء من بعد . ولعل الأمة العربية لو كانت أحلت تلك العلوم في المكان الاول لكان الحال في المشرق غيره اليوم ، وليس يخفى الأمر على ذي بال !

الشعر والشعراء

أما الادب والشعر فقد تبلبلت آراء الناس فيهما كذلك ، فما الجيد وما الرديء ؟ وماذا يصلح للدراسة منهما وما الذي لا يصلح ؟ وأقبل الناس على مثل هذه الدراسة إقبالاً منقطع النظر في مجالس المندامة والمناظرات وبين أيدي المعلمين ، وخلفوا لنا من آرائهم الشيء الكثير . ولم تكن الآراء الادبية في الحقيقة بمعزل عن السياسة والاجتماع والدين ، بل كان للهوى والنزعة الدينية حكمٌ على ما يدرس من الاقوال ، وكان الادب الذي يتعصب لغير بني العباس لا يجد له مكاناً من الدرس او من الشيوع الا في أوساط أهله .

ومن أطرف ما أثر عن العصر أنه شاع أن أبا تمام لا يصلي ، فكان ذلك سبباً كافياً لئلا يدرس شعره أبو العباس المبرد لتلاميذه ، بل لا يطلع

عن اليونان يدخل تحت هذا الاسم ، فعمل التاريخ والفلك ومظاهر الكون والحياة كان يسمى عندهم فلسفة ، وكانت العداوة لهذه العلل شديدة . وقد حاولت الآراء القديمة أن تثبت أمامها بالجدل العقيم فاضاع الجدل كثيراً من الحقائق (انظر ديوان المعاني لأبي هلال في صفة السحاب والمطر) .

عليه هو ليدرس ما يجري حوله ، وظل كذلك جافياً له حتى 'حُرِّضَ على دراسة شعره واستحسان مذهبه .

وقد امكن من الاختلاف في الآراء الادبية كذلك ان يُعثر على قوانين عادلة في وزن الكلام ، ومن ثم فتح طريق البلاغة والنقد على مصراعيه .

طارق جديد

ولعل اهم ما حدث للأدب والشعر خاصة ذلك الطارق الجديد الذي هن موقف القدماء والمحدثين هزاً عنيفاً ، وكان الطارق (ابا تمام) ، وايسر ما يقال في شعره انه الفاظ عربية في صور ومعان جديدة تخالف ما اعتاد القدماء ان يسمعوا وان يدرسوا فيستحسنوا او يستقبحوا ، فاذا لم يكن كلاماً عربياً فكيف وسعت ألفاظ اللغة واساليبها صور ابي تمام ومعانيه ؟

ويسهل ان ندرك شعور اولئك الناس امام تجديد ابي تمام حين نعرف شعورنا نحن نحو الذين يحددون اليوم في صور الشعر واساليبه متأثرين بالآداب الغربية المستحدثة كل التأثر ، ولقد ازداد نفور بعضنا يوماً ما من مناهج الادب الرمزي * ، فهذه الحال كذلك سواء بسواء .

وكان لابد اذن من دراسة اللغة من جديد ، او بالاحرى دراسة لغة المحدثين ، وترك ما يتسع له صدر اللغة من سعة وحرية ان يقال . وخليق

* الأدب الرمزي : ليس المقصود به ان يكفى عن شيء بشيء آخر كالتكنية عن الحبيبة بالطيبة وعن المرأة بالنخلة وليس هو الشعر الصوفي ولا الادعية الرمزية ولا الالغاز والاحاجي والتلميحات ولكنه مذهب جديد نشأ في اوروبا في اواخر القرن التاسع عشر ويمتاز بهذه الاصول :
(١) يعبر عن الروابط الخفية بين المحسوسات ونفوس الشعراء تعبيراً مبهماً كاللوسيقى .
(٢) لا يعنى بالانسجام بين اللفظ والمعنى كما كان يعنى القدماء . (٣) ينطلق من القيد والترتيب والغافية واهم عناصره المفاجأة . (٤) هو كالفلسفة يجمع بين اجزاء العالم وتفصيلاته في شعور واحد . (انظر كتاب الشريف الرضي للدكتور محفوظ طبعة بيروت سنة ١٩٤٤) .

بعلماء اللغة والادب ان تزيد صدورهم لهذه السعة والحرية سعة وانفساحاً .
واقصد كان ذلك . فأقبل الناس على دراسة سليمة عاقلة ، وازدادت
الرحلة الى المعلمين في بغداد من كل الآفاق ، واخذ هؤلاء ينهجون منهج
التوسعة في البسط والشرح والنقد والتطوير بما عاد على الادب جملة
بالخير الوفير .

وبلغ اهتمام الناس جميعاً بالشعر مبلغاً عجيبيّاً ، توهموه كضياء النهار
او هبات الهواء لا يخلو منها مكان . وكان ولع الخلفاء والدماء به كولع
العلماء ، حتى انهم رويوا منه للمعتمد والمعتز ، ورويوا منه للبزاز والعيجان
والخباز والمجنون اقوالا بلغت غاية الجودة او كادت .

ولعمري ، لو كان هناك ملك اجمع الكل على تقديسه لما كان غير
الشعر ، ومكان الشعر في ذلك العصر يصوره ابوتام بقوله :

ولولا سبيل سنها الشعر ما درى بغاة الندى من اين تؤتى المكارم
يُرى حكمة ما فيه وهو فكاهة ويُرى بما يقضي به وهو ظالم
ويصوره ابن الرومي بقوله :

أرى الشعر يحبي الناس والمجد بالذي تبقيّه أرواح له عطران
وما المجد لولا الشعر الا معاهد وما الناس الا اعظم فخرات
ومن ناحية اخرى فقد قلّت هبات الشعراء من الخلفاء والوزراء ،
ولو حسبنا هذا القول من ابي تمام وابن الرومي اغراء على الاعطاء فانه
لا يفقد الدلالة على ان الشعر قد صار غرضاً معبوداً لذاته عند الشعراء .

المغايرة

وتأثر الشعر في عموميه بالبلبلية التي اصابته كل شيء ، وكان تأثر
اسلوبه بهذه البلبلية طريفاً ظريفاً اذ اعتوته حال كالسوفسطائية مماها
البديعيون بالمغايرة ، تنظر الى الشيء الواحد من جهاته المختلفة ولا سيما
خيره وشره ونفعه وضره ، وهي شيء يشبه تمام المشابهة تكافؤ الادلة

عند المتكلمين ، وصارت المغايرة في اسلوب الشعر فناً جديداً يرفع من شأن الشاعر الذي يقدر عليه فوق الشاعر الذي لا يقدر عليه .

وصار هناك بهذه المغايرة فرق ظاهر بين تعبير الشعر في هذا العصر والعصور التي سبقته ، فإن التعبير صار لا يهتم الاليجية الكذب والافراط وحسن التعليل . أما قبل فقد كان تعبيراً صادقاً مفرطاً في الصدق ، فالجاهلية مثلاً يؤثر شعراؤها كلهم القوة ويمقتون الضعف ، فيمدحون القوي ويهجون الضعيف . والاسلام أثر شعراؤه الاعتدال لامتزاجهم بروحه ، فمدحوا الاعتدال وهجوا التطرف ، أما هذا العصر فقد صار متروكاً بين القوة والضعف ، مستحسناً الايمان والاحاد ، وموغلًا في السوفسطائية ، فتنظر كل عين الى الشيء من الوجه الذي يروقها ، وكثيراً ما ينظر الشاعر الى الشيء الواحد نظرتين متضادتين فيمدح ما هجا ثم يعود فيهجو ما مدح .

وكما حدث الاختلاف بين الفقهاء على مسألة النبيذ حدث الاختلاف بين الشعراء على مسائل الحلال والحرام ، وتردد الشعراء في عقائدهم ، فيوماً الى هذا النجد ويوماً آخر الى النجد الآخر ، وصار منهم مسرفون في الايمان والتزمت ، ومسرفون في اللذة والشهوات ، ومتروكون بين هذا وذاك .

تحول الأغراض

وقد أخذ الشعر يحور عن أغراضه القديمة وإن كان لم يخرج عن دائرة الشعر الفنائي ، لان هذا العصر كان مبدأ رجوع الشعراء عن الاختصاص بأبواب الملوك والامراء ، وصارت الحال أشبه بما نحن عليه اليوم ، فليس لملك من ملوك العرب ولا لرئيس من رؤسائهم شاعر يلزم بابه ، اللهم الا قليلاً فانصرف الشعراء الى التوسع في الأغراض التي ليس لها صلة إلا بأنفسهم أو بدراساتهم ، كالشعر التعليمي وشعر الزهد والعواطف ومصنوعات

الإنسان ومظاهر الطبيعة وزيادة اللهو بالصيد والجر والنساء ، وسقط الى
الدرجة الثانية شعر المدح والثناء .

باب الوصف

وانفتح للشعر حين وقف على هذه الاغراض باب التشبيه لانه أداة
الوصف الأولى ، وصار التشبيه فناً يُدرس ويُهم به ويوجه اليه من
المعلمين ، ولم يُترك منه وجه إلا خاضوا فيه ، حتى التشبيه العددي الذي
يشبه فيه الشاعر أشياء بأشياء في بيت واحد او في بيتين .
وعني الوصف بالتصوير الشعري عناية فائقة ، يجري الشاعر وراءه
يتصيد حذراً لانه سيحاسب على تشبيهاته وتصويراته من نقاد الشعر ، فقد
صارت المفاضلة بين تشبيهات الشعراء من أهم مباحث النقاد .

المنهج التطبيقي

ثم أتاحت مجالس المناادمة والمناظرة ، والاطالة في الشرح والبسط والنقد
لشعراء أن يسلكوا المنهج التطبيقي في الشعر والكلام ، وذلك أن يُعرض
المعنى القديم ويُدرس وتُحصى عيوبه ثم يقال في ذلك المعنى شعراً يخلو من
عيوب القدامى ، فيسلم المعنى حين ذلك سلامة لا ينقص أطرافها عيب .

شعر الصنعة

وكان بحسب الشاعر القديم أن يجيد في غرض أو غرضين متصلين
وليس عليه ألا يجيد في غير ذلك ، فقد فضل زهير بالمدح والحكمة ،
وفضل الفرزدق بالفخر وحده ، ولم يعرف ابن أبي ربيعة غير الغزل ،
وتلك كانت طبيعة القدماء حين كان الشعر سليقة الشعراء ، أما وقد
أصبح الشعر صنعة وفناً معبوداً ، لا سبيلاً مؤدية ، فأولى بالشاعر القديم أن
يسلك بشعره كل باب وأن يخوض به في كل فن . وكذلك أصبح على
الشاعر أن يجرب حظه في مجور الخليل كلها ويطيل فيها ، ولا عليه إذا
تحرر من الروي ومن التصريح .

المقطوعات

وكما كان العصر عصر القصائد الطوال كان عصر المقطوعات القصيرة المسرفة في القصر حتى تصل الى بيتين او بيت واحد تتركز فيها الفكرة، وأنشئت المقطوعات من محور الشعر ومجزوءاتها جميعاً، وقد كان ذلك خاصاً ببحر الرجز من قبل، وذلك لانصراف كثير من الادباء الى الحياة الادبية الخالصة وازدهار المجالس بالمناظرات والغناء، ومن طبيعة المقطوعات أن تكون أليق بالمجالس لحقتها وصلاحيتها لان تحمل محل النكتة والنادرة مع امتيازها بمجالها الفني.

ويمتاز شعر المقطوعات بأنه أدلّ على الحياة الشاعرية الدائمة أكثر من دلالة شعر القصائد، إذ يجوز لشعراء القصائد أن يباعدوا بين القصيدة والقصيدة في الانشاد. حتى تأذن المناسبة للانشاد من جديد، أما المقطوعات فانها تصلح أن تكون لسان الحياة العادية في أمور الدين والدنيا كلها صغيرها وكبيرها، والمنصرف اليها صارف حياته كلها الى الشعر.

وكان لها شأن كبير في تصوير الحياة السياسية في قوة وغنف مؤثرين، ولقد شاع قولها، وأتيح لبعض الخلفاء كالمعتز والمعتز أن يعبروا بها عن حالهم التي وصلوا اليها، ثم أحسنوا في إنشادها لانها لم تكن تحتاج إلى جهد كبير.

وهناك شعراء في هذا العصر تخصصوا في قول المقطوعات، فلم تعرف لهم قصائد طويلة، وقد لذّعهم النقاد باللوم لانهم انصرفوا إلى هذا الفن الذي قصر بهم عن القصيد كعلي بن بسام. ومهما يكن فقد كان أسلوباً للشعر شائعاً مألوفاً.

شعر النجوم

ومع ازدياد اهتمام الشعر بوصف الطبيعة والبساتين والازهار والثمار فقد برز من بين شعر الوصف شعر خاص بصفات النجوم وتنقلها

ومظاهرها المختلفة في صفحة السماء ، فسَمِّي لذلك شعر السماء واقبل عليه الشعراء إقبالاً عجيباً .

وكانت البادية أكثر اطلاعاً على النجوم لتحديد الامكنة ومعرفة الأزمنة ، ولم يغلب اهتمام الناس بمواقعها في أيامنا نحن الا لسهولة معرفة الزمن بالساعات الدقاقة ، وسهولة معرفة أجزاء الارض بالتخطيط والاحاطة ، وقد ترك الناس للمراصد معرفة مواقع النجوم لانها أبصر بها من عيونهم وأدق حساباً ، وكانت كل هذه الاسباب داعية لئلا يدرس الناس عن النجوم شيئاً اللهم إلا من يدرسون الفلك في عيون المراصد .

وكنت تجد أثر هذا الاهتمام الضروري بالنجوم في البادية وفي شعر البدو الاقدمين . ثم قل الاهتمام بها يوماً فيوماً نزولاً من العصور القديمة الى العصور العباسية ، ومن العجيب أن يحيا هذا الفن فجأة في هذا العصر الذي نتحدث عنه ، وينتقل اهتمام البادية القديم به الى أهل المدن المستقرين على حفا في النهرين ، والعالمين بمواقع البلاد وأجزائها ، وكان مبعث هذا الاهتمام أمور ، أهمها :

(١) الاهتمام بدراسة الفلك كعلم طارئ على العرب من اليونانية والهندية .

(٢) الايغال في وصف المراثيات والاشياء الدقيقة واستيعاب القريب منها والبعيد .

(٣) شيوع الرحلة في أطراف الليل ولجته وراء اللذة والصيد ، ولا سيما للقادرين على عدة الطرد من الحيل والحُدم والكلاب وطيور الصيد . وقد دفعت هذه الامور بالشعراء الى الاكثار من وصف نجوم السماء وكواكبها ، وتتبع مواقعها اتفاقاً واختلافاً ، حتى أصبحت جملة الشعر التي قيلت في السماء صالحة لان تكون باباً مستقلاً من أبواب الشعر العربي . وامتاز شعر السماء بالمقطوعات القصيرة . وقد يصور المنظر في بيتين او بيت واحد ، وذلك لانه لا يحتمل المقطوعات الطويلة ولا القصائد ،

ثم امتاز بأنه وصف للمرئيات ، فلا عيب فيه إلا انه لا يمس الروح دائماً ، وإنما هو كما تصور اليد منظرًا مطابقاً لما تراه العين ، وقد يجيء المنظر نابضاً بالحياة او نابضاً منها ، كما امتاز بدقة الالفاظ وإحكامها ليكون التصوير محكماً بديعاً .

وتستطيع أن تعد من شعراء السماء كثيرين في القرنين الثالث والرابع . ومن الغريب أن تستمر هذه العناية بهذا الفن في القرون التالية ، وكأنما صار القول فيه أمراً تقليدياً حتى لمن لا يعرفون مواقع النجوم ، بل حتى لمن لم يروها كأبي العلاء .

ومن الممكن أن يقال إن عصرنا هذا الذي نعيش فيه قد اهتم هو ايضاً بمظاهر السماء ، ولكن مع فرقين هامين : (أولهما) : أنه مهمم بها جملة ، وأكثر اهتمامه بألوانها العامة لا أجزائها ، فهو يتحدث في الضوء والضحي والمساء والفجر والشفق والنجوم جملة . (وثانيهما) : أن الشعراء في عصرنا يخلطون وصف هذه المظاهر بالخيال والعواطف النفسية ، أما في ذلك العصر العباسي المتوسط فقد كان الوصف فيه للنجوم وصفاً خالصاً .

البيئة الخاصة

مولد ابن المعتز

كان مولد الامير أبي العباس عبدالله بن المعتز على القول الشائع في الثالث والعشرين من شعبان سنة ٢٤٩ هـ ، وولد لأبيه بعد مقتل جده المتوكل بعامين على القول الأصح . وكان عام مولده عاماً حافلاً بالمصائب العظام والأهوال الشداد ، فقد عاث الترك فيه فساداً بالمدينتين سامرا وبغداد ، وتحرك زلزال شديد نفخ كثيراً مما على ظهر الأرض من منازل وأبنية ، ودفن الناس تحت ردمها ، ثم أصاب العراق طاعون مجتاح جرف في تياره خلائق لا تحصى ، وكذلك ترى مولده مولداً مشؤوماً

إذ جاء في عجلة زوبعة طحون ، وعاش ومات ولم يخرج من دائرة ذلك
الأعصار المدمر .

وأصدق الظن أن ابن المعتز ولد في قصر (الكامل) الذي شاده
أبوه والذي كان من أعظم ما شادت يد الانسان في ذلك الزمان * ،
وكان ذلك في خلافة المستعين ** ، ولم يتول أبوه المعتز الخلافة إلا بعده .

تذشته

وكانت جرت عادة الخلفاء والامراء من الاموية والعباسية ان يدفعوا
بابنائهم الصغار الى اهل الفضل من المؤدبين ليتولوا ابناءهم بالتحفيظ والترقيق
والملاينة ، فمن احسن التولى من هؤلاء المؤدبين فاز بأوفر العطايا واعظم
المهبات ، وعلى سنة اولئك السلف جرى الامر في تربية عبد الله بن المعتز
فتولاه أول من تولى محمد بن عمر الضبي ، وقد بذل الضبي في العناية
بالامير اكثر ما يقدر عليه من ضروب الاخذ والملاينة ، وابقظ بديته ،
وعلمه التأني وحسن التبصر لتسلم العاقبة ، وقد كافاه الخليفة المعتز ذات
مرة بعشرة آلاف درهم حين أجابه ابنه بجواب حسن لقنه له المؤدب .
وقد جازبت طبيعة ابن المعتز جهود مؤدبه على عجل ، فجعل يأخذ
المؤدبين في بعض الاحيان بما كان يجب ان يسبقوا اليه :

قال محمد بن ظفر الصقلي : بلغني أن أبا العباس عبد الله بن المعتز
نطق بالحكمة صغيراً ، فكان بما حفظ عنه في صباه أن مؤدبه قال له :
لقد هممت بتأديبك لشيء كان منك ثم رأيت التجاوز عنك اولى ! فقال
له عبد الله : اصلحك الله ! انك تراد للتأديب لا للتجاوز ، وانه يلزم
الحازم قبل ان ينبه على عفوئه أن ينبه المسيء على اساءته ، ليتجافى عن

* انظر صفة هذا القصر صفحة ١٢ في كتاب يوم وليلة للمؤلف طبعة بيروت .
* أكثر آراء المؤرخين على هذا ولكن الدكتور طه حسين يرجح أنه ولد في
ظل جسده المتوكل وولد قبل مقتل جده بربعين يوماً (انظر كتاب حديث الشعر
والنثر لطله حسين) .

اشبه زلته ، وينزل العفو بمنزلته ! »
وقيل : ان مؤدبه سأل ان يكتب كتاب شفاعه لانسان يعز عليه ،
فجعل يتباطأ في كتابته ويطلب التأمل ، فقال له مؤدبه : اكتب على ما خيلت
فلست ممن يتفقد له * فقال ابن المعتز ، كلا ، ان عقل الكاتب في قلمه !
وقد عنى الخليفة المعتز بابنه هذا وخصه بكثير من عطفه ، فضرب
الدنانير باسمه وهو طفل صغير ، ولكنه لم يلبث ان قتل وابنه يدنو
من الثامنة او هو قد خطا فيها اياماً ، فلهحق الامير الصغير بجده
صبيحة ، ثم صحبها الى منفاهها في مكة ، ومعهما اسماعيل بن المتوكل
وعبد الوهاب بن المنتصر ، بأمر من صالح بن وصيف بعد ان صادر
اموالها وجواهرها .

وظل الامير بمكة حتى افضت الخلافة الى المعتمد فبعث بحمله وحمل
جده والمنفيين معهم من الامراء الى العراق ، فعاد ابن المعتز مع جده
وفي رعايتها وقد اكتملت حدائته ، ونزل معها في دارها على الصراة
في كرخ بغداد **

معلومه

رأت جده صبيحة بعد عودتها الى العراق ان تدفعه الى اعلام عصره
من المؤدبين والمعلمين من ذوي النظر والاهتمام بالعلوم القديمة ، لأن هذه
العلوم في الطبقة الاولى كما حدثنا من قبل ، ولأنها أليق بالامير من
الحساب والكيمياء ، وحاطته بخالص حبها وعنايتها لتبعده عن الخوض
مع الخائضين في شئون القصور من قرب او من بعد ، وحسبها ان تدفعه
الى هذا الجانب الآمن من الحياة ، فقد باتت كل جوانبها ممتلئة بالخوف
والاضطراب .

* اي : اكتب اول ما يخطر ببالك فلست ممن يراجع فيما يقول .
** انظر صفحة ١٧ وما بعدها الى ٢٢ من كتاب يوم وليلة للمؤلف .

وقد افلح معلموه في تأديبه والانتقال بنظره وقلبه من ذلك المضيق المضطرب حوله الى محيط لا نهاية له ولا سكون لاضطرابه ، هو محيط العلماء خارج دور الخلفاء ، وهو هذا الكون كله في هيئته الساكنة والمتحركة ، وفي علمه ودينه ، ومظاهره وخفاياه ، وبسائطه وعقده ، ومبدئه وغايته ، لا كما يفهم الفلاسفة ، ولكن كما تفهم هذه المدارس القديمة وكما تدرك متأثرة بالفكر العربي الخالص وغير الخالص من غير قصد ، ولم يلبث ابن المعتز غير قليل حتى صار واحداً من هؤلاء الامراء اهل العلم والبيان كما كان واحداً من وحدان الامراء ورثة التيجان والصولجان .

اصبح الامير بعد اكتمال حدائته بين ايدي جلة من علماء ذلك العصر واعلامه فقهاً وتفسيراً وتاريخاً وكلاماً وادباً ولغة ، ثم في صجة علماء وادباء من ذوي الرأي والفضل من غير المعلمين ، فكان لا يجد نفسه اذا انتقل او اقام ، واذا حدث او سمع ، واذا هدأ او ثار الا في حلبة هؤلاء العلية يأنس اليهم ويلوذ بصحبتهم .

البلاذري

فاذا اراد القرآن والتفسير رغب في مجلس ابي جعفر احمد بن يحيى بن جابر المشهور بالبلاذري تلميذ ابن سعد والمدائني ، فيأنس له ويطمئن اليه ، لان البلاذري يهتم بالقصص والتاريخ : تاريخ العالم عامة والاسلام خاصة : يسمعه منه ابن المعتز عربياً اسلامياً نقياً حيناً ، ومختلطاً بالاسرائيليات والمسيحيات وغيرهما حيناً آخر .

والبلاذري كان احد النقلة من اللسان الفارسي الى اللسان العربي فهو متأثر بالفارسية ايضاً ، وكان التاريخ الاسلامي محبوباً حب الناس لسماع القصة اياً كان نوعها ، ومحبوباً لكثرة صور البطولة والمروءات فيه ، ولانه حين ذلك كان فرعاً من تفسير القرآن والحديث ، وحسبك بهذا ترغيباً في دراسته وتحبيباً .

الدمشقي

فاذا ما روي الامير من هذا القصص وملأت جوانبه العظة والعبوة
مال من مجلس البلاذري الى آخر قد اتخذه مؤدبه فلا يكاد يفارقه ،
هو احمد بن سعيد الدمشقي ، فيتحلل عنده من قيود الفقه وقوانينه
ووقار مجلس العلم الديني والحديث ، فيسمع فنون الشعر ومسالك الشعراء
وفنون الادب وخواطر الادباء ، ويتعلم الحجة المتأثرة بالفلسفة النابتة في
ارض العراق خليطاً مشوباً من الاسلامية والكتابية والوثنية ، ثم يخلص
من كل ذلك الى تثبيت العقيدة الاسلامية في نفسه ، والى نصره مذهب
اهله الذين اختاروه ، وطريقهم الذي اتبعوه ، وهما مذهب اهل السنة وطريق
ابي حنيفة النعمان .

ثعلب والمبرد

وقد اولى ابن المعتز بمعلمين آخرين غير هذين ، اولى بهما كما اولى
بهما جميع اهل عصره والعصور التي تلت ، وكثر تلاميذهما يحجون اليهما
من كل الآفاق ، أحدهما ابو العباس ثعلب ، وثانيهما ابو العباس المبرد .
كان هذان المعلمان متفقيين ومختلفين ، اتفقا في الفضل وقدر العلم ،
واختلفا في النهج والطباع ، فثعلب يسلك مذهب المعلمين فلا يعطي اكثر
بما يطلب منه ، والمبرد يفيض ويزيد ، وثعلب يروغ من المبرد لانه
يغلبه اذا تنازعا ، والمبرد يبحث عنه لينازعه فيفوز بحكم الناس له
بالغلب في مجالس المباحثة التي كانت تعقد في بيوت العلية والكبراء للنظر
بين الفقهاء والمتكلمين في انواع العلوم العقلية والسمعية أصولها وفروعها ،
ولكنهما برغم ذلك لبيان يتواضعان للعلم ويتعاليان على العامة من الناس .
ويجلس ابن المعتز الى هذا مرة والى هذا أخرى ، ثم يجمعها مرة ثالثة
ليفكره نفسه بنزاعهما ويصير حكماً بينهما .
وإذا جلس الى ثعلب وجد فيه صورة صادقة لابن الاعرابي في النحو

تمزج بين رأي أهل الكوفة ورأي أهل البصرة ، وتخلص إلى صورة جديدة جامعة تؤلف بينهما ، ووجد فيه بحر علم يمتد الآفاق قد وسع حفظه الشعر العربي القديم ، وألم بمسائل اللغة وطرائفها وزوايا النحو ودقائقه ، ثم رأى فيه معلماً متمتماً ذا جد ، يجب أن يكون له وقار المعلم وسمته في كل مجلس وأمام كل عين حتى لو كانت عيون الأمراء ، وهو رجل صادق اللهجة دائماً ، وهو أصدق لهجة حينما يعلو في أسلوبه لابن المعتز ويعرض عليه فيه صوراً شتى من فصيح كلام العرب وقواعد شعرهم ونحوهم ، ثم يعطف على أخبار العرب ومعاني القرآن ، ويخص ديواني زهير والأعشى بالرواية والعناية والشرح والتفصيل ، ثم يعرج به على شعر النابغة وطفيل والطرماح ، وقالوا إنه كان يعرج به على شعر له أيضاً فقد كان ثعلب شاعراً * ولكنه ظن بعيد .

حتى إذا انتهى الأمير من درس ثعلب شمر عن ساعده إلى البحر الطامي محمد بن يزيد المبرد الذي انتهى إليه نحو البصرة بعد طبقة الجرمي والمازني ، فيجده يمتد الآفاق كذلك ، كثير الحفظ عالماً بدقائق النحو واللغة والعروض ، واسع العلم في الأدب والبلاغة والقرآن . وكان كثير الأنس بهذا المعلم لما رآه فيه من التدفق وحسن العبارة وفصاحة اللسان ، ولما رآه فيه من قبول الجدل والمحااجة وعدم الزهو بالفوز إن غلب ، والنزول على رأي مخاصمه في رضا وتواضع إن كان الحق للخصم فانتصر ، ولما رآه فيه من مطاوعة البديهة والقدرة على إملاء علمه في المجلس على طلابه الكثيرين في ثقة من علمه واعتزاز .

* حكوا عن ثعلب أنه وصف قطائف قدمت له بين يدي الخليفة المكتفي بقوله :

قطائف قد حشيت باللوز وسكر الماذي حشو الموز
تسبح في آذي دهن الجوز سررت لما وقعت في حوزي

سرور عباس بقرب فوز

والأرجح أن ثعلباً تمثل بهذه الأبيات وليست له وإنما هي لابي يحيى بن أبي منصور المنجم . والماذي = العسل . والآذي = الموج . وعباس هو ابن الأحنف . وفوز معشوقته .

وقد دامت آصرة المودة بينهما ، واستشفع الناس بالمبرد لدى ابن المعتز
فما رد استشفاعه :

قالوا : غضب ابن المعتز يوماً على أحد وكلائه ، فصار الوكيل إلى
المبرد يسأله أن يشفع له لدى الأمير . فكتب إليه المبرد : أنت والله كما
قال مسلم بن الوليد في جدك الرشيد :

بأبي وامي أنت ما أندى يداً وأبر ميثاقاً وما أذكاك
يغدو عدوك خائفاً فاذا رأى أن قد قدرت على العقاب رجاً كما

فذهب غضب ابن المعتز على وكيله .

وأعظم أثر تركه المبرد في تلميذه كان توجيهه للتشبيه ، فاشتغل به
طول حياته ، لأنه كان حين يعرض الحسن والودي . من أقوال الشعراء
القدامى وبعض المحدثين يمضي فيها فيشرح روعتها ويبين جمالها ، ولا يكتفي
بنقد التشبيهات وجودتها وتبيين المعنى المبكر أو المسروق ، ولكنه كان
يتعرض للشعراء ومذاهبهم الشعرية وأكثرهم تشبيهاً وأندرهم ، ويعمل
ويستشهد ويعقب برأيه في كل ما يورد استحساناً أو استهجاناً .

وثعلب والمبرد أفضل اثنين لقيهما ابن المعتز من المعلمين ، بل انهما
إماما عصرهما في العلم واللغة جميعاً ، حجّ إليهما الطلاب من العراق
والاطراف وسجستان وأغدقوا عليهما الاموال ، ولم يأل طالب علم في
ذلك العهد جهداً أن ينفق المال فيه ، حتى كان الغني منهم ينفق في تحصيله
مئات الألوف من الدنانير .

وقد قيل إن ثعلباً مات وخلف واحداً وعشرين ألف درهم والف في
دينار وغلّة بشارع باب الشام قيمتها ثلاثة آلاف دينار .

وقد مدح هذين العلمين أبو بكر بن أبي الأزهر بقوله :

أيا طالب العلم لا تجهلن	ولذ بالمبرد أو ثعلب
تجد عند هذين علم الوري	فلانك كالجل الاجرب
علوم الخلائق مقرونة	بهذين في الشرق والمغرب

ابن هبيرة

وهناك علم آخر من الاعلام اختص بابن المعتز وكان له فيه أثر عظيم .
ذاك هو أبو سعيد النحوي محمد بن هبيرة الاسدي المعروف بصعوداً
من اعيان الكوفة ومن اعلمهم بالنحو واللغة وفنون الادب ، وكانت
له ميزة عن كل اولئك المعلمين ، تلك انه كان احد المعنيين بدراسة شعر
المحدثين ، والجديد لحفظه ومعرفة محاسنه ، فهو غير ثعلب والمبرد في
مذهبهما ، اذ هو محتج بالجديد ويعرف له فضله .

اختص هذا المعلم بالامير حين قدم بغداد ، وكتب له رسالة فيما
انكرته العرب على ابي قاسم بن سلام .

ولما كتب صعوداً كتاب « مختصر ما يستعمله الكاتب » كان ابن
المعتز قد استحصل ، فأصلح المختصر ووافق على ما جاء في رسالة صعوداً في
ابن سلام .

وقد وجه صعوداً هذا نظر ابن المعتز الى شعر الطائي ، وحمل اليه
اخباراً كثيرة عنه وحدثه بفضله وسبقه ، ولم يزل به حتى اعجب بأبي
تمام اعجاب معلمه به ، وروى اخباره كما رواها ، ثم روى معها اخبار
البحثري ، واصبح الامير بفضل معلمه هذا من انصار ابي تمام والمقتدين
به والمتعصبين له .

عشراؤه

وكان من عشراء الامير غير هؤلاء ابو بكر محمد بن يحيى الصولي ،
وقد كان صديقاً وفيّاً ، الا انه لم يستطع انقاذه من يد مؤنس في فتنة
المقتدر * ، والصولي راوية مكثرة ، وشاعر محسن ، وأديب ظريف حافظ جماع
للكتب ، وقد بلغ من روايته الواسعة ومحفوظاته الكثيرة انه كان له
فيما يقولون خزانة كتب كبيرة من تصنيفه ، جلودها مختلفة الالوان ،

* انظر صفحة ٩٧ من كتاب يوم ولاية المؤلف .

وكان يعجب بها ويتباهى ويقول : هذا كله سماعي . واذا ما احتاج الى معاودة شيء منها قال : يا غلام ، هات الكتاب الفلاني . وقد قال فيه ابو سعيد العقيلي :

انما الصولي شيخ	اعلم الناس خزانة
ان سألناه بعلم	نبتغي عنه الابانة
قال يا غلمان هاتوا	رزمة العلم فلانه

وكان الصولي من ألب أهل زمانه بالشطرنج . وصار لهذا أول ندماء الخليفة المكتفي والمقتدر من بعده ، وقد اعتمد الصولي في أخباره عن أبي تمام على كثير من رواية ابن المعتز له .

ومن عشرائه محمد بن القاسم بن خلاد البصري الكاتب صاحب النادرة والمشهود له بالذكاء . وعبدالله بن طاهر بن الحسين الراوية المؤلف والشاعر اللطيف الرقيق الحاشية والحسن السبك والمقصد . وجعفر بن محمد بن قدامة الذي أخذ اللغة وغريبها عن صعودا صاحب الفراء ، وقدامة بن جعفر أحد البلغاء الفصحاء والفلاسفة الفضلاء .

ولعله لم يفته أن يجالس الزجاج المؤلف تلميذ المبرد ونديم المعتضد ومعلم ابنائه والمقرب الى الوزراء من آل وهب . وابن السراج صاحب المنطق والموسيقى تلميذ المبرد . وابن درستويه تلميذ المبرد وثلعب . وابن العلاف الشاعر نديم المعتضد . ومحمد بن القاسم الانباري تلميذ ثعلب . ولعله لقي أيضاً ابن قتيبة ونفطويه وعمر بن شبة وابن أبي فتن . وعلماء وندماء لا يحصون عدداً من الأئمة ورجال الفقه والحديث والشعر والرواية ومختلف الفنون .

اثر البيهتين فيه

اتصل ابن المعتز أوثق اتصال بهذه البيئة الخاصة ، وهي بيئة من العلماء الذين ينظرون في العلوم العربية ، ولكنك لا تستطيع ان تصف

واحداً منهم بأنه قد تخصص في صنف من العلم القديم دون صنف ،
فالتخصص في العلم لم يكن من شيمة ذلك العصر .
وما كان ابن المعتز ليستطيع أن يقبض نفسه عن العالم الخارجي
أو يمنع شهوته من الامتداد إلى معاشرة الخلفاء والامراء وهم يدعونهم
اليهم ، ولا سيما حين نبه شأنه وعلا ذكره ، فألقى بنفسه بين أيدي هذه الجلة
من خاصة علماء عصره ، ولكن نفسه أقيت برغبتها في البيئة العامة واضطربت
اضطرابها .

ولم يكن ابن المعتز يخلو من شهوة ، فقد غلب عليه المزاج الشعري
وصار له فيه مذهب خاص ، واستحث خطاه مترسماً خطوات الشيطان في
الاديرة والسميريات والخلوات ، وفي داره أو في مجالس اللهو والغناء * .
وكان الرجل يلقي بعقله أحياناً إلى العلم والفهم ، أما نفسه فكانت دائمة
الانصراف إلى الشهوات ، وقد لزمه الخيال الشعري في كل ما أنشد
وما ألف ، حتى في أسماء كتبه التي منها : كتاب الزهر والرياض وكتاب
البديع ، وكتاب مكاتبات الإخوان بالشعر وكتاب الجوارح والصيد ،
وكتاب السرقات ، وكتاب أشعار الملوك ، وكتاب الآداب ، وكتاب
حلي الاخبار ، وكتاب طبقات الشعراء المحدثين ، وكتاب الجامع في
الغناء ، وكتاب الفصول القصار ، وكتاب تباشير السرور ، وكتاب
المؤتلف .

وقد سلم أدب ابن المعتز وإنتاجه العلمي للناس ، وقرّبه مكانه من العلم
إلى الخلفاء وإلى الوزراء ، حتى إذا ضعف بعض الضعف عن امساك نفسه
دون شهوتها السياسية واشتد دفع الطامعين له إلى الخلافة تلفت نفسه ،
ولم تجد جثته من يُعنى بدفنها ، ولكنه ظل حياً بعلمه وأدبه ، وسيظل
نابضاً بالحياة ما اختلف الملوان وتعاقب النيران .

* انظر صفحة ٢٩ إلى ٣٢ من كتاب يوم ولية للمؤلف .

مذهب السفيري

السهولة والوضوح

ذهب ابن المعتز في معظم شعره مذهب السهولة والرشاقة والوضوح والقرب واللين يتوخاها جميعاً ، فيختار المعنى قريباً واضحاً ويختار اللفظ عذياً مليحاً ، فلا يغرب به على سماع أحد من حيث لا تنقصه الجزالة ، ولعل النظر الى الكلام بهذه النظرة كان مذهباً شائعاً في ذلك العصر ليقابل مذهب ابي تمام في اثاره الاغراب والغموض * واستاذ هذا المذهب المبجيري الذي يصف الكلام الجيد بقوله :

في نظام من البلاغة ما شك امرؤ انه نظام فريد
حزن مستسهل الكلام اختياراً وتجنبين ظلمة التعقيد
وركن اللفظ القريب فأدرك من به غاية المراد البعيد

* لا يخفى ان المراد بالقرب ان يثير في السامع اعمال الفكر ليدرك المعنى واضحاً ، أما السهولة المبثثة والتي لا تحتاج الى اعمال الفكر فليست مرادة .

ولكن ابن المعتز يبالغ في هذه السهولة فيدنو بالفاظه من الفاظ الناس وادراكهم ، مع الاحتفاظ به متمسكا في معظم الاحيان ، قويا في بعضها ، دانياً قريباً احياناً ، ولا يصف لك هذا الادناء والتقريب في شعره ، حتى لتكاد تحسبه ناثراً الا مثل قوله :

« كأنني بك قد قلت ، وأطنبت وأكثرتا ، وهونت وعظمت ، واسرفت وافرطتا ، وقربت وبعدت وطولت وعرضتا ، ووليت واقبلت ، وقدمت وأخرتا . فدع عقلك هذا فبالعقل تبرعنا »

الا ان ابن المعتز لا يستطيع ان يجد لشعره في الطرد الفاظاً قريبة ، فيضطر الى الاغراب في أراجيزه وطردياته على الاخص كما سيأتي .

وكذلك يتوخى الوضوح والسهولة في الاسلوب ، فلا يعقد ولا يقدم ويؤخر ، ولا يصعب ويصلب ، وهو في كل ذلك انما يسير طبقه الرقيق ومزاجه اللطيف ، ويسلك مسالك اولاد الملوك ، فهو لا يتحاشى الحشونة والغرابية عن صنعة واحتيال ، بل لطبع مخلوق ومزاج موروث .

ويراود ابن المعتز المعاني متوفة كريمة فتطاوعه قوية قريبة ، ويلبسها اسلوبه الرشيق فيتجانس لفظه ومعناه اتم تجانس ويتماثلان ، وكأنما لسانه وقلبه قد قرب احدهما من الآخر واتفقا وتقابلا ، فانعكست صور قلبه انعكاساً واضحاً صادقاً على مرآة لسانه ، وعلى هيئتها وحقيقتها ، وقد صفا ابن المعتز ورق كضحضاح الماء النмир يظهر سطحه وقراره لأول لحظة من ناظر ، ويبين اهتزازة وسكونه لأدنى ادراكة من لامح ، فما ينوي عملاً او يتحرك في نفسه خاطر او يهمس بين جنبيه هامس الا ظهر على لسانه مصوراً في كلامه ، وكأنما خلق ابن المعتز وليس له سر ، فهو ينقل دائماً ما في قلبه للناس غير متغير ولا منقوص .

وقد صار الناس في مذهبه هذا على فريقين ، فريق يحبه ، وفريق يطعن عليه ، فنظر قوم الى تقصيره فغمطوا حقه ، ونظر آخرون الى جيده ففضلوه ، ولم يعدل أحد في الحكم عليه من بعده ومن قريبي العهد به أكثر من

أبي الفرج الاصفهاني ، فإنه وفاه حقه ، واعتذر له في ميله عن الاغراض القديمة بركة الملوكية وغزل الظرفاء وهلهة المحدثين ، وهو دفاع أشبه بدفاع المدرسة الجديدة : مدرسة المحدثين أمام مدارس القدماء من أهل النحو واللغة الذين ظلوا يفضلون القدماء ولا يرون المحدثين شيئاً ، لتأثرهم بالاخذ عن الأعراب وأهل البدو فصيح الكلام ، ولا يلافهم ما جمعه وحفظوه من الشعر الجاهلي والاسلامي .

وكذلك دافع عن مذهبه هذا عمر بن علي المطوعي في كتاب الفه في شعر أبي الفضل الميكالي ومنشوره وفي فرق الشعراء ، وذهب فيه مذهب الفرزدق في نقد الشعر حيث يقول :

وخير الشعر أكرمه رجالاً وشر الشعر ما قال العبيد

فذكر (المطوعي) أن امرأ القيس في المتقدمين أمير الشعراء غير منازع وسيدهم غير مجاذب ولا مدافع ، وعبدالله ابن المعتز بالله أمير المؤمنين في المولدين ...

التجديد

وقد قيل إنه أخذ معظم معاني من سبقوه ، اوقعهم في هذا القول كثرة حفظه واتساع أفق اطلاعه ، ومع ذلك فقد حافظ على شخصيته فيما أخذ وفيما لم يأخذ ، فامتاز شعره عن شعر سابقه وعن شعر لاحقيه . ولقد أبلغه مكانه من المجتمع فساحة في الحرية ، لا تتاح لكثيرين من الادباء ، وهم لا يستبيحونها لانفسهم ، بل يجدون في انفسهم حرجاً ان يؤتوها ، ويظنون في مضيق التقليد والخوف من التعقيب على السالفين ، ويتحرزون من التصرف في المعاني التي سبقوا بها . اما هذا الامير فقد انطلق حراً شجاعاً يبتكر ما وسعه الابتكار ، ويتصرف في المعاني كلها عن له ان يتصرف ، ويتكلم على نفسه كثيراً في التصرف والابداع ، فان اخذ عن الناس استعان بمقدرته وخياله فتندقح له من بين ما أخذ

معان غريبة لم يُسبق إليها ، وإنه ليروقه المعنى المبكر أو المسبوق فيقول فيه ويكرره غير مبال ولا هباب ما دام له فيه شيء جديد ، وهكذا يحسن الاخذ ويحمد التجديد .

نعم إنه مسبوق بالتجديد منذ أصبح للمحدثين شعر غير شعر القدماء ، ومنذ شيخ المحدثين والمجددين بشار ، ولكنه جرى في صياغة الشعر كما جرى أبو تمام ، فبعدها به معاً عن الصياغة التي جرى عليها الشعراء السابقون .

قال ابن رشيق في معرض المفاضلة بين طبقة ابن المعتز : « وما اعلم شاعراً اكمل ولا اعجب تصنيفاً من عبدالله بن المعتز ، فان صنعته خفية لطيفة لا تكاد تظهر في بعض المواضع الا للبصير بدقائق الشعر ، واقربهم قوافي واوزاناً ... ثم قال : وانتهى علم البديع والصنعة اليه وختم به »

العروض

وقد انشد ابن المعتز من مجور الحليل كلها واطال فيها ، ووافق مجالسه في اللهو والتمر ان ينشد المقطوعات الكثيرة التي يرشح فيها للمعنى المراد بالبيت او البيتين ، فيأتي الثاني أو الثالث ختاماً قوياً ، والامثلة في شعره كثيرة جداً في هذا الضرب .

اما مطالع قصائده فتدل على حسن الذوق والاختيار والحرية ، وقد اكثر من الانشاد في الاوزان القصيرة والمجزوءة تمشياً مع السهولة التي كلف بها وهي اليتق به وبعيشه وبيئته .

ولم يهب ابن المعتز ان يقول في الروي الصعب من القوافي كروي الظاء والواو والشاء . ثم يعن له ان يتحرر من الروي فيتحرر ، ويعن له ان يصرع مرة ومرتين في القصيدة فيفعل ، وذلك في مثل قصيدة له يعتب فيها على الدهر فيقول في مطلعها :

يا دهر يا صاحب الفجيعات في كل يوم تسيء مرات

ثم يعود بعد أبيات منها فيقول مصرعاً :
 قد كنت ابكي اهل المودات فصرت ابكي اهل المروءات
 وفي قصيدة اخرى يقول في مطلعها :
 يا دار يا دار اطراي واشجاني ابلى جديد مغانيك الجديدان
 وبعد هذا المطلع بقليل من الابيات يعود فيقول مصرعاً :
 لما وقفت على الاطلال ابكاني ما كان اضحكني منها وألهاني
 واغلب علماء العروض على ان كل هاء تحرك ما قبلها فهي صلة ، الا
 ان تكون من نفس الكلمة فانك تكون فيها بالحيار ان شئت جعلتها
 روياء . وكثيراً ما يسقط الشعراء في هذا النوع ، ومنهم ابن المعتز ، قال :
 افنى العُدَّة امام ما له شبه ولا ترى مثله يوماً ولم تَوَّه
 ضار اذا انقض لم تحرم مخالفه مستوفز لا تباع الحق منتبه
 ما يحسن القطر ان ينهل عارضه كما تتابع ايام الفتوح له
 وقال ايضاً يصف كلاب الصيد :
 ان خرطت من قدها لم ترها الا وما شئت من الصيد لها
 تمسكه عضاً ولا يدعى به * غريزة منهم او تفقها

المغايرة

ولا يأبى ابن المعتز ان ينظر الى الشيء مرتين وينشد في وصفه الضدين ،
 فيمدحه مرة ويرجع عليه بالذم اخرى مناقضاً نفسه ، او مكافئاً بين الادلة ،
 وملزماً لسانه ان يجيد في الحالين وان يطرب السامع ويقنعه اذا سمع
 الضدين ، وهو في هذا المذهب يرى - كما يرون - ان مناقضة الشاعر
 نفسه ومغايرتها في معنى من المعاني دليل القدرة على البديع ، الامر الذي
 يدل على جودة الطبع وصفاء القريحة وغزارة المعاني وتوسع الالفاظ .

* العمدة الجزء الاول ص ١٣٥

وضمير الفاعل في يدعى للطير ، والهاء في « به » عائدة على العض.

ومن تلك المغايرة مدحه الشرب في الصحو وذمه في المطر بقوله :
 انا لا اشتهي سماء كبطن ال
 بين سقف قد صار مُنخل ماء
 وبيوت يوقّع الوكفُ فيه
 انما اشتهي الصبوح على وجه
 ونسيم من الصبا يتمشى
 وكأن الشمس المضيئة دينا
 رُجلته حذاء الضراب
 به سماء مصقولة الجلباب
 فوق روض ند جديد الشباب
 غير والشرب تحتها في خراب
 وجدار مُلقى وتل تراب
 ن وايقاعه بغير صواب

ثم عاد يمدح الشرب في المطر في قوله :

لا شيء يسلي همي سوى قدح
 تدمى عليه اوداج ابريق
 في يوم غيم يزجي سحائبه
 برق ابتسام ورعد تصفيق
 وارجوزتا ابن المعتز في مدح الصبوح وذمه مشهورتان ، وقد مدحه
 في الاولى ومطلعها :

لي صاحب املتي وزادا

ثم عاد عليه بالذم في الاخرى ومطلعها :

على الصبوح لعنة الرحمن *

ومن مغايراته ايضاً قوله يمدح الجود :

اذا لم اجد بالمال جاد به الدهر
 على وارثي والكف في قبرها صفر
 وعوده يمدح البخل ويحث عليه في قوله :

يا رُبَّ جود جرّ فقر امرى
 فاشدد عرى مالك واستبقه
 فقام للناس مقام الذليل
 فالبخل خير من سؤال البخل

ومن مغايراته قوله يمدح القمر :

ومصباحنا قمر مشرق
 وعوده اليه بالذم في قوله :
 كترس اللجين يشق الدجى

* يحسن بنا ان نشير هنا الى ان معظم خريات ابن المعتز في الصبوح ، فليرجع الى ديوانه .

يا سارق الانوار من شمس الضحى يا مشكلي طيب الكرى ومنغصي
 ما ضياء الشمس فيك فناقص وأرى حرارة فارها لم تنقص
 لم يظفر التشبيه منك بطائل متسلح بهقاً كجلد الابرص
 وقد قلنا من قبل إن هذه المغامرة كانت اثرأ للاضطراب الفكري
 العام في ذلك العصر ، ونزيد الآن أنها في ابن المعتز خاصة اثر اضطراب
 مزاجي ورثه من ابيه ، ولكنه استطاع ان يحوله من اضطراب في
 المزاج وتردد مذموم في السياسة الى ذبذبة أدبية وطرافة ممدوحة ، ولانه
 كان متكلماً مجادلاً يضع البراهين فهو يمتحن قدرته في وصف الشيء من وجهه
 الحسن والقبیح على سواء .

البديع

وابن المعتز يحفل بالبديع ، وإنما يقتصد فيه ولا يسرف إسراف ابي تمام
 فلا يكون بمقوتاً ، وكأننا واتاه طبعاً فلم يصنعه ولم يتكلفه ، وقد تحرز
 ايضاً ان يقع في سوءات بديع الطائي . ومن نحا نحوه ، وهو الناقد لمذهبه
 المبين لنقائصه ، ولكنه وقع - مع تحرزه وحذره - في ابتكارات
 ضعيفة وتكلف ملوم ، ولم يسلم شعره من النقد ، وقد جاء النادر منه
 خارجاً عن الذوق الادبي الرفيع لحرية الفاظه وحرية تصويره ، ومثل هذا
 الشعر قاله في مجالسه الخاصة حيث يباح الخروج عن الكلفة .

ومن بعض ما جاء بين الضعف عند نقاد الادب قوله :

أثمرت أغصان راحته لجناة الحسن عناوبا

فوصف الاصابع بالاغصان مغلاة في الصنعة خرجت بها عن الحسن .
 وقوله في المعنى نفسه :

أشرن على خوف باغصان فضة مقومة أثمارهن عقيق
 وصاحب العمدة يقول : ليس في هذا التشبيه اصابة .
 ومن ضعيفه ايضاً قوله :

يكاد لولا امم الاله يصحبه
تأكله عيوننا وتشربه
ونسبة الأكل والشرب للعيون بعيدة .
وقوله ايضاً ، وهو ظاهر التكاف :

مات وصالٌ وعاش صدٌّ وذل مولىً وعزٌّ عبد
وكذلك جاء بعض تشبيهاته جامداً لا حياة فيه حيث تحسن في
الصورة الحركة والحياة ، ومن هذا النوع قوله يصف عجاجة :
وعمَّ السماء النقع حتى كأنه دخان وأطراف الرماح شرار
فأين هذا من تصوير بشار لها بقوله :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه
فلا هو بلغ مبلغ بشار في تجسيم الصورة وتصوير الحركة والحياة
فيها ، ولا هو جعل فيها من الهول والتفزع ما تطلبه ، فجاءت هينة
مينة لا ترهب ولا تثير .

ويتأثر ابن المعتز بمعاني القرآن والحديث تأثراً ظاهراً فيصوغ معنى
الآية او الحديث في لفظه وكأنه من عنده ، وذلك مثل قوله في الله تعالى :
« ويدنو من الداعي ويعطى فيكثر » . فقد تأثر بقوله تعالى : « وإذا سألك
عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » .
ومثل قوله فيما ينفع من المال :

إنما مالي ما انفقته * والذي أتركه للورثة
قد تأثر فيه بحديث مشهور .

وكذلك يكثر اقتباس ابن المعتز من الامثال والشعر القديم وذلك
كقوله : « وقد عدت بعد النسك والعود أحمد » .
وقد يجعل اقتباسه نوعاً من التشطير في قوله :

* الواو هنا تعطف الجملة على سابقتها وليس العطف على (ما) لئلا يغيب المعنى
الذي يريد ابن المعتز .

خليلي بالله اقعدا نصطيح بلا قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل
ويا رب لا تنبت ولا تسقط الحيا بسقط اللوى بين الدخول فحومل

المذهب الكلامي

ولقد قدر للعراق الغني بموارده الطبيعية ان يكون في العصر العباسي
الاول حلقة الاتصال بين العالم الاسلامي والعالم الايراني ، فكان بذلك
واسطة العقد بين العنصرين الرئيسيين اللذين تألفت منهما الجماعة الاسلامية ،
وكان من حظ ابن المعتز الاديب الشاعر ان ينشأ بين قوم انتهت اليهم
ثقافة العصر الاول العباسي وفلسفته ، وكانت مذاهب علم الكلام في
عصره قد بلغت الاوج ، ومعظم الناس في سامرا وبغداد على المذهب
الكلامي الذي اعتنقه ابراهيم بن سيار النظام في الاعتزال ، فذهب ابن
المعتز مذهب المتكلمين ونهج نهجهم العقلي المنطقي المرتب ، وردم الخصم
بالحجة والدليل . وقد كثرت امثلة حججه ودفاعه في شعره ، وكان اظهرها
في ارجوزته المعتضدية التي سنأتي عليها بالتفصيل .

التشبيه

ومن السهولة وقصد التوضيح ان يسلك الشاعر في اداء المعاني طريق
التشبيه لان التشبيه من طبعه يوضح المعنى ويقربه او يقرره ويحسن المعنى
حسبا يريد البليغ . وقد سلك ابن المعتز طريق التشبيه في اداء
معانيه بل قد اختص به وغلب عليه ، وصار التشبيه ابرز خصائص شعر
ابن المعتز ، واعتبر منه الوحيد في اسلوبه الذي جعله للأداء والاقناع
والتأثير في النفوس ، وقد ركز كل قوته فيه فظهرت عبقريته وطال
إمتاعه .

وقد ضرب المثل بتشبيهاته في كثرتها وحسنها ، واجمع اهل البلاغة
والادب والشعر على تلقيبه بأمير التشبيه او زعيم التمثيل الشعري . وقد
سبق ابن المعتز الناس بادعائه زعامة التمثيل اذ قال : « اذا قلت كأن

ولم آت بعدها بالتشبيه فض الله فمي ، ويريد بكأن ، اداة التشبيه او ارادته . وقد سَلَّم الناس بزعامته فقالوا : اذا رأيت كاف التشبيه في شعر ابن المعتز فقد جاءك الحسن والاحسان .

وقالوا انه لما كان غديّ النعمة وريّيب الخلافة ومنقطع القرين في البراعة تهيأ له من حسن التشبيه ما لم يتهيأ لغيره ممن لم يروا ما رآه ولم يستحدثوا ما استحدثه من نفائس الاشياء وطرائف الآلات . وبهذا المعنى اعتذر ابن الرومي في تقصيره عن شأو ابن المعتز في الاوصاف والتشبيهات ، مع ان ابن المعتز كان ناشئاً وابن الرومي قد اوفى على الستين . وضربوا المثل للفرق بين الشاعرين بتشبيه ابن المعتز لهلال العيد بزورق الفضة المثقل بحمولة من العنبر ، وبتشبيهه للأذريون حين يقابل الشمس بمداهن الذهب التي بقيت فيها بقية من طيب الغالية ، والقصة معروفة واشهر من ان نعود الى ذكرها بالتفصيل .

وقصة ابن الرومي مع ابن المعتز هذه تصلح في التشبيه الذي يستفيد نفاسه من نفاسة المشبه به . اما وابن المعتز قد عاش في مختلف طبقات الناس وعرف عناصر بيئاتهم فانه يتساوى مع ابن الرومي في تشبيهاته ، وله في ذلك الشيء الكثير . فهو اذن يتساوى مع ابن الرومي فيما يراه ابن الرومي في بيئة الناس ، وينفرد عنه بما يراه هو في بيئته خاصة ، وهذا هو الحكم الصادق في حل قضيتها هذه ، ولعله رأي خاص بعد دراسة شعر ابن المعتز دراسة مستفيضة . وكان ابن الرومي في حكمه على النوع الاول من تشبيهات ابن المعتز صادقاً كما قال ابن جني : من ان صفة الانسان ما رأى يكون لا شك اصوب من صفة ما لم ير .

وهناك اسرار غير الكثرة والحسن والنفاسة في تشبيهات ابن المعتز ، ذلك انه يتوخى الایجاز في التشبيه فلا تراه يطيل فيه ، ومرعان ما يلحق الطرف الثاني بالاول في كلامه ، فيصل المعنى الى السامع سريعاً لم ينطفئ لمعانه او تضعف قوته .

ثم انه اطلق لفكره العنان فلم يضيق عليه ولم يجبره ان يلتزم طريقة القدماء في تشبيهاتهم ، بل تركه ليتكر حراً وثاباً جريئاً ، فظهرت شخصيته في التشبيه ، ولم يعد يستعصي على ذي بصر وخبرة ان ينسب تشبيهات ابن المعتز اليه ، ولم يبق ابن المعتز على مذهب القدماء الذي يقول فيه ابن جني : ان تشبيه الانسان ما عاين بما عاين افضل من تشبيه ما ابصر بما لم يبصر ، بل شبه ابن المعتز المعنوي او المحسوس بالمعنوي متى اتضح في الذهن اتضح الجسم ، ولم يبال بانه لم يسبق في ذلك بكثرة بالغة ككثرته ، وهذا يعد مظهراً قوياً من مظاهر حرية التعبير ، ويعد كذلك مظهراً من مظاهر تأثره بالتفلسف والكلام في عصره . ومن امثلة ذلك قوله يصف الشيب :

ان شيب الرأس نور الهموم

وقوله يتغزل :

يقول العاذلون تغزّ عنها وأطف لهيب قلبك بالسوا
وكيف وقبلة منها اختلاسا الذّ من الشّامة بالعدو
او قوله يصف الفرس :

يسبق شأو النظر الرحيب أسرع من ماء الى تصويب
ومن نفوذ الفكر في القلوب

او قوله يصف الكاس :

وقد خفيت من لطفها فكأنها بقايا يقين كاد يذهب الشك
بن المعتز لما كان رجلاً رخيّ البال مخدوماً فانه كان ينفق كل وقته لما شاء وكما شاء ، فهو سائح وراء التشبيه يتصيد انى وجده ، والتشبيه يدنو له كلما التمسه . نعم إنه حيناً ينظر في ماعون بيته وأثاثه او بالاحرى في ماعون بيوت الخلفاء وأثاثها ثم يشبه بها ما أراد ، فتكون تشبيهاته غرر التشبيهات ، وأحياناً يشترك مع الناس فيما يعرفون ويرون خارج داره وخارج دور الخلفاء ، لانه واحد من وحدانهم فيشبهه

بالشيء من بيتهم ، ولكنه لا بغية له من ذلك إلا صنعة التشبيه وصيده
والتسلية به ، اما الآخرون فهم مشغولون بالتصرف في الشعر بين التشبيه
وغيره ، يطلبون بشعرهم حاجاتهم ، فعين كان قضاء حاجات الشعراء موكولاً
الى شعرهم كان ابن المعتز ينشده للتسلية واللعب ، فكان عنده ضرباً من
الزينة والترف . ولنا نعيب عليه ذلك ، بل ولا نجد أليق به من هذا
المذهب . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد أصبح الشعر معبوداً
لذاته يُعنى الشعراء به عناية فنية ، اغلبها راجع الى الشكل ، وصار
على الشاعر ألا يخاطب به القلوب والمشاعر فحسب ، وانما يؤلف للأذن
ألواناً تأنس اليها كالألوان التي تألفها العين ، وليس على الشاعر الذي
بشمت نفسه بالملذات أن يذهب في غير مذاهب الزينة والترف .

وشيء آخر شكلي في تشبيهات ابن المعتز فطن له الشريف المرتضى ،
وهو اخرى بان يسمى التشبيه العددي ، قال الشريف : تأملت ما
اشتملت عليه تشبيهات الشعراء فوجدت أكثر ما شبهوا فيه الشيء بالشيء
الواحد او الشئين بالشئين ، وقد تجاوزوا ذلك الى تشبيه ثلاثة بثلاثة
وأربعة بأربعة ، وهو قليل ، ولم أجد من تجاوز هذا القدر الا قطعة
مرت بي لابن المعتز فانها تضمنت تشبيه ستة بستة أشياء وذلك في قوله :

بدر وليل وغصن وجهه وشعر وقد
خمر ودُرٌّ وورد ريق وثغر وخذ

وقد تحامل ابن المعتز على نفسه كثيراً حتى أجاد هذه الصنعة ، وبما
يشبه هذا قوله :

والعيش هر والموت مر مستكره والمنى ضلال
والحرص ذل والبخل فقد وآفة النائل المطال

ولكننا لا نغنى بمثل هذا التشبيه العددي ، ولعل ابن المعتز لم يعن
به ايضاً فلم يأت الا بأمثلة قليلة منه . وقد يكون قوله في مثل هذا
رياضة مقدرة لا انتهاءً بالبلاغة الى هذا النوع . والغالب على ابن المعتز في

هذا التشبيه العددي ان يكثر من المشبه به لمشبه واحد كقوله في الصبح :
 جلا لنا وجه الثرى عن منظر كالعصب او كالوشي او كالجوهر *
 ولقد نرى ابن المعتز قد اغرم احيانا بكأن او كأنما فتتوالى في اوائل
 ابياته ، كقوله يصف الركائب وقد اضنتها سرعة المسير :

كاد السحاب يُطيرها لولا الازمة والحقائب
 وكأنها قطع الرغا م على جماجمها العصائب
 وكأننا اضلاعها اقواس نبع او مشاجب
 وكأننا اجفانها تغضي على قلب نواضب

ولم يبلغ احد من الشعراء بكأن ما بلغ بها ابن المعتز ، حتى ولا ابو
 القاسم محمد بن هانىء الاندلسي حين قلده في كثرة التشبيه بها في ابيات
 متوالية حيث قال :

كان رقيب النجم اجدل مرقب	يقلب تحت الليل في ريشه طرفا
كان بني نعش ونعشا مطافل	بوجرة قد اضلن في مهمه جشفا
كان سهيلا في مطالع افقه	مفارق الف لم يجد بعده الف
كان سهاها عاشق بين عود	فاونة يبدو وآونة يخفى
كانت معلى قطبها فارس له	لواء ان مركوزان قد كره الزحفا
كان قدامى النسر والنسر واقع	قصصن فلم تسم الخوافي به ضعفا
كان اخاه حين دوّم طائرا	أتى دون نصف البدر فاخطف النصف
كان الهزيع الآبنوسي آونا	سرى بالنسيج الحسرواني ملتفا
كان ظلام الليل اذ مال ميلا	صريع مدام بات يشربها صرفا
كان عمود الصبح خاقان معشر	من الترك نادى بالنجاشي فاستخفى
كان لواء الشمس غرة جعفر	رأى القرن فازدادت طلاقته ضعفا

* عقد صاحب « حسن التوسل » بابا في هذا التشبيه العددي فارجع اليه صفحة ٢٥ طبعة
 هندية ١٣١٥ هـ بالقاهرة .

فهذه احد عشر « كان » ليس فيها واحد فيه حلاوة ابن المعتز ولا رشاقتة ووضوحه .

وكذلك لم يبلغ شوقي بكان مبلغ ابن المعتز حين اتكأ عليها يصنع بها تشبيهات متتالية في بائيته (صدى الحرب) فقد جاء بها ثلاثا وعشرين مرة ، ولست أظن ان ذوقاً خالصاً يستعيد منها سوى اثنتين او ثلاث . وكما يبتدع ابن المعتز في التشبيه بكان فانه يبدع في التظنن بها ، كما في قوله يصف الحجرة وحسن ريجها :

فكأنها اهدت اليك بريجها تفاحا

وكما قال في الخمر تميل برؤوس شاربها فلا تعتدل :

وقد شربوا حتى كأن رقابهم من اللين لم يخلق لهم عظام
وكان ابن المعتز يتظرف بادخال اللفظ الاعجمي في شعره وذلك كوصفه الدنان بقوله :

ودنان كمثل صف رجال قد اقيموا ليرقصوا دستبندا *

التصوير

لا اريد بالتصوير هنا سوى رسم الصورة المكونة من اجزاء ، وذلك ما يسميه اهل البيان بالتمثيل او التشخيص ، سواء أكان في التشبيه ام في الاستعارة ، وهذا التصوير أدق فناً واجمل رسماً من التوضيح والتقريب والتقريب التي هي منشودة التشبيه الذي يطلقون عليه اسم التشبيه المفرد . والحق انك لا تستطيع ان تحدد الصفة المرجوة من وجه الشبه في التشبيه المفرد في احوال كثيرة لو لم تفصل في الكلام ، فاذا قيل : الكتاب معلم ، كنت في مجبوحة من الافتراضات ما لم تكن القرينة حالية تحتم العلم بوجه الشبه وتحدده وتسرع بايراده الى الذهن ، فيجوز أن تكون الصفة في مثل ذلك التشبيه « الهداية » وأن تكون « الاتساع » وان

* دستبند نوع من الرقص عند المجوس يأخذ بعضهم بيد بعض ويرقصون .

تكون « المؤانسة » أيّ هذه تريد ، ومثل هذا لا نستطيع ان نسميه تصويراً ، وانما هو توضيح لما خفي معناه ، او تقريب لما ابتعد ، او تقرير لما يحتمل ان يُشك فيه ؛ وهذا مطلب سهل على المنشئين يسيراً على المبتدئين في المناظرة وعقد المشابهة ، بل الفطرة تدل عليه وتوحى به ، حتى العامة تقدر عليه فلا يفوتهم ان يأتوا بهذا التوضيح ظاهراً جلياً لا شبهة فيه ولا غموض . واقل خطأ في هذا التوضيح يثير الضحك او المقت ، كأنما أصبح التوضيح بديهيّة من البديهيّات سواء أكان مبتكراً أم كان من التشبيّهات التي اصطلحت عليها عصور اللغة القديمة وأصبحت اوثناً لنا ننقع به ولا نحيد عن ان نفقه كما هو على وجهه لا يتغير .

ولكنّ التصوير البياني او التمثيل هو الامر ذو الخطر ، وهو الذي يتطلب جهداً وتوفيقاً بين اجزاء الشيء الواحد وأجزاء صورة لا بد ان تجيء متناسبة الاجزاء ، وان تبعث روعة وتأثيراً ، وتلبس بهجة وجمالاً لم تكن لتبعثها او تلبسها الصورة المرئية الحاضرة .

وكانت نزعة ابن المعتز جانحة الى تصوير ما يرى بعينه دون إغراب حتى لتكاد ترى كل وصفه او شعره تصوير مرئيات ، كأنه مصوّر باليد لولا ما بين تصوير اليد وتصوير الخيال من فروق .

والفرق بين التصوير بالخيال والتصوير باليد واضح جليّ ، فروعّة التصوير باليد ان تطابق الصورة المبتكرة الصورة المرئية او المتخيلة تمام المطابقة ، فاذا زادت لوناً او حركة «عدّ» ذلك نقصاً في الصورة وعيباً من المصوّر ؛ أما في التصوير البياني فلك ان تزيد الصورة المرسومة جمال تصوير ، ولك ان تزيدها في الحجم او تنقص ، وتجعل لونها يزهو او ينطفئ ، وتخلق فيها الحركة أو الصمت ، وان كان لا بد من أن تراعي التناسب بين الاجزاء والتوافق بين الالوان . وقد أبيع للمصوّر البياني ان يبالغ في تصويره بينما حرّم على المصوّر بيده ان يخطو نحو المبالغة أقل خطوة . ولعل التصوير اللغوي إذا خلا من الخيال خلا من الحلاوة جميعاً .

ويتفق التصويران في انهما يثيران الاعجاب والشعور او يبعثان النفور والامتعاض والغضب لأمرٍ جامعٍ بين هذه المحدثات ، وهو شعور ألياف حاستي البصر والسمع باللذة منهما . وهذا البحث طويل تكفلت بتوضيحه الفلسفة وعلم الجمال .

ولا نستطيع أن نهمل شخصية المصور وفكرته التي يصبها في كل صورة ، فشخصيته تفيض على تصويره الجودة او الرداءة ، والحسن او القبح ، والدمامة او الجمال ، لذلك كان التمثيل - كما قال ابو الفتح عثمان بن جني - أصعب انواع الشعر وأبعدها تعاطياً ، وكلّ يصف الشيء بمقدار ما في نفسه من ضعف او قوة وعجز او قدرة .

ولست أدعي أن ابن المعتز سبق الى العناية بهذا الفن ، فهو مذهب كل شاعر تعمّد الاجادة الفنية من قبله ومن بعده ، يستعين على مذهبه بالحسّ اكثر من الاستعانة بالتفكير ، ويصور الشيء ملموساً محسوساً ، ولكن ابن المعتز يزيد عن هؤلاء بشخصيته القوية الصافية فتبدو واضحة في تشبيهه وتصويره ، فقد كسا خياله مرثياته الواناً أجمل ، وصارت تشبيهاته جزءاً لا ينفصم من حياته ، وكان وهو يتفرغ لها ويصنعها شاعراً يحس بالحياة وينطق عنها . واذا كان الاوائل قد استحسنوا ظواهر تشبيهاته فان بواطنها لم تخل من فتنة وجمال ، وان كان الظاهر يغلب على الباطن . وقد أضحت تشبيهاته لذلك قلائد التشبيهات ، وتمثلاته لطائف التمثيلات وذاعت شهرتها ، وتناولها الناس تناول الحكم والامثال . وقد قال فيه ابن المرزبان : « وليس بعد ذي الرمة اكثر افتناناً واكبر تصرفاً واحساناً في التشبيه من ابن المعتز :

فانظر الى تصويره للبرق وهو يتردد بين اللمعان والانطفاء في قوله :

فكان البرق مصحف قارٍ فانطباعاً مرّة وانفتاحاً

والى تصويره لهلال العيد في قوله :

فانظر اليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من غنير

وقد قيل من اين للعرب ان تقول مثل هذا؟ وقد كانت العرب قديماً
عن الزورق وتشبيهه بمغزل!

وقد فتح ابن المعتز باب التمثيل لمن بعده من الشعراء فجاءوا
— نسباً على منواله — بالعجب العجيب ، وكانوا من قبل يشبهون لغرض
غير التشبيه لذاته ، اما ابن المعتز فقد علمهم الصنعة لذاتها فجروا عليها .
وهناك ميزة أخرى لابن المعتز ، هي أنه عربي الالب ، ورث المزاج
العربي بينما كان كثير من شعراء عصره ومؤلفيه وعلمائه من عناصر غير
عربية ، كانوا من الفرس او من الموالي . واذا كان شاعر كابن الرومي أصدر
عن عقلية يونانية — كما يقولون — فابن المعتز قد أصدر عن عقلية
العربية وحاول ان ينزهها كالبحتوي عما يداخلها من عقليات آخر ، فجاءت
تشبيهاته وتصويراته أوضح واسهل من كل الاوصاف والتمثيلات .

الاستيعاب

اما الامر الجدير بالالتفات حقاً فهو ان ابن المعتز يدور حول الشيء
الواحد يشبهه ويشبه به من كل ناحية وفي كل وضع حتى شأى الشعراء
جميعاً . واليك مثلاً واحداً يجزيء عن امثلة كثيرة في هذا الباب :
يتلقى الهلال في اول الشهر فرحاً ، وهلال الفطر ابعث الألهة للفرح
للتحلل من مكروهات الصوم به ، فيشبهه قائلاً :

فانظر اليه كزورق من فضة قد اثقلته حمولة من عنبر
فاذا بدا الهلال في صغره ففضح سر ابن المعتز وكشف للرقباء ما كان
مختبئاً عن عيونهم حقر من شأنه قائلاً :

ولاح ضوء هلال كاد يفضحنا مثل القلامة قد قدت من الظفر
فاذا كان ابن ليلتين وظهر في السماء قبل النجوم قال :
كانه ابن ليلتيه من سبهه الدائم القديم
فتح بوسط السماء ملقى ينتظر الصيد للنجوم

فاذا تقدم في السماء وتوسط النجوم قال :
واذا تقدم في النجوم حسبته ملكا تسير مواكب من حوله
فاذا اكتمل الهلال بدرآ فابيض وقابل الشمس حمراء ، في غروبه
وطلوعها قال :

حتى رأيت الشمس تة لو البدر في افق السما
فكانها وكأنه قدحان من خمر وما
ويقول في هذا المنظر ايضاً :

نظرت في يوم لذة عجيبا وافى به للسعود مقدار
يقابل الشمس فيه بدر دجى يأخذ من نورها ويمتار
كصير في يروح منتقداً في كفه درهم ودينار
فاذا انفرد البدر في السماء الزرقاء قال :
والبدر في افق السماء كدرهم ملقى على ديباجة زرقاء
فاذا لمع في دجلة قال فيه :

البدر يضحك وسط دجلة وجهه والماء يرقص حولنا ويصفق
فكانه فيها طراز مذهب وكأنها فيه رداء أزرق
فاذا اخذ القمر في النقصان * قال :

ما ذقت طعم النوم لو تدري كأنما جنبي على حجر
في قمر مسترق نصفه كأنه بجرفة العطر
فاذا كان آخر الليل في اخريات الشهر وصفه قائلاً :

إذا الهلال فارقه ليلته بدا لمن يبصره وينعته
كهامة الاسود شابت لحيته

وحين يرجع ابن المعتز فيشبهه بالهلال سمعته يقول :
مر بنا تشرق الطريق به في قد غصن وحسن تمثال

(*) لا يخفى ان القمر في نصف شهره الثاني وهو يضمحل كل ليلة لا يكون جميلاً جماله في
نصف الشهر الاول وهو ينمو كل ليلة ، ولذلك اتجه ابن المعتز لدمه على مذهبه في المغايرة .

فخلته والعيون تأخذه من كل فج هلال شوال

او قال وهو يصور الحجر خارجة من دنها :

تخرج من دنها وقد حذبت مثل هلال بدا بتقويس

وقد كنا نعد هجاء شعرائنا للقمر في ايامنا هذه لغارات الطائرات
علينا في الليل بدعة جديدة وفناً مستحدثاً ، ولكنه سبق شعرنا الى
هجائه لغارات البعوض في بغداد وشاركه في ذلك ابن الرومي . ومن
هجاء ابن المعتز للقمر قوله :

يا سارق الانوار من شمس الضحى يا مشكلي طيب الكرى ومنغصي
اما ضياء الشمس فيك فناقص وأرى حرارة نارها لم تنقص
لم يظفر التشبيه منك بطائل متسلح بهقاً كجلد الابرص
وقوله :

وبات كما سرّ اعداؤه اذا رام قوتاً من النوم شدّ

تعززه شررات البعوض في قمر مثل ظهر الجرذ

وقد هجا ابن الرومي القمر ايضاً كما هجاه ابن المعتز وأجاد .

ولعل الاستيعاب لم ينفرد به ابن المعتز من بين الشعراء خاصة
والادباء عامة ، فقد اصبح طريق الاسلوب ، منذ سنه الجاحظ
وعلماء الكلام .

وانفرد ابن المعتز بأنه اذا انتزعه غرض الى ابتكار المعاني وإعمال
الذهن كالمدهح مثلاً لم 'ينتزع بل ظل يصف ممدوحه بما يرى فيه وما يرى
حوله حتى يلم بجميع أطرافه .

فنون شعره

الوصف

فن جديد

لقد بات المحدثون يهتمون بالمعاني أكثر من اهتمام القدماء بها ، وباتوا يتحرّون الدقة ويتحرّزون بما يوجب الطعن ، وانتبهوا الى صناعة الشعر للشعر وابلّغوه حدّ الكمال الفني ، واصبح على الشاعر ان يكون متصرفاً في كل انواع الشعر من جد وهزل ولين وجزل وألا يكون منه في غرض ابرع منه في غرض آخر ليحكم له بالتقدم ويجوز قصب السبق ، ولا يكون كذلك الا اذا صور ما رأى وما خطر بباله تصويراً دقيقاً ، ولم يكن اختصاص الشاعر بفن دون فن الا من خصائص القدماء . وكان المدح والهجو أجل الابواب وبهما يتقدم الشاعر ، فاذا قصر فيهما لم يلحقوه بالفحول ، وكثيراً ما كان ينقطع شاعر الى مدح معطيه فلا نرى له شعراً في غير مدحه وذم أعاديه .

اما في هذا العصر فقد انصرف الشعراء الى كل فن ، ولم يخصوا المدح

لان التكسب به لم يعد كما كان في العصور العربية الخالصة ، وقدّموا ذلك الفن الجامع - وهو الوصف - على كل الفنون ، والوصف هنا يشمل كل باب ، والابواب جميعاً ينطوين تحته .

وأصبح الشعراء يفخرون بما قدروا عليه من الوصف ويثنى عليهم بما استطاعوه منه ، ويضاهى بين هذا وذاك ليُفضل احدهما ، فتناول الشعر بهذا كل صغيرة وكل كبيرة يصفها في مقطوعات قصيرة او طويلة حتى صار جديراً ان يطلق على ذلك العصر « عصر الوصف » . ولعلك قرأت قصائد ومقطوعات خالصة للموصف لبشار وابي نواس وابي تمام والبحري وابن الرومي وغيرهم ، ولم يكن لمن سبقهم مثلها في الوصف خالصة .

وقد فضلت مجالس المباحثات عندهم شعراء الوصف ، وفضل ابن المعتز البحري بالوصف فقط حين وصف ايوان كسرى في سينيته المشهورة وحين انشد قصيدته الوصفية في دينار وحين وصف حرب المراكب في البحر ، ولولا النكسة القوية التي اصاب اغراض الشعر بعد على يد المتنبى واضرابه فرجع الشعر الى المدح والاعتذار وضروب الملق الاخرى حيناً آخر من الدهر لنهج الشعر العربي منهجاً اجدّ واقوم .

اما ابن المعتز فله الفخر كله فقد كاد يبعث شعره كله وصفاً ، فانه وان لم يعمّر سوى خمسة واربعين عاماً ، قال الشعر في ثلاثين منها او اقل ، الا ان هذا العمر القصير كان اطول الاعمار ، امتلاً بالجد واللهو والسعادة والبؤس ، وكان وصفه لهذه الحياة خليطاً من انغام متباينة من الحب والبغض والسموّ والقعود والعزة والانكسار والنهوض واليأس ، وصور ذلك كله في أسلوبه فزاد اللغة غنى ووفرة وفراشة وطلاوة ، وكان انشاده الشعر مخلصاً له محباً لنظمه لا يرجو سوى ان يرضى عنه الفنّ كل الرضا ، فجاء وصفه جلته آية الآيات في الابداع الفني .

وقد عرفت ان مذهبه في الشعر مذهب تصويري واقعي يصور فيه ما يراه بعينه وما يقع حوله من الحوادث والشئون ، وبيئته الدنيا كلها ،

ويصعب على المرء أن يحصي أشياءها ويعده مفرداتها ، وله بيئة الامراء
يختص بها ، فاذا تساوى مع شاعر من الناس في وصف شيء في متناولها
ارتفع عنه في وصف ما لا يرتفع اليه ذلك الرفيق من بيئة الخاصة
والامراء .

وماذا وصف ابن المعتز بما نستطيع ان نحصيه اجمالاً ؟
وصف دنياه ودنيا قومه بجذافيرها حتى ليجدر به ان يكون الشاعر
الفرد الذي تمثلت في شعره مرئيات البيئة في العصر الذي عاش فيه دون
غيره من الشعراء ، اذ لم يدع مضيقاً ولا متسعاً الا سار فيه ووصفه وشبه
له او شبه به .

وصف الليل والنهار والشمس والقمر والكواكب والنجوم وبياض
الصبح وحمرة الشفق والقيظ والقر والظل والحر والصيف والفصول ،
وخطر ان النسيم ومطر السماء ، ووصف الدور والحيطان والقصور والاطلال
والنهر والغدير والصخور والمفاضة والسراب ، والرياض وانوارها والثمار
وانواعها والفاكهة واطايبها ، ووصف السفينة والزورق والناقة والحصان
والفرس وعنانه والفهد والبازي والديك والحية والبعوضة والبرغوث والطير
وافاحيص القطا ، ووصف الثياب والبسط والرياش والآلات والمرآة والخمر
والرقص والقصف والطرده ورجع الصدى ، ووصف الطبخ والنار والنزهة
والولائم والبخل والكرم والحسب والنسب ، ووصف الكتابة والقلم
والدواة والقرطاس ، ووصف السيف والدرع والرمح والبيض والقوس
والوتر والضربة الدامية والنقع المثار ، ووصف الشباب والشيب والصبا
والهرم والحياة والموت والسرور والبكاء والوله والساوى والسرعة والبطء
والامل واليأس والرضا والغضب والحب والحسد ، وكل هذا واكثر منه
نقرأه في ديوانه ، فماذا بقي من دنياه بعد هذا ؟ لقد وصف الخلق
والمصنوع والقديم والمبتدع والثابت والمتحول وكل شيء وقعت عليه عيناه ،
فوصف الدنيا ولم يدع منها شيئاً .

وقد بلغ بعض وصفه دقة تثير العجب والطرب والنشوة بما لا مثيل
له . وهل نجد أدق من قول ابن المعتز يصف الحذر من الرقيب وخيانة
الدمع حذره :

وأكف دمع العين من حذر والدمع يسبقني وألحقه
او قوله في وصف المرأة :

فبيّنتني لي كلما رمت نظرة وناصحتني من دون كل صديق
يقابلني منك الذي لا عدته بلجة ماء وهو غير غريق
و قوله في لمعان السيف المهتز :

في كفه غضب اذا هزه حسبه من خوفه يرتعد

او قوله في لون السيف : تنفس فيه القين وهو صقيل

او قوله في سرعة الفرس :

كأن جنّان الفلاة تضربه كأنّ ما يهرب منه يطلبه

او قوله في فرس ادهم أغر محجل يعدو :

بأدهم كالظلام أغر يجلو بغرته دياجير الظلام

تري احجاله يصعدن فيه صعود البرق في جو الغمام

و قوله في ليلة طابت فقصرت :

يا ليلة كاد من تقاصرهما يعثر فيها العشاء بالسحر

او قوله وقد ازدحم قوم في بيت ضيق وتلاصقوا وكان هو من بينهم :

يا رب بيت زوته وكأنما قد ضمني في ضيقه سجن

ما يحسن الرمان يجمع نفسه في قشره الا كما نحن

او قوله وهو يتمنى الطيف ليسعه فلا يستجيب له النوم ويدوم سهره :

لا فرّج الله عن عيني برويته ان كنت ابصرت شيئاً بعده حسنا

الا خيالاً عسى ان تمطرني وكيف يحلم من لا يعرف الوسنا

او قوله يصف لؤم الدهر :

تمكن هذا الدهر بما يسوءني ولجّ فما يخلي صفاتك من قرع

وأبليت آمالي بوصف يكدها وليس بذى ضر وليس بذى نفع
لثيم اذا جاد اللثيم تخلقاً يحب سؤال القوم شوقاً الى المنع
او قوله يصف القبلة المخطوفة حذار الرقيب :

وكم عناق لنا وكم قبَلٌ مختلّسات لنا حذار مرتقب
نقر العصافير وهي خائفة من النواطير يانع الرطب
او قوله - وما ادقه - وقد ادلى الى النار بعود يابس فقطع حرّها
عن ضوءها :

كالنار يقطع حرّها عن ضوءها يدُ قابس أدلت بعود يابس
او قوله وشعاع الشمس يأكل الظل :
والشمس تأكل ظلّها اكل اللظى عيدان حاطب
او قوله في منظر ظعائن ابتعدت عنه في بياض السراب :
وما راعني بالبين الا ظعائن دعون بكائي فاستجابت سواكبة
بدت في بياض الآل والبعد دونها كأسطر رَقّ ابهم الخطّ كاتبه
ومن تشبيهاته الصادرة عن علم ودقة مزاوله قوله يصف لوك الحصان
للشكيمة في رفق وشفقة :

ولقد غدوت على طمر قارح عقدت حوافره غمامة قسطل
متلثم لجم الحديد يلوكها لوك الفتاة مساو كاً من إسحل
فلم يخطيء خطأ ابي تمام حين صور الخيل تلوك الشكيم في الحرب ،
والخيل لا تلوك الشكيم في حومة الحرب وانما تفعل ذلك واقفة لا مكو
لها ، وانما طرّح ابا تمام في هذا الخطأ قلة خبره بأمر الخيل * .

*

وليس القمر وحده هو الذي تتبعه ابن المعتز واستقصى اتجاهاته وأشكاله
فشبه به وشبه له ، وانما أشياء أخرى كثيرة هي الدنيا كلها كما قلنا ،

* انظر الأمدي صفحة ١٠٦ طبعة القاهرة .

ولمّا كان هذا الشاعر نضو ليل وأخاسهر فقد اهتم بالليل وتبعه وأكثر
القول فيه ، فكان بما قاله يصف به الليل وقد ارخى سدوله ووشته
النجوم :

فخلت الدجى والليل قد مدّ خيطه رداءً موثى بالكواكب معلما
فاذا أقر الليل وطاب نسيمه شرب فيه وطرب فقال :
يا رب ليل سحر كله مفتضح البدر عليل النسيم
تلتقط الانفاس برد الندى فيه فتهديه حرّ الهموم
لا اعرف الاصبح لما بدا في ضوئه الا بسكر النديم
لبست فيه بالتذاذ الهوى ولذة الراح ثياب النعيم
فاذا طال عليه الليل واضجره قال :

وحلّت عليه ليلة ارجبية اذا ما صفا فيها الغدير تكدرا
بعيدة ما بين البياضين لم يكد يصدّق فيها صبحها حين بشرا
فاذا ارق في السفر ونام صبحه ذات ليلة باردة قال :
ارقت له والركب ميل رؤوسهم يخوضون ضحضاح الكرى وبهم قرّ
علام جليد الليل حتى كأنهم بزاة تجلى في مراقبها قمر
الى ان تعرّى النجم من حلة الدجى وقال دليل القوم قد نقب الفجر
وقدّوا أديم الفجر حتى ترفّعت لهم ليلة أخرى كما حوّم النسر
فلما اوشك الليل ان يزول وطلع الصبح التفت اليه يقول :
كأنه جدول ماء انفجر

او : وقد رفع الفجر الظلام كأنه ظلم على بيض ترفّع جانبه
او : أما ترى الصبح تحت ليلته كموقد بان ينفخ الفجاء
او : قد اغتدي والليل في جلبابه كالحبشي فر من اصحابه
والصبح قد كشف عن انبائه كأنه يضحك من ذهابه
او : وقد غدوت وصبح الليل منتقص وغرة الصبح مصقول حواشيه

وغرّبت أنجم الظلماء وانحدرت فشاها أرجلها وانخط أيديها
فاذا طلع النهار ولاحت الشمس خلل الغمام قال :
تظل الشمس ترمقنا بلحظ مريض مدنف من خلف ستر

*

وبسطعاب ابن المعتز الثريا كما اصطحب القمر فحين يراها بيضاء لامعة
بين النجوم قد شمرت في إثرهن لتغرب قال :

كأن الثريا هودج فوق ناقة يسير بها حاد الى الغرب مزعج
وقد لمعت بين النجوم كأنها قوارير فيها زئبق يترجرج
وقال :

ألا فاسقنيها والظلام مقوؤض ونجم الدجى نحو المغارب يركض
كأن الثريا في اواخر ليلها تفتش نور او لجام مفضض
وقال :

وتروم الثريا في الغروب مراما كانكباب طمر كاد يلقي اللجاما
وقال والصبح يتلوها :

وكان الصبح لما لاح من تحت الثريا ملك اقبل في التناج يفدئ ويحييا
ثم يشبهها تشبيهات اخرى بنور الغصن ، والقعب ، وبيادق العاج
وقد تبدت في ثياب الحداد ، وجنى النرجس والكأس والقروط .
ويقول وقد رأى الجوزاء :

وقد صغت الجوزاء حتى كأنها وراء نجوم هاويات وُغور
صنوج على رقاصة قد تمايلت لتلهي شربا بين دف ومزهر
وفي الجوزاء في أعلى الافق :

كأنما الجوزاء في أعلى الأفق أغصان نور او وشاح من ورق
وفيهما وقد اقترنت بالشعري العَبُور :

ولاحت الشعري وجوزاؤها كمثل رمح جره رامح
وفيهما وهي تغرب :

وقد هوى النجم والجوزاء تتبعه كذات قرط ارادته وقد سقطا

ويصف المريخ قائلا :

وتوقد المريخ بين نجومها كبهارة في روضة من نرجس

وسهلا قائلا :

وقد لاح للساري سهيل كأنه على كل نجم في السماء رقيب

والعقرب قائلا :

وصفت العقرب للمغارب بذنب كصولجان اللاعب

والنسر قائلا :

والنسر قد بسط الجناح محوّا حتى تراه كطالب لم يصطد

والفرقدين قائلا :

ورنا اليّ الفرقدان كما رنت زرقاء تنظر من نقاب اسود

والنجوم قائلا :

وخلت نجوم الليل في غسق الدجى خصاها أرى منها النهار نقابا

وفيهما أيضا :

كأن سماءنا لما تبدت خلال نجومها صداً الصباح

رياض بنفسج خضل نداه تفتح بينه نور الاقاعي

وفيهما وقد طال عليه الليل فوقفت نجومه كأنها دراهم زيف لا تنقد فتنفق :

كأن نجوم الليل في حجزاته دراهم زيف لم يجزن على النقد

وفيهما في مثله أيضا :

رب ليل أحييته بزفير وهموم تكوي الحشا والفؤادا

بات طرفي يشيع النجم فيه كلما خلت يسهير تماذي

وفيهما مع الفجر المحمر :

قد أغتدي على الجياد الضمر والصبح قد أسفر أو لم يسفر

كأنه غرة مهر أشقر حتى بدا في ثوبه المعصر
ونجمه مثل السراج الأزهر *

الروض والمطر والزهر والثر

وكان جديراً بالشاعر الأمير أن يكون حظ الرياض والثمار والازهار
والمطر من شعره عظيماً. ومن أولى منه بذلك وهو المتقلب بين فتون
النعم والجنات، والصائد الطارد وراء الصيد والطير والفلوات والمنتقل
يتنسم في الربا والبساتين أنفاس الزهر والمتفكه بلذائذ الثمر، فمضى هبّ
النسيم وبشّر الأرض بالقطر غنى ابن المعتز قائلاً :

ونسيم يبشر الأرض بالقطر ر كذيل الغلالة المبلول
ووجوه البلاد تنتظر الغي ث انتظار الحب ردّ الرسول
واليك وصفه السحابة تسكب المطر، فاسمع اللفظ وعُدّ التشبيهات،
وأنصت للموسيقى المدوّية، وأصغ للروعة وشدة الاسر، ولن تجد لها
مثيلاً في الطريق الذي تسلكه :

وسارية لا تقلّ البكا	جری دمعهـا فی خدود الثرى
سرت تقدح الصبح في ليلها	بـبرق كهنديـة تنتضی
فلما دنت جلجلت في السما	رعداً أجشّ كجرس الرها
ضمان عليها ارتداء السيفاع	بانوارها واعتجار الربا
فما زال مدمعها باكياً	على التـرب حتى اكتسى ما اكتسى
فاضحت سواء وجوه البلاد	وجنّ النبات بها والتقى

* لا يخيل لك أن هذا المطلب من شعر السماء أو النجوم كما مميّناه من قبل مطاب
سهل يسير ولكنه يصعب علينا الآن جسد الصعوبة كما بينا حينما تعرضنا له في وصف
البيئة العامة. وقد حدث منذ سنين قليلة أن اقترنت الزهرة بالقمر وأخبرت المراقدين هذه
الظاهرة قبل حدوثها فدعت جريدة المقطم المصرية الشعراء لوصف الظاهرة فلم يتقدم
أحد قط مع أن هذا المنظر مرسوم من قبل في اقوال الشعراء.

وتشكر الارض المطر بلسانه الذي يقول :
ما ترى نعمة السماء على الارض وشكر الرياض للامطار ؟
ثم تزدهي الارض بألوان الازهار في آذار فيقول :

حبذا آذار شهراً	فيه للنور انتشار
ينقص الليل اذا جا	ويمتد النهار
وعلى الارض اصفرار	واخضرار واحمرار
فكان الروض وشي	بالغت فيه التجار
نفشه آس ونسر	ين وورد وبهار

فاذا تفتحت الازهار مع هبات النسيم قال :
يشق رياضاً قد تيقظ نورها وبللها دمع من المزن ذارف
كان عياب المسك بين بقاعها تفتتحها ايدي الرياح الضعائف
ويتنقل ابن المعتز في الروضة المزهرة فيصفها زهرة زهرة وابتدع
كل لون تشبيهاً ولكل مرأى معنى بديعاً ، وجماع ذلك تجده في بستانيته
التي يمدح فيها الصبوح ، ونحن نقتطع لك منها وصف الازهار فاستمع
اليه وهو يقول :

اما ترى البستان كيف نورا	ونشر المنشور بُرداً أصفرا *
وضحك الورد الى الشقائق	واعتنق القطر اعتناق الوامق
في روضة كحلة العروس	وخرم كهامة الطاوس **
وياسمين في ذرا الاغصان	منظم كقطع العقيان
والسرو مثل قطع الزبرجد	قد استمد الماء من ترب ند
على رياض وثرى ندي	وجردول كالمبرد المجلي
وفرَج الحشخاش جيباً وفتق	كأنه مصاحف بيض الورق

* قد اشتهرت بغداد بالمنثور وجور بالورد وجران بالترجس والسيوان بالنيلوفر
وقم بالزعفران .
دته خرمة كسكره نبت كاللوبياء بنفسجي اللون حسن المنظر والرائحة .

حتى اذا ما انتشرت أوراقه وكاد أن يُرمى إلينا ساقه
 صار كأقداح من البلّور فخالها تجسّت من نور
 وبعضه عريّات من أثوابه قد خجل البائس من أصحابه
 تبصره عند انتشار الورد مثل الدبابيس بأيدي الجند
 والسوسن الأبيض منشور الحلل كقطن قد مسّه بعض البلبل
 نور في حاشيتي بستانه ودخل الميدان في ضمائه
 وقد بدت فيه ثمار الكسكس * كأنها حمام من غبر
 وحلّق البهار بين الآس جمجمة كهامة الشمس
 خلال شمع مثل شيب النصف وجوهر من زهر مختلف
 وجلائر مثل جمر الحدّ أو مثل اعراف ديوك الهند
 والاقحوان كالشاي الفر قد صقلت انوارُه بالقطر

ولابن المعتز عناية بالبنفسج لانه في مقدمة النباتات التي تزهر اول
 الربيع لتؤذن الناس باقبال الايام المعتدلة أيام الصفو والسرور ، وينمو
 نباته في الاماكن الرطبة الظليلة مستترا في غيره من النبات الا أن رائحته
 تم عليه ، فهو اذن رمز التواضع والحياء والعفة ، واشهر ما قاله ابن المعتز
 فيه ، ويروي لغيره :

ولازوردية تزهو بزرقها بين الرياض على جمر اليواقيت
 كأنها وضعاف القضب تحملها أوائل النار في اطراف كبريت

فاذا وصف شيئاً من الفاكهة لم يفته الابداع ، ومن ذلك قوله في التين :
 أنعم بتين طاب طعما واكتسى حسنا وقارب مخبراً من منظر
 في برد ثلج في نقا تبر وفي ريح العبير وطيب طعم السكر
 يحكي اذا ما صُفّ في أطباقه خيماً ضربن من الحرير الاخضر

* الكسكس بالسين لعلها نسبة الى اقليم كسكر ويروى الكبير بالباء المشددة .

واذا أراد الطير رأيته مشجيا في وصفه مطربا ، وما أحلى قوله في حمام
الربيع مع اتكائه على مسائل النحو :
إني لأعجب من حمامها كيف اهتدئ لمعرب محض
هل كان نحوي يعلمها نصبا وباب الرفع والحفض
وليس أروع من هذا في وصف غناء الطير بأنه كلام مفهوم مستقيم
الاعراب *

وما أروع وصفه لديك حين يقول :
بشّر بالصبح هاتف هتفا يصيح في الليل بعدما انتصفا
مذكرا بالصبح هاج بها كخطب فوق ومنبر وقفها
صفق إمّا ارتياحة بسنا ال فجر واما على الدجى أسفا
وأبدع بقوله في الديك :
وقام فوق الجدار مُشترَفْ كمثل طَرْفِ علاه أُسوارُ
رافع رأسٍ طوراً وخافضه كأنما العُرفُ منه منشار

الدور والقصور

أما وصف الدور والقصور فتلك خصيصاه ، لانه ابنها والمتقلب بينها
والساري بين حجرها وبساتينها والذائق لحلوها ومرها ، يصف قصر الثريا *
في سر من رأى مرة وأخرى فيبدع ، وبما قاله فيه :
ما للثريا شبيه فيما بنى قطّ بان حيطانه من نور والسقف من نيران
والصحن ياقوت در كالعين في الاجفان والماء يغدو عليها في جدول ريان
ويصف البئر وقد صفت مياهها فيقول :

* يحسن بالقارئ أن يرجع في وصفه المبدع للحمام الى ديوانه وارجوزته التي مطلعها :
أعددت للغاية سابقات معلمات ومخزومات
* اشتهرت سر من رأى بقصورها التي بناها المتوكل والمعتمد والمتضدومنها الجعفري ،
والبديع والثريا والرباب والكامل والقبة العليا والأترجة والعشوق والساج والصبيح والمليح ،
وانظر صفحة ١٢ من كتاب يوم ولية للمؤلف .

حفرتها بيضاء منقورة في دَمِ سهل وطيء التراب
تضمن ربي الجيش للمستقي كأن دلوها جناحا غراب
ويتملى الغدير بالماء وتشرق عليه الشمس وتهب الصبا فيقول :
غدير يُرجرج أمواجه هبوب الرياح ومرّ الصبا
إذا الشمس من فوقه اشرفت توهّمته جوشناً مُذهبا
وحين يصطحب نار الطبخ وينظر اليها والى شررها ولهبها نسمع منه
ما يطرب ، فهو يقول في النار توقد بفحّم وحطب :
وموقدات بتن يضر من اللهب يشبعنه من فحّم ومن حطب
يرفعن نيراناً كأشجار الذهب
ولعل شاعراً مهما كان غنياً لا يذهب به خياله الى صنع شجرة من
ذهب كما صنع خيال ابن المعتز ، فهي اول شجرة من ذهب في شعر العرب .
فاذا تعالى الشرر قال :

وقد تعالى شرر الكانون كأنه نثار ياسمين
فاذا أحرق الثياب والبسط قال :
فتترك البساط بعد الحمد ذا نقطٍ سود كجلد الفهد
وانا لنكتفي بهذه الأمثلة في هذا الباب ، وسترد في الكتاب أمثلة أخرى
كثيرة تدخل تحت الوصف سنفرد لها بجوئاً مستقلة بها كالخمر والطرد
وغيرهما .

(الفخر)

بنو أمية والطالبيون

يبدأ ابن المعتز ماضيه فخراً بنسبه ، فهو أمير المؤمنين او الامير الذي
يتصل عن قرب بهرون الرشيد فاي جعفر المنصور ثم يسمو به نسبه صعداً
الى العباس بن عبد المطلب ، وحسبه ان ينتمي الى هذا الجد الاعظم الذي

استسقى به عمر الغمام .

وليس لهذا النسب خطره الجليل لقربه من النبوة فحسب ، ولكنه
سلسلة من الآباء الغر البهاليل الذين نالوا الملك بفضل ما عملوا وما اجتهدوا ،
وان استحق الفخر لهذا بنو أمية وبنو أبي طالب فان ابن المعتز يرى ان
بني العباس أحق بالفخر من هؤلاء وهؤلاء ، فلهم ان يفاخروا البيتين فقد
بزوا الشجرتين .

وكذلك يفخر ابن المعتز بأهله عليهما ، ويذكر ان بني العباس أحق
بالفخر من بني أمية لانهم غلبوهم وازالوهم عن ملكهم ، وكان صيال اهله
على الامويين في عقر دارهم فلم يملوهم حتى يتجهزوا لهم ، او هم لم يستطيعوا
التجهز للقائهم ومناجزتهم ، وكان العباسيون اكثر جندا واقوى عدة واحكم
سياسة وبصراً بالامور ، وهكذا يرى .

ويرى ان آباءه وهم في ذروة الشرف كانوا رهطاً من بني هاشم رهط
النبي الامين ، وقد نقلوا الدولة من الامية والسذاجة البدوية الى دولة ذات
علم وثقافة وسعة وفلسفة ومدنية .

ولعل الاحن التي كانت بين بني أمية وبني العباس قد قدم زمانها
واوغل في القدم ، ولم يبق لامية من الانصار من تستطيع بهم النهضة
من العثار او البعث من الموت ، ولكن العداوة اصبحت ارثاً نفسانياً
عميقاً لا تستأصل جذوره من نفوس الابناء والحفدة ، فتري ابن المعتز يلذع
بني أمية بفخره عليهم ، وبينه وبين الذين مضوا عصور ودهور ، وبينه وبين
احباؤهم في الاندلس صحارى ومجور فيقول :

قتلنا امية في دارها ونحن احق بأسلاها

ويقول :

وما خفنا من الناس وهل في الناس انسان ؟
جزينا الامويين ودناهم كما دانوا
وذاقوا ثمر البغي وخنأهم كما خانوا

وللخير وللشر بكف الله ميزان
وانه لأشد وقعاً على الطالبين من اولئك الامويين . ولعمري لئن
حق لقوم ان يُهَجَّجُوا في ذلك العصر فليس الا اولئك الترك الذين مزقوا
الدولة شر ممزق ، بدل ان يهجي الامويون الذين باد منهم من باد وابتعد
منهم من بقي ، وبدل الطالبين ايضاً لأن الترك هم الخصوم الألداء
حقاً ، ولكنها سنة الكون ! يُستضعف الضعفاء ويخشى جانب الاقوياء .
وحسب الترك قوة في ذلك العصر ان يموت الامير او الخليفة فلا
يجسر جسور أن يرثيه الا في مثل ذلك الشعر المكنى الذي يجعل من
الامير القتل هراً قتيلاً يرثى .

وأشد الناس خوفاً من هؤلاء الترك اولئك الامراء واهل البيت
العباسي قاطبة ، ولذلك نرى ابن المعتز ان ذكرهم بسوء مرة كما حدث
في ارجوزته للمعتضد لاحتمائه به فانه ينصرف عنهم وينصرف الى الامويين
والطالبين لانهم اقل من الترك شأناً وشوكة .

ولعله ان كان قد فخر على الامويين وكرر فخره عليهم فانما هو
يريد ان يلوّح بالتهديد للعلويين ، وهو يهجو العلويين لانهم ثاروا بالاطراف
ينافسون بني العباس وينقضون عهودهم ويدسون عليهم ويكفرون بنعمتهم
كما يظن . فيخاطبهم قائلاً :

ولولا نحن قد ضاع دمّ بالطفّ بجان
ودأب العلويين لهم جحد وكفران
فلا كان امساك اذا لم يك احسان

ويرى ابن المعتز ان العباسيين قد ثاروا من قبل للحسين وابناء علي
من بني امية ، فكان خليفاً بهؤلاء ان يكونوا من الثائرين لهم لا الثائرين
عليهم ، وان يشكروا لهم فضلهم او يمسكوا عن عداوتهم ، ولكنهم لم
يفعلوا واحدة من كل اولئك ، وطمعوا في الخلافة وناصروا خصومها عليها
فخاطبهم بقوله :

ابي الله إلا ما تروث فما لكم
 تركناكم حيناً فهلا اخذتم
 زمان بنو حرب ومروان ممسكو
 ألا رب يوم قد كسوكم عماماً
 فلما اراقوا بالسيوف دماءكم
 وليس يريد الناس ان تملكوهم
 واياكم اياكم وحذار من
 ألا انها الحرب التي قد علمتم
 عتاب على الاقدار يا آل طالب
 تراث النبي بالقنبا والقواضب
 أعنة ملك جاثر الحكم غاصب
 من الضرب في الهامات حمر الذوائب
 أبينا ولم نملك حنين الاقارب
 فلا تشبوا فيهم وثوب الجنادب
 ضراغمة في الغاب حمر الخالب
 وجربتم والعلم عند التجارب

وهكذا يرى ابن المعتز ان يقر الطالبيون خلافة العباسيين ، وان يعينهم
 ما داموا قد جربوا الحروب فلم يظفروا فيها بنصر ، فاذا لم يكن اقرار
 ولا عون فلا اقل من ان يدعوا الخصوم تتقاتل ويدعوا العباسيين
 ودنياهم التي غرقوا فيها الى اذقانهم والتي جاءتهم تجرر أذيالها ، ولعمري
 انها حطة سوءى يخطتها ابن المعتز واضرابه في جدال الطالبيين ،
 واشد جوراً من هذا انه يطلب اليهم ان يقنعوا بما ترميه لهم سباع آل العباس
 من طعام وخير ، وذلك في مثل قوله :

دعوا الاسد تفرس ثم اشبعوا بما تدع الاسد في غابها
 ويظلم ابن المعتز نفسه فيثور ويرى ان الطالبيين لا يستحقون ملكاً
 ويعمل لذلك بأن ابا طالب لا يقاس بالعباس ، ولكنه يرجع خافضاً من
 غلوائه فيستثني عالياً وحده لفضله في الاسلام ، ويراہ أحق بالمدح واجدر
 بالفخر ، فيذكره في يوم حنين قائلاً :

ويوم حنين حين صاح وراءكم فجئتم وكان الموت اقرب من شبر
 ثم يذكر له فضله في الهجرة وفي بدر فيقول :
 ولولاه ما قرّت بطيبة هجرة ولولاه لم تجر الجياد الى بدر
 أقام بدار الكفر عيناً على العدا ينبّي نبي الله بالكيد والغدر
 ولكنه يعود الى التعصب بعد هذا الاستثناء فيرى ان اولاد العباس

اولى من اولاد عليّ بالميراث : ميراث الخلافة والمجد ، فاولاد العباس
من العَصْبَة وابناء عليّ من ذوي الارحام ، والعَصْبَة اولى من الرحم
فالميراث لولد ، لولد فاطمة وفي ذلك يقول :

ولما أبى الله ان يملكوا نهضنا اليها وقمنا بها
لكم رحمٌ يا بني بنته ولكن بنو العم اولى بها
واقسم انكم تعلمون بأنا لها خير اربابها

ويبتطاول على بني عمه فيهجوهم قائلاً :

عدلت بني عمي وطاب بهم عذلي لعلمهم يوماً يفيقون من جهل
معافين الا من عقول مريضة وكمن صحيح الجسم خاوم من العقل
ويتمادى ابن المعتز في بغيه فيرى الطالبين لا يستحقون ان يوصلوا كما
توصل الرحم لاضمارهم العداوة والبغضاء لبني ابيه ، نعم انهم يحاولون
كتمانها ولكن تفضحها المجالس والاحاديث فيقول :

فسبحان ربي ما لقوم ارى لهم كوامن اضغان عقاربها تسري
اذا ما اجتمعنا في الندي تضاءلوا كما خفيت مرضى الكواكب في الفجر
بنو العم لا بل هم بنو الغم والاذى واعوان دهري ان تظلمت من دهري
ويضرب بعد ذلك في عمياء ويتجنى محاولاً ان يمسح التاريخ فينكر
فضل ابي طالب في نصره النبي ويذكر اياه وحده بالفضل فيقول :
وابونا حامي النبي وقد ادبر من تعلمون وهو يذود
ويقول : أأبو طالب كمثل ابي الفضل لاما منكم بهذا علم
سائلوا مالكم ورضوان عن ذا ابن هذا وابن هذا مقم

بنو العباس

هؤلاء بنو طالب وهذا ما استحقوا من ابن المعتز في شباب عمره
وجنوح خطاياه ، اما قومه فهم اهل السماح والبذل والجود ، وليس
الجود بالمال فحسب وانها الجود بالنفوس وهو اقصى غاية الجود ، ويرى

لن الله خلق ذلك فيهم جبلة وفطرة ، ويقول في ذلك :
 وكنا معشراً خلقوا كراماً نرى بذل النفوس من السماح
 وبنو العباس في رأيه اولو العزم والصبر ، واولو العدد والعدة ،
 وهم الذين تفخر بهم قريش في النسب والمكارم وجللاء الخطوب ، وهم
 خطباء المنابر وفحول البلاغة ، وهم في الحرب اسودها وفي السلم دعاؤها ،
 وفي ذلك يقول :

اني من القوم الذين بهم	فخرت قريش على بني كعب
صبراً اذا ما الدعر عضهم	واكفهم خضر لدى الجذب
ولهم وراثة كل مكرمة	وبهم تعلق دعوة الكرب
واذا الوغى كانت ضراغمة	وعلت عجااجة موقف صعب
لبسوا حصونا من حديدهم	صبارة للطعن والضرب
وعدت جيادهم بكل فتى	يمضي بقاء منصل غضب
مرّاً اذا بلغت حفيظته	حاور الرضا في سلمه عذب

ويقول ايضاً :

إنا لنتاب العداة وان ناوا	ونهر احشاء البلاد جموعا
ونقول فوق اسرة ومنابر	عجباً من القول المصيب بديعا
قوم اذا غضبوا على اعدائهم	جروا الحديد أزجة ودروعا
حتى يفارق هائمهم اجسادهم	ضربا يفجر من دم ينبوعا
وكان أيدينا تنفر عنهم	طيئراً على الابدان كن وقوعا*
واذا الخطوب أتت منا مطرقاً	نكصت على اعقابهن رجوعا

ولكن ابن المعتز مع هذه المغالاة في وصف ابناء ابيه يخونه صدقه
 فيصور حكمهم الاستبدادي في قوله يفتخر كفتخر الجاهلية :
 لنا عزمة صماء لاتسمع الرقي تبئت انوف الحاسدين على رغم

* يشبه في هذا البيت الرؤوس على الابدان بالطير وفي البيت الذي يليه يبالغ في نكوص
 الخطوب من مطرقهم وكلاهما بديع .

وانا لنعطي الحق من غير حاكم علينا ولو شئنا ملنا مع الظلم
ويصدق ابن المعتز اكثر من هذا حين ينصح قومه بأن يعضوا على
ملكهم بالنواجذ ، وكأنه يرى كراسيهم تنزل من تحتهم وذلك حين
يقول :

شدوا اكفكم على ميراثكم فالحق اعطاكم خلافة احمد
ومتى يرمها الرائيون فبادروا هائمهم حصداً بكل مهند
ولكن هيهات ! فما كان قوله الا صيحة في واد !

عود الى بني طالب

وبعد ، فان بعض من اتصلوا بابن المعتز يبرئونه من كره بني عمه
الطالبين ومفاخرته عليهم ، ويقولون ان شعراً منتحلاً كان ينقل اليه وكأنه
منهم ، كان مدسوساً من القرامطة مناقضة لشعره ، فكانت قوله يمضي
على ذلك ، وتمر له أبيات يتناول فيها شيئاً فيتأول أعداؤه غير ذلك ،
ويحتمل الشعر المعنيين ، حتى اذا اجتمع اليه جماعة الطالبين منهم ابو الحسين
محمد بن الحسن المعروف بابن البصري ، ومنهم القاسم بن اسماعيل فحلفوا
له انه ما يقول هذه الاشعار احد منهم ، تندم على ما كان من قوله ثم
انشد اشعاراً يعتذر فيها ويمدح امير المؤمنين علياً وولده عليهم السلام .
وأعطى الله عهداً لا يقولن باقي عمره في هذا الفن !

وحقاً لقد فعل ، فقد حسن وده لهم وحسنت امانيه فيهم حتى قال
ابن البصري - وكان يحالسه - : كنت أجالس عبدالله ابن المعتز ، وكان
يحلف لي بالله لئن ملك من هذا الامر شيئاً ليجعلن البطينين بطناً واحداً ،
وليزوجن هؤلاء من هؤلاء وهؤلاء من هؤلاء .. وقال : لا ادع طالبياً
يتزوج بغير عباسية ولا عباسياً بغير طالبيه حتى يصيروا شيئاً واحداً ،
وأجري على كل رجل منهم عشرة دنانير في الشهر وعلى كل امرأة خمسة
دنانير واجعل لهم من الدنيا ناحية تفي بذلك .

ومن قوله يعتذر لهم حين اعتدل من جور ويرى ان بغض علي من الكفر :
رثيت الحبيج فقال العدا ة سباً علياً وبنيت النبي
أأكل لحي وأحسو دمي فيا قوم للعجب الأعجب
علي يظنون بي بغضه فهلا سوى الكفر ظنوه بي
إذن لاسقتني غداً كفه من الحوض والمشراب الاعذب

وقال قوم انه لم يقل الشعر ضد العلويين الا كلما بلغه انهم ناروا
بالاطراف ، ولم تكن الدولة العباسية تخشى منافسة غيرهم ، لان الدولة
لم تقم اول ما قامت الا لهم ، وما قتل ابو مسلم الخراساني لسبب غير
ميله لاهل البيت وصدقهم المشورة فيما يحسن أمورهم ، فكان خلفاء
بني العباس يخافونهم ، ولا بدع أن تكون قد سرت هذه العدوى الى
ابن المعتز فهجاهم ليرضي اهله او يتقرب الى الخلفاء .

ونجى لي انه لم يعدل عن هجائهم الى مدحهم الا في عهد الخليفة
المكتفي بن المعتض ، لانه رأى المكتفي مائلاً الى حب علي بن ابي طالب
باراً بأولاده ، حتى حكي أن يحيى بن علي الشاعر انشده بالرقعة قصيدة يفضل
فيها بني العباس على بني علي فقاطعه المكتفي وقال : يا يحيى كأنهم ليسوا
اولاد عم ! ما أحب ان يخاطب أهلنا بشيء من ذلك ! ولم يسمع المكتفي
القصيدة ولم يجزه عليها .

بدعة سياسية

وكيف نعتل ابن المعتز وحده في هذا والشعراء في عصره بمن والوا
العباسيين كانوا على العلويين ؟ وهذا ابن الرومي يهجوهم فيقول :
يا ليت اهل البيت إن حرموا عصموا من الشهوات والفتن
لكنهم حرموا وما عصموا فقلوبهم مرضى من الخوف
وهم أطب على بليتهم من غيرهم بمضاضة الشجن
فابن الرومي يتحامل عليهم اكثر من تحامل ابن المعتز ، وهو لا ينتمي

الى فرع من فروع بني العباس ولا العرب ، وانه ليمبدو لي ان التعصب لابن المعتز قد جرّ ابا الفرج الاصفهاني الى ان يبرئه جملة مما نسب اليه او يدفع عنه وزره في آل ابي طالب ، فكان مما قال في اغانيه « عدلوا عن ثلبي في الآداب الى التشنيع عليه بامر الدين وهجاء آل ابي طالب ، وهم اول من فعل ذلك وشنع به على آل ابي طالب عند المكتفي حتى نهاهم عنه . »

ولكننا نرى رأياً قاطعاً ان ابن المعتز قال في آل ابي طالب في عهد الخلفاء قبل المكتفي ، ويؤيدنا في ذلك ديوان شعره ، وكان ذلك جرياً على بدعة سياسية جديدة في الشعر العباسي يتقرب بها اصحابها الى الخلفاء العباسيين بدم العلويين لتخدم العداوة بين مستحقي الخلافة ، وليظل التوك في مأمن حصين ، وقد حمل لواء هذه البدعة منصور النوري ، وصارت البدعة بذلك مذهباً شعرياً كما كانت مذهباً في الحوار والخطابة ايام الامويين .

اسلوبه في الفخر

لعل القارئ لشعر ابن المعتز في مفاخرته لبني امية وبني علي يرى خطيباً لا شاعراً ، ولعله يستطيع في يسر وسهولة ان يؤلف من شعره خطبة رائعة من مختلف البحور والقوافي ، تبين رأي الخطيب السياسي في عرضه وموضوعه وتأييد رأيه بالحجة والدليل وتقنييد آراء الخصوم والخروج من كل ذلك الى التسليم بصحة رأيه الذي ارتأى والمقصد الذي ابتغى . وابن المعتز في هذه الناحية من شعره متأثر بالفلسفة والمنطق محتج بقضايا الفقه والتاريخ ، يسهل اسلوبه ويدنيه من الناس ، وان يكن قد فاته ان يكون كل ذلك في قصيدة واحدة كالملاحمة او قصائد كاملة ، فانه لم يفته ان يكون متفرقاً في ديوانه . ومهما يكن من امر فقد جاء فيه مستكملاً شروط الخطيب .

مادة فخره

ومادة فخره منذ شدّ مئزره ومنذ شب حتى اكتمل لا تنفد ولا

ينضب لها معين ، وفي ذلك يقول :
وما زلت منذ شدت يدي عقد مئزري غناي عن الغير افتقاري الى نفسي
ودل عليّ الحمد مجدي وعفتي كما دل إشراق النهار على الشمس
ويقول :

فقري فتّي وشبابي كهل وكل فضل لي عليه فضل
أشكى لجودي حين يُشكى البخل

وكيف وهو الغني الموسر وارف ظلال الغنى في قوله :
لنا إبل ملء الفضاء كأنما حملن التلاع الحوّ فوق الحوارك
وهو الفتى الأيد القوي الشجاع الذي يساوي وحده جيشاً ، او يكون
واحد الجيش في قوله :

انا جيش اذا غدوت وحيداً ووحيداً في الجحفل الجرار
وليس في غنى المرء ويسره فضل ان لم يكن ذا مروءة وبذل ،
يرحل معه الكرم أنى ارتحل ويلتف اصحابه وصبياناه وحشمه وعبيده
حول نار القرى يذبجون وينضجون ويأكلون ويهبون ، وافضل الكرم
ما اذا اشتد البرد والقرّ ، ومال ابن المعتز إنما ينفقه هذا الانفاق ومن
اجل ذلك يفتخر بقوله :

وليلة قرّ قد اهنت كريمها ولم يك بي شح على الجود غلابا
وقمت الى الكوم الصفايا بمنصلي فصيرتها مجداً لقومي واحسابا
فباتت على احجارنا حبشية تخاطب امثالا من السود اترايا
يكاد يبث العظم ما ردّ عليها إذا لبست من يابس الجزل جلبابا
عجلاً على الطاهي بانضاج لحه سراعاً بزد الضيف تلهب إلهابا
ويقول في نار القرى وما احسن ما قال :

فوق نار من الخطب الجزل إذا ما التظت رمت بالشرار
فهي تعلو اليفاع كالراية الحمراء تفري الدجى الى كل سار
وما يهان من كرام الابل عند باب ابن المعتز في البرد والقر الا

قليل اذا قيس بما يذبح للناس اذا اهلوا وحلت لهم الصدقة
والمأكلة ، وحينئذ لا تنتظر الابل السكين ، وانما يعمل السيف في رقابها
عجلاً ليطعم الجائعون ، وبذلك يفخر فيقول :

والسيف راعى إبلي في المحل يسلمها الى قدور تغلي
يرقل فيها بالوقود الجزل ارقاها في السير تحت الرحل
ولو أصبح اعطاؤه الناس قلقاً لنفسه ومهلكة لها لم يمك عليها ، وكفاها
ما تملك من قليل . وفي ذلك يقول :

وأثر صاحبي بفضل زادي وأحيي النفس بالوشل القليل
وهل يمك ابن المعتز وهو شبيه السحاب الذي يجود الحصب والجذب
بغيبه ؟ فانظر اليه يقول :

وسقيتُ بالجدود الفقيرَ وذا الغنى والغيثُ يسقي مجدبا ومريعا
وانه ليجود بماله وجهه عن ايمان بان المال والجاه سيفنيان ، فاذا
لامه لائم على سخائه وبذله لم يكن اللائم الا كإوئية امرأة حاتم ، وكانت
كلما لامته زادته اقبالا على السرف والانفاق وقال لها :

اماوي انت المال غاد ورائع ويبقى من المال الاحاديث والذكر
غير ان ابن المعتز اعلم من حاتم فلسفة واكثر عللا لكرمه ، فانظر
اليه حين يقول :

ومال قد سخوت به وجه وجهه لا يخاف اذى الحجاب
وكيف تصان عن اجر وحمد وجوه سوف تبذل للتراب
فهو انها ينفق عن ايمان ويقين ، واذا جاز لأحد ان ينتجع كلاً
احد فهو المنتجع المسؤول المرجى ، ولعمري لقد انتجع ابن المعتز الخلفاء
ثم الوزراء ولا سيما بني وهب فأفسد عليه ذلك الانتجاع قوله يفنخر :

لا تشيم البروق عيني ولا أج هل الا الى العلا اسفاري
لا ولا ارتجي نوالا وهل ته تمطر الناس ديمة الامطار
هاشمي اذا نسبت ونخصو ص بيت من هاشم غير عار

أخزن الغيظ في قلوب الاعادي واحل الجبار دار الصغار
ولابن المعتز غير صفة الجود صفة الشجاعة وهما معا ذؤابتا الفضل
والجود والحسب للعرب ومن نسل منهم ، وهو يصف شجاعته وصفا رائعا
في قوله :

ولي الصافنات تُرْدَى الى الموت ولا تهتدي سبيل الفرار
وسيوف كأنها حين هُزَّت ورق هزه سقوط القطار
ودروع كأنها شمس الجعد ددهينا تضل فيها المداري
وسهام تُرْدِي الرْدَى من بعيد واقعات مواقع الأبصار
ولما كانت أيامه أيام بلاء وفتنة ، وكان كتمان السر أفضل الاخلاق وسبيله
أسلم السبل فقد وجدناه رجلا كتوما لسره عن الصديق والعدو على سواء .
ويدين لتجاربه بالفضل في قوله :

وبدا لي في التجارب إذا كثرت خزان سر سيديع
فاكتم السر حبيبا وعدوا فهو من هذا وهذاك يشيع
والحلم في الفتنة أولى الاخلاق وأحقها بالفضل - وإن كان الحلم
دائما في الفتنة والصفوسيد الاخلاق - وهذا خلق ابن المعتز ، فاذا ما حقد
أحد عليه أو حسده قلم أظفار ضغنه بحلمه فارتد الكاذب عليه لائما لنفسه ،
والحاسد له مغتبطا بنعمة محسوده ، وقد وصف ذلك في قوله :

وأصمت عني حاسدي بخلائق مهذبة ليست لهم عيوب
فمن قال خيرا قيل إنك صادق ومن قال شرا قيل أنت كذوب
وابن المعتز بعد كل هذه المفاخر رجل صادق الايمان لا يتطرق الشك
إلى قلبه ، فإذا مر بخاطره صدع ظلمته باليقين وحبس نفسه على التطهر منه حتى
تنجلي غشية النفس وتذهب عنها السواة .

ويقول معبرا عن هذا :

وأصدع شكى باليقين وإنني لنفسي على بعض المساءة حابس
وهو قانع بما يُرزق مع سعيه وجده لغير المال ، فما المال الا حظ

مقسوم ؛ ويفتخر بذلك في قوله :
فيا نفس إن الرزق نحوك قاصدٌ فلا تتعبي ، حسي من الرزق إتعابا !

عيب فخره

إذا عددنا ظلمه لبني عمه الطالبين عيبا سياسيا فإننا نعد له غير ذلك عيبا
فنيا ما كان له أن يقع فيه ، فليس يروق في نظر إنسان أن يفخر ابن
المعتز بجماله حين كان صبيا ولا أن يندبه ويرثيه حين أدبر عنه هذا الجمال ،
وإن من عيب الرجل حقا أن ينظر بهذه العين التي تنظر بها المرأة في
مرآة الشباب ، تلك المرأة التي لا يبين على زئبقها إلا النعومة والطلاوة ،
فما كان مباحا للفتاة من ذلك كان حراما على الرجل أن يباح له أو يبيحه
لنفسه ، وما استحسنْتُ ولا أظن أحداً من الناس يستحسن قول ابن
المعتز عن نفسه :

من بعد ما قد كنت أي فتى كفضيب بان ناعم رخص
ولا قوله :

أروح كفصن البان بالله الندى وهزّ بأنفاس ضعافٍ وأمطرا
وانما يصف العربُ الفتى بالسيف والرمح كقول قائلهم :
فتى قد قدّ السيف لا متضائل ولا رهل لباته وأجادله
أما الوصف بالغصن وقضيب البان والخيزرانة فإنه أولى بالنساء . وأما
ما تمناه ابن المعتز من الرجوع الى الفتوة والصبا فقد حسن قوله فيه :
فأمامني المرء من عمري وورائي منه ما طابا
خضبت رأسي فقلت لها اخضبي قلبي فقد شابا
ويستحسن منه أيضاً قوله يذكر شبابه :

كنت ريحانة المجالس في السلا م وحتف الابطال يوم الحروب
وما كان خطؤه ذاك الا سورة نساء وجلوسا اليهن في مجالسهن ، فكان
ذلك الاثر الذميمة .

الغزل

اسلوب غزله

اسلوب ابن المعتز في غزله اسلوب القدماء ، فهو يقف بالديار والاطلال
باكياً حزيناً متذكراً كثير الحنين ، ناعياً على غراب البين ما حمل اليه
من النذير وما نعب بالفراق ، وجل قصائده في فنون الشعر يتبدى بالغزل
وان كان يميل عنه في بعض الاحيان الى البدء بصفة الحمر .

وهو في اكثر غزله شاعر قاص كعمر بن ابي ربيعة ، والامثلة على
ذلك كثر في ديوانه . وقد اجاد في هذا الفن اياما اجادة حتى عده احمد
ابن اسماعيل الكاتب من المتقدمين في الغزل لان الشعراء الذين احسنوا في
الغزل حتى تفردوا به وكان الغزل قطعة من شعرهم معروفة — قليلون ،
وخاصة من عمل في المذكر والمؤنث ، وهو اول من حصل هذا حتى
تقدم فيه من سبقه وتبعه الناس .

ونحن لا نرى رأي احمد بن اسماعيل هذا لان القرن الثاني الهجري هو
صاحب الفضل في ابتداء المجون والاكتثار منه ، وقد ولغ فيه بشار وابو
نواس والخليع ، وانما كان ابن المعتز اشبه بهؤلاء منه بشعراء عصره كالبي
تمام والبحتري وابن الرومي .

وابن المعتز في غزله الشعري او شعره الغزلي ثلاثة رجال : ماجن
عريبد لا يعنى بالعاطفة ولا تلمس من قوله حرارة نفس الهبتها حرارة الحب ،
ورجل آخر صادق الحب يدل كل لفظ في شعره على حب متمكن ولوعة
تعتلج في الصدر ، ورجل ثالث غير هذين الرجلين جاء غزله اشبه بغزل
الفلاسفة واهل الفقه والكلام ، يقدم العلة للمعلول ويرتب الكلام ترتيب اهل
المنطق ، وينظمه نظم العلماء .

ولا يدرك بخلدك اننا نفصل احوالا مختلفة في الغزل لابن المعتز تتعاوره
ويتداوها ، وانما هو رجل واحد قد جرى في هذه المسالك جميعا ، فجزينا

وراه نقتبعه في هذه المسالك ونفصل بعضها عن بعض ، ونفرد كل مسلك بكلام .

غزله العالمي

ولو سألنا ابن المعتز العالم المدقق ان يحدثنا حديثه عن الحب وآدابه وميادين صراعه وقتلاه لرأيناه ناهضاً مجيباً بما يشفي النفس ويفني عن الاستزادة ؛ انه اعلم الناس بحال النفوس اختلافها وائتلافها وثبوتها وتحولها ، وقد عرف هذا الشيء الذي يسمونه الحب ودرس دقائقه في كل مكان ، اذ هو موجود في كل مكان ؛ عرفه في قصور الخلفاء ودور الناس وحانات الشراب ومجالس المنادمة ، عرفه وأدمن في معرفته ، وان كان قد تنصل في اخريات ايامه من ارجاسه .

عرف ابن المعتز ان اول آداب الحب ان يكتم الحب اسم حبيبه فلا يبوح به مهما شفى البوح من وجده واطفاً من غلمته ، لان اظهار الاسم شهرة للحب واذاعة لامره وتشهير بالحبيب ، وهو في هذا على سنة اهل البادية القدماء يجرّمون على المحبين الذين يشهرون باسماء الحبيبات الزواج منهن ، لانهم بهذا التشهير يفضحون بيوتاً يجب ان تكون مستورة مخبوءة بالحجاب عن الناس ، ولئن وجب هذا في الزواج فهو في الحب اوجب ليكون الحب والحبيب بمنأى عن العذل والملام .

ومن الخير ان يكنى عن المرأة بكنية قريبة الوزن من اسمها ، واكثر خيراً ان تبعد ، ومزاولة كنية واحدة بالذكر يشفي القلب كما يشفيه الاسم الصريح . وعذاب هذا الستر على الحب اخف من عذاب العلوم والعذل ان افترض الحب ، وعلى الحب ان يتنزه عن ان يشرك الناس في معرفة اسم من يحب فلا يجعله في افواههم لانهم لن يذوقوا له الطعم الذي يذوقه ، فاذا كان لابد من ذكر الحبيب كنى عنه واراده هو ، فاذا عن له ان الناس قد فطنوا لحبه ستر ذلك الحب بحب آخر يعلنه ويذيعه حتى يغطي

على الاول ويخفيه ، وفي ذلك يقول ابن المعتز :
قالت تبدلت اخرى قلت افديك من كل سوء ومكروه واحميك
قالت وسميتها في الشعر قلت لها سميتُ غيرك لكن كنت اعنيك
ويتفلسف ابن المعتز لفكرته هذه فيقول :

لما رأيت الحب يفضحني ووشت عليّ شواهد الصب
ألقيتُ غيرك في ظنونهم وستوت وجه الحب بالحب
واذا كان من شريعة الحب ان يكتم الرجل والمرأة حبهما فان المرأة
اقدر دائماً من صاحبها على هذا الكتمان . والتمنع اقدس واجبات المحبوب
فلا بد له من ان يتحصن بالهجر والدلال ، فاحب شيء الى الانسان ما منع .
والمنع في الحب أغرى بالحاجة وأدعى للطلب ، ومهما دهى داء الحب
واوجع ، وابلى الوجد وقتل ، فان المنع اقدس واولى .
وما التقى رجل وامرأة حول مائدة الحب الا كان الغلب لها والهزيمة
له ، وليس الامر في الرجل والمرأة الا كما قال القائل :

اذا مرضنا اتيناكم نزوركم وان جنيتم اتيناكم فنعتذر
وما من رجل احب الا وقد ارتدّت اليه اسهمه كلها بيضاء لا تصيب
من المرأة حبة قلبها ولا شغافه ، ولا جلد جسدها ، بل ولا صفحة ثيابها ،
اما هي فكلما رمته بسهم اصابه وادماه وأوجعه واشقاه ، وليس لعاشق
ان يرجو دواء او يتعلل بأمل في شفاء ، وانما سوف يسري دأؤه فيه
ويعييه ما طاب للداء الشري والاعياء . ويقول ابن المعتز في هذا :
رددت سهامي عنك بيضاً ونخضبت سهامك في قلب عميدٍ واحشاء
فلم ار مثل المنع أغرى حاجةٍ ولا مثل داء الحب ابرح من داء
وحب الرجل ما يلبث غير قليل ثم يحور بكاء وانينا ، ولو قدّر للرجل
ان يسعد بحبه لما ذاق هذه السعادة الا وهي مشوبة بالذلة والشقاء . وفي
ذلك يقول :

خلي لي بالله الذي انما له فما الحب الا انة وبكاء

كما قد ارى قالوا كذاك وربما يكون سرور في الهوى وشقاء
وحظ الرجل في الحب سيء ابدآ ، وهو على فداحة عبئه من الالم
فانه يحمل هذا العبء وحده ، ولن يحس احد غيره بمرارة الالم ، ولو قدر
للعاذل ان يذوق بعض ما يذوق المحب من مرارة الحب ما عذل
ولا لام ، وليس يجد الرجل مخلصاً من قيود الحب مهما احتال للخلاص .
اما المرأة فقليلاً ما تتقيد بحب ، بل يكاد ابن المعتز يراها لا تتقيد في
الحب بقيد في قوله :

قيدي الحب وخلاها ولج بي سقم وعافاها
كدت اقول البدر شبه لها اجعلها كالبدر ؟ حاشاها !
وما اسرع الجحود الى قلب المرأة ، وانها لتنسى من تعرفه او تتناساه
دون ان يغتبر ذلك من خاطرها او يكدر من صفائها ، ويقرر ابن
المعتز ذلك فيقول :

وشمس ليل طرقتها فبدا منها صدود ما كنت أحسبه
تقول من ذا ؟ ولست اعرفه يالسة القلب حئت اطلبه
وبعد ، فما الحب في نظر هذا المحب الفيلسوف كما تقرأه في اسطر
ديوانه ؟

انه ليس غير موعد ورجاء ، وسهر وبكاء وانين ، وان تنهل الدموع
وتسرف في الانسكاب حتى يزول القلب عن مستقره خفوقاً وقلقاً
واضطراباً ، فاسمعه يقول :

أين لي فقد بانبت بها مدة النوى أنت على شيء سوى الهم قادر
نعم ان يزول القلب عن مستقره خفوقاً وتنهل الدموع البوادر
ثم يقول :

اشكو الى الله ان الدمع قد نفدا وانني هالك من حبكم كمدا
وان عيني في ليلى مسهدة فلست أرقد فيه مثلاً رقدا

غزله الماجن

واما ابن المعتز الغزل الماجن العريـد فحسبك ان تعرفه من قوله :

وما العيش الا لمستهر تظل عواذله في شغب

يم الى كل ما يشتهي وان رده العذل لم ينجذب

هذا الماجن غير ذلك العالم ، بل هو في ناحية اخرى غير ذلك الفقيه
الواصف المصور ، وانما تراه هنا غزلاً مفتوناً بظاهر الحسن ومباذله ، لا
يدرك منه الا ما يدرك من الاعضاء الظاهرة التي تمتلىء منها حذقة العين
وتلمسها اليد وتتمرغ فيها الحواس ، رجل لا يعني بالعاطفة الشريفة ،
بوهيمي الحب يريد الانطلاق بلا قيد ، ويجيد عن كل وازع ، وكأنه يعبر
عن مبدئه هذا بقوله :

انا منذ صار لي سكن في ضروب من الحزن

هائم العقل في نها ري وليلي بلا وسن

ليتني عدت مثلها كنت أرعى بلا رسن

وعقل هذا الرجل عبد شهوته واسير نهمه ، وهو يصرح بذلك لا

يهاب قائلاً :

جعلت عقلي لشهوتي عبدا وصار غني عند الهوى رشدا

وهو يبيح للحب ان يشيع بين الناس مادام شهوة من الشهوات ،
ومسواء لديه اطلب اللقاء الحب ام الحبيب ، (وكان طلب اللقاء من المرأة
عيباً في شرعة من سبقوه) فيقول :

تقول لي والدموع واكفة في خدرها بالدماء تمزج

حتى متى نلتقي على حذر أما لنا من عذابنا فرج ؟

والشاعر الامير يحب صفات المرأة الجسدية البادية ، فيعجبه منها ان
يكون قوامها غصن بان ، ووجهها مضيئاً اضاءة بدر الدجى ، ويجب
مادون خاضعتها ان يكون كالنقا ، وفي عينها سنة تغالبها كالسنة التي
في عين الظبي ، ومقلتها كالنرجس الذابل ، ووجنتها قد تفتح فيها

الورد ، وان يبرز النهدان بروز الرمان ، وان يكون شعرها مسرفاً
في الطول ، ويريجها كالراح ، وانك لترى كل تلك الاوصاف منتشرة في
غزله اوسع انتشار ، وكل ما قاله في هذه الناحية انما هو صنعة وتقليد :
ولكننا نعلم من هذا باستهتار ابن المعتز وسرفه ، فهو يقول في
المداعبة والاغراء :

يا هـللاً يدور في فلك الما ورد رفقاً بأعين النظارة
قف لنا في الطريق ان لم تزونا وقفة في الطريق نصف الزياره
ويقول في غشيانه حيّ الحبيب بالليل :

نبيته والحي قد رقدوا مستبطناً عضبا مضاربه
فكأنني روعت ظبي نقا في عينه سنة تغالبه
ويحكى ابن المعتز في غير اخفاء فيقول :

كم ليلة عانقتُ فيها جيده حتى الصباح 'موسدا كفيه
فسكرت لا ادري امن سكر الهوى ام كاسه ام فيه ام عينيه
وغدا فم عليه عند عذوله اثر من التقييل في شفتيه
وسقام عين لم تذق طعم الكرى يدعو العوائد في الصباح اليه
ويقول :

كأنني عانقتُ ريجانةً تنفستُ في ليلها البارد
فلو ترانا في قميص الدجى حسبتنا من جسد واحد
وانه ليفحش في غزله اكثر من هذا فيتغزل بالمستهتره التي تطالبه
باللقاء ، ويدب اليها في الليل والناس رقاد حاملا سيفه مخافة العذال
ويقول :

عقدا نطاق طول ليلها معاً قد ألصقا الاحشاء بالاحشاء
حتى اذا طلع الصباح تفرقا بتنفس وتلف وبكاء
ماراعنا تحت الدجى شيء سوى شبه النجوم بأعين الرقباء
ولا يأبى ابن المعتز ان يحب من لا تعرف الحب ولا تقيم له وزنا ،

ولعله كان اذا سئل : الا تحب من لا تحبك ؟ يقول : بلى ، نحبها
ايضا ، فهو حب من نوع ساخر لا يوجع الحب فيه بُعْد محبوبته عنه
متى تصورها وتراءت امام عينيه في تذكره ، ومثل هذا قوله :

ما ابالي بظنون وعيون أنقيها

لى من ذكراك مرآة ارى وجهك فيها

ثم لا يهجه هجر ولا وصال (وهو عيب في شرعة الحب) ، كما يقول :
فان اردت وصالا فاقبلي صلتى منى والا فهجرات بهجرات
ولا اريد الهوى ان لم يكن لهوى نفسي وبعض الهوى والموت سيات
وهو يملك قلبه متى شاء السلو وكما اراد ، وكما يقول :

فاسل عنها فالآن وقت التسلي قطعت منك حبلا فانبتا

وأعجب ما في غزل ابن المعتز من هذا النوع انه يحب يقسط كأس
الحب ، فلا يشربها كالحبين دفعة واحدة ويأتي عليها حتى الثالثة ولكن كأن
الحب شيء في قبضة يده وفي ملكه فهو يصرفه كيف يشاء ، ومرعات
ما يفضي مثل هذا الحب للسلوان والاعراض فاسمعه وهو يقول :

القلب لا يجمع ثنتين والغمد لا يجمع سيفين

تاه فأفضيت الى غيره خار إلهي للفريقين

ويفقد ابن المعتز عفقه فلا يبالي أحسنا يحب أم قبيحا ، ولقد حضر
مجلس شربه وغناؤه ذات مرة جعفر بن قدامة والنميري وعنده جارية
لبعض بنات المقتن تغنيه ، وكانت تحسن الغناء الا أنها في غاية القبح .
فجعل ابن المعتز يجمشها ويتعلق بها ، فلما قامت قال له النميري : ايها
الامير ، سألتك بالله اتعشق هذه التي ما رأيت قط اقبح منها ؟ فقال ابن
المعتز وهو يضحك :

قلي وثاب الى ذا وذا ليس يرى شيئا فيأباه

يهم بالحسن كما ينبغي ويرحم القبح فيهواه

وليس ابن المعتز مبتكر هذا المذهب في المجون ، وانما سبق اليه ولا سيما بأبي

نواس ، وهو في هذا تظهر رقة فنه وتناوله للهو والمداعبة بالعبث والاسراف .

حبه الصادق

اما ابن المعتز المحب فتراه في غزله الصادق وحبه المضطرب وانفاسه المحترقة . ولم يُصَبَّ امرؤ باضطراب ذهني وخلط وجمع بين النقيضين في الاقوال والافعال كما اصاب المحبون ، ولو استطاع مصور بياني ماهر ان يصور حال محب صادق لتوك ريشته تضطرب هي ايضا ، وقد ترجع في النهاية وقد ابدعت التصوير حين لم تصور شيئاً .

وهذا الشاعر ينتابه في كثير من نوبات حبه هذا الاضطراب ، واطنه حين يلجأ الى ادعاء السلوى والتصميم على التوبة والانتصاح بلوم العذال ويؤكد الايمان ويكررها يكون حينئذ اشد الناس ايفالا في الكذب ونزوعا الى الغواية ، وها هو ذا يقول :

أبى القلب الاحب من هو هاجر ومن هو ينساني ومن هو (هاجر)؟
ومن هو عني كلما جئت معرض ومن لا يواتيني ومن انا عاذر
فكيف بمعشوق يحب ويشتهى أأكتمه وجدي به ام اهاجر ؟
وكيف يراني ان بدا لي منعه التركه زهدا به ام اكابر
ولسان السالي في ناحية ، وقلبه في الناحية الاخرى ، لسانه معه وقلبه عليه ، وانه ليطلب حبيبه مهما امتنع ويرجوه مهما مطل ، ولن يخونه ولو خان ، ويقول في ذلك :

فدُمن على منعي ودمتُ مطالباً ولا شيء الا موعد ورجاء
حلقت لقد لاقيت في الحب منهم اخا الموت من داء فأين دواء ؟
وقد كتب على المحبين ان يشقوا ، فشقاؤهم قدر مكتوب ، ولا يمسح هذا المكتوب الا رؤية الحبيب التي تذهب بالحسرة والكآبة وتمحو الهم والألم ، وهو واحد من هؤلاء في قوله :
حدثنني يا همّ سؤلي ونفسي من دهاني في الحب او من وشى بي

لا ومن قدّر الشقاء على العشاق ما خنت ساعة في حسبي
ليت أن الرسول كان يؤدي لحظ عيني كما يؤدي كتابي
فأرى شرّ كل يوم ويشفي سقم نفسي وحسرتي واكتئابي
فاذا لم يزره الحبيب أو يؤد الرسول لحظ عينيه ليوى محبوبته وتراه
في الرسول علل نفسه بالود الكاذب ، ومنه قوله :

عليّ بموعد وامطلي ما حيت به
فعمسى يعثر الزما ن ببختي فينتبه

فاذا لم تزر ولم يعلله الكذب فليكن شفاؤه في الطيف ، وما اقدر
الطيف على شفاء الاسقام كما يقول :

شقائي الخيال بلا حمده وأبدلني الوصل من صده
وكم نومة لي قوادة أتت بالحبيب على بعده

واحب زورات الحبيب في الليل وعلى غير موعد وفي عجلة الخوف
كما يقول :

وزائر زارني على عجل منقب الوجنتين بالحجل
قد كان يستكثر الكتاب لنا فجاد بالاعتناق والقبل
يقوده الشوق خائفاً وجلاً تحت الدجى والعيون في شغل
فملت منه الذي أومله بل الذي كان دونه أملي

فاذا لم يزور الحبيب على غير موعد فنظرة في الطريق أو لقاء في
زحمة العيد ، كما في قوله :

قف لنا في الطريق ان لم تزرنا وقفة في الطريق نصف الزيارة
وقوله :

رأيت يتمشى متعباً ضجرأ كمثل غصن نقا في الروض املود
ليت الغبار الذي يؤذيه لي كحل وليتني جاره في زحمة العيد
ولقد خيل لي ان ابن المعتز قد اصبح محباً يغني لذات حبه وينفق
همره فيه ، ويعلق بمن يحب جيئة وذهوباً وقياماً وقعوداً ، وانه لهائم

ويزيد به الهيام والاضطراب فيرى البعد والشكوى للأصحاب بما اصابه
قدراً مكتوباً ، ويحلو له اللوم والعذل ما دام في الحب ، وانه ليفلسف
لذلك فيرى العذل والملامة بدلاً في طاعة الحب يجب ان يحتمل وان
يلذ سماعه فيقول :

كذبت الهوى ان لم اقف اشتكي الهوى اليك وان طال الطريق على الصحب
وقفت بها والصبح ينتهب الدجى بأضوائه والنجم يركض في الغرب
أصانع اطراف الدموع فقلتي موقرة بالدمع غرباً على غرب
وهل هي الا حاجة قضيت لنا ولوم تحملناه في طاعة الحب
ويرجع هذا المحب بعد كل هذا يلوم نفسه ويراها سبب بلائه فيرميها
بذنب حبيبه ، ويحملها الشقاء التي رمت بنفسها في اجيغ لهيبه ، ومهما
اعتذرت عن ذلك بوساوسها واغواء ابليس لها فأنا الذنب ذنبها والاثم
عليها ، فهي التي نظرت بالقلب فخفق ، ونظرت بالعين فبهرت ، وانه ليخاطب
قلبه بهذا قائلاً :

ما ارى في الهوى لابليس ذنباً ان عيني قادت وانت اتبعتا
فذق الحب قد نهيت فخالف ت ألت الذي نهيت ألتا !
وكم لهذا الحب الصادق من تأوهات ، وكم للهجران والجفاء فيه من
خفوق قلب ومسيل دموع ، ولو علم العذال لذعته ما عذلوا وما لاموا ،
وابن الممتز في حبه هذا يحتمل ما فوق المم ولو زال قلبه عن مستقره
وعاش بعد حبيبه عيشة مريضة سقيمة ، ألم تسمع قوله :

فكيف بها لا الدار عنها غريبة ولا انت عنها آخر الدهر صابر
ابن لي فقد بانت بها مدة النوى أنت على شيء سوى المم قادر
نعم ان يزول القلب عن مستقره خفوقاً وتنهل الدموع البوادر
وأحيا حياة بعد سلمى مريضة لها عاذل في حب سلمى وعاذر
وقوله :

وظل عذاله لا كان عذله لو يعلمون الذي القى لما عذلوا

ويتوب ابن المعتز ويلج في التوبة ثم ينكص على عقبيه ، ويرجع
فيتوب ثم يرجع فيعود ، ولا ينفك يتوب ويعود كاذباً في التوبة فرحاً
بالنكوص عنها مسرعاً اليه متقبلاً تهانئ ابليس حيث اطاعه ولبى دعوته
ورضي غروره ، وكذلك ايمان الظرفاء ما يلبث ان يطير قبل ان يستقر ،
ويزول قبل ان يثبت ويتمكن . وتورده هذا بين التوبة ورجوعه عنها
اثر من فسق ذلك العصر المادي المقبل على المنافع والشهوات . كان
الرجل يقسم على الشيء ويغلظ القسم ثم تسنح له الفرصة فيجحد التوبة
 ويعود الى نقض العهد والكفران .

وانك لتراه يقسم ان يعمل بينا هو يعمل ضد ما اقسم عليه ، ومع
ذلك يشكو متمللاً مستجيراً يقول :

إلى الله اشكو الشوق لا إن لقيتها يقلُّ ولا إن بنتٌ تُخلِّقُه الدهر
مقيم على الاحشاء قد قُطعت به فساعته يوم وليلته شهر
وأي لوثة حب اشد من هذه ؟

انه يدعو على الحبيب بالاذى ويدعو له . بل يكتحل بالغبار الذي
يؤذيه ، وهو من فرط انغماسه في حمأة الشوق والتلطي بناره لا يدري
كيف يعبر عن شوقه ، وكل ما يستطيع ان يقول عنه : انه شيء
لا يطاق ، ذاهب بالعمر مفسد للحياة ، ولو اخبره مخبر بان عين حبيبه
قد رمدت لنسي محاسن الجسوم ومفاتيح النظرات وتغزل في العين الرمداء ،
فوارحمتا لهذا القلب المضطرب ، ووارحمتا لهذا القلب المنهوب ! وانظر
اليه يقول :

وشادن أفسد قلبي بعد حسن توبته
وجاء ابليس يهني نظري بطلعته
وماتت التوبة لما ان بدا من هيبته
وحسبك ان تسمعه يقول وهو نهاية ما يقوله حب حيران :
كذب الهوى متصنع الحب شيء لا يطاق

شرير

يذكر ابن المعتز من اسماء النساء هنداً وبثنة وسليماً يكنى بها
عمن يحب ، وتارة يكنى بالترجة ، واولى النساء بالكنى المحبوبات المحصنات
المحجبات ، اما اولئك القيان وبنات المغنيات والجواري في المجالس والحانات
فلا تستحق واحدة منهن كنية لانهن مشاعات ، ولكنه حين يكنى عن
يحبها حقاً فانه يكنى بشراً او ثرة او شريراً او شريرة - ولعله سماها كذلك لما
أصابه بسببها من شر - وتحس لكلامه فيها حباً غامراً وقلباً محترقاً ، وتحس
في شعره بها نغمة عذبة حزينة لا تحسها في بقية غزله ، فمن هي شرير هذه يا ترى ؟
انها ليست قينة من اولئك القيان اللاتي يشترين ويرخصن على الامراء
وذوي الجاه ، وليست هي نشر الجارية التي قال فيها :

فديت من مر يمشي في معصرة عشية فسقاني ثم حياني
وقال تلعب جَنَابِي فقلت له من جاد بالوصل لم يلعب بهجران

لان نشر هذه كان يحبها حباً خفيفاً يساوي حبه للاخريات اللاتي
يقدر عليهن ، ولذا فانك تجد ذهنه عند الغزل بها في فسحة لان يلعب
باللفظ ويحتال للصنعة الشعرية كما رأيت في البيتين السابقين ، اما شرير فهي
فتاة اخرى تختبئ عنه في قصور بغداد تسامياً عنه او غنى وجاهاً اكثر
منه ، ويلوح ان له بها صلة نسب ، وقد واصلته قليلاً او لم تواصله ابداً ،
وقد صرح بذلك في قصيدته التي يناقض بها ابن طباطبا العلوي والتي
مطلعها :

الا من لعين وتسكها تشكى القذى وبكاها بها
اذ يقول بعد المطلع :

تمنت شريراً على نأيا وقد ساءها الدهر حتى بها
وامست ببغداد محجوبة برد الاسود لطلابها

بانت عنه او بان بها اهلها عنه ، ولعلها التي يعنيها بقوله :
بليت بجبار يجمل عن المنى على رأسه تاج من التيه والكبر

قدير على ما شاء مني مسلط جريء على ظلمي امير على امري
الفت الهوى حتى قلت نفسي القلى وطال الضنى حتى صبرت على الصبر
واظنها فارقت بغداد وخلا بيتها منها ومن اهلها ، وهو يذكر ذلك
في قوله :

كان لم تحلّ الدار شرّاً واهلها بلى ثم بانوا فهي منهم بلاقع
فقد بليت حتى اوان وملعب وأشعث مغبر الغدائر خاشع
والا ائاف كالحمام ركّدت كأن الرماد بينهن ودائع
وهو يتغنى بشير هذه في كل شعره وكل قصائده وكل عمره ، فاذا
ذكر كنيته التي كناها بها طار قلبه شعاعاً ، وعبر عن حبه لها تعبير الحب
المدنف المكسور المبيض ، ولم يسعفه من القول الا الآهات الصادقة
والفاظ الويل والعذاب وما اشبه ذلك من كلام صرعى الحب وقتلاه .
ان شعره في شرير من طراز آخر غير شعره الغزل الشارح المفصل
ذي الحجج والبراهين ، وغير شعره الماजन اللاعب المصنوع ، وانما هو شعر
يدل على الطبع وعلى ما دهم الامير من امر هذه الفتاة التي اضنته فضني
وهجرته فاحترق .

كانت فتاة جميلة تشتعل - كما يقول - من حسننها اشتعالا ، بيضاء ،
آنسة الحديث كاملة الظرف تملأ العيون بما امتلأ به وجهها من ملاحه
النعمة ، احبها مذ كان يافعاً مسود المفرق حول العشرين - فقد شاب
دون الثلاثين - ثم افترقا وظل في نفسه منها خيال يشعل الذكري
ويبعث الحسرة ولا يعود منه امل ولا رجاء ، ويتتبع اخبارها وينشد
فيها لعلها تطفئ لوعته ، وما يجديه ذلك نفعا ، ويغار عليها حتى ان
يراها البيت والحجر والحرم ، ولا يقبل فيها سلوا ولا لوما .
واليك بعض ما قال فيها بما اختصت به منه ، قال :

الا ايها القلب الذي هام هيمة بشرة حتى الآن هل انت راجع
اذ الناس عن اخبارنا تحت غفلة وفي الحب اسعاف وللشمل جامع

واذ هي مثل البدر يفضح ليله

وقال :

ولما لحقنا الظاعنين وأرقلت
أشرن على خوف بأغصان فضة
سلاماً كاسراء الندى تحت ليله
وشكوى لو ان الدمع لم يطف حرها
خليلي مدّا اللحظ هل تبصرانها
سقى دار شرّ حيث قرت بها النوى
اذا لاح ضوء الصبح خلّل روضه
ترى هاجع الانوار يرفع رأسه

ومن قوله فيها :

فكيف بها لا الدار منها قريبة
ابن لي فقد بانّت بها غربة النوى
نعم ان يزول القلب عن مستقره
واحيا حياة بعد شرّ مريضة
الا يا بني العباس هذا اخوكم

ومنه :

الم تك قد منيتني ايها القلب
فقال ظننت الحب يغلبه الفتى

ومنه :

عجبت شريرة اذ رأيتني شاحبا
يا شر قد حملت بعدك كربة

ومنه :

ولقد صرت ماثرين فانت كما
فاذا ما ابتلاك شيء فميلي
ن حماما يا شر هذا الذي بي
او فدومي على البكا والنحيب

وابن المعتز في صاحبه هذه مجدّ في قوله ، ولم يذكر اسمها في مجون
قط ، بل كانت منه دائماً كسراج الصباح يشعل الليل بياضه فتضيء الدنيا
امام عينيه نهارة ثم تعود به حرقرة الجوى كما يعود بياض النهار الى
الأفول .

وفي شرير هذه يتفق فن ابن المعتز وروحه اتفاقاً عجيبياً ، وما عدا
ذلك فهو صنعة تقليد او حيلة وابتكار .

الخمر والغناء

الغناء في العصر العباسي

بدأ خلفاء العباسيين يسمعون المغنين والستارة بينهما كما كان في العصر
الاموي ، ثم اسرف الخليفة المهدي في الاستمتاع فجعل للشعراء يوماً
وللقصاص يوماً ، ثم يوماً للندماء وآخر للمغنين ثم للرماة والسباق ، لكل
طائفة من هؤلاء يوماً . ثم اهتم الرشيد بالغناء فجعل للمغنين مراتب
وطبقات ، فلما كان المأمون كان اول من ظهر من الخلفاء للمغنين ، فأكبر
ذلك اهل بيته وبنو ابيه ، ولكن الامر مضى على سجيته فتبعه الخلفاء .
وكان المتوكل لا يشرب الا على سماع عود « بنان » وناي زنام . ثم غنى
المعتد . وجمع المعتضد النغم العشر في صوت صنعه * وغنى كثير من
اولاد الخلفاء : ابراهيم بن المهدي واخوته عليّة وابو عيسى بن الرشيد
وعبد الله بن موسى الهادي وعبد الله بن الامين وابو عيسى بن المتوكل
وابن المعتز .

كل ذلك الاهتمام دعا المغنين والموسيقيين ان يبدعوا لينالوا رضى
الخلفاء ويوضعوا في مراتبهم من المغنين ، قالوا : « كان منصور زلزلاً
من احسن من برا الله بالجلس » ، فكان اذا جلس العود فلو سمعه الاحنف

* انظر صفحة ٢٠٠ جزء ٤ من نهاية الأرب

ومن تحالم من دهره كله لم يملك نفسه حتى يطرب . وقالوا : « زنام
صاحب الناي احمد مصدري مطربي المتوكل ، والآخر بنان بن الحارث
صاحب العود ، كان كل منها منقطع القرين في طبقة ، فاذا اجتمعا على
الطبل والزمرا احسنا وفتنا واعجبا ، وفيها يقول البحتري :

هل العيش الا ماء كرم مصفق يقرقه في الكاس ماء غمام
وعود بنان حين ساعد شدوه على نغم الالحان ناي زنام
اما المغنون فأمرهم مشهور .

ثم تبع الناس خلفاءهم في ذلك العصر وافرطوا في اللذائذ يتحرونها
ويتفننون في الاستمتاع بها ، وكلما ملوا نوعاً ابتكروا نوعاً ، ونشط
الدعاة يستحثون الناس على الاغراق والافراط في الوان الملابس والاطعمة
والشراب والاثاث وآلات الغناء ، وكان كما قال ابن قتيبة : وآذت
المروءات في زخارف النجد وتشديد البنيان ، ولذات النفوس في اصطفاق
المزاهر ومعاطاة الندمان . وكما قال ايضاً : واعلى منازل اديبنا ان
يقول من الشعر ابياتاً في مدح قينة او وصف كاس . فلا عجب ان
رأينا الحياة هناك لاهية لاعبة تثير العجب والاعجاب معاً .

وكانت دنيا العراق حين ذلك ربيع الدنيا وجنتها المزخرفة ، توحى
الى الشعر والخمر والغناء ان تشتعل جميعها في ألفاظ جزلة ومعان مولدة
ظريفة ، او كؤوس فارسية مصورة بتصاوير شتى تمتلئ خمرأ وحبيباً ، او
حلق مغردة مطربة كلهوات الطيور السواجع .

والغناء بين اخويه الشعر والخمر هو صوتها ونشوتها وصوت خمارها ،
وقد امتلأت العراق بالديارات ومجالس القيان ولا سيما في سامرا وبغداد
ومحلاتها وضواحيها ، وفي الحلاء والمصايد والمتنزهات والديارات والحاتات ،
في كل تلك المنازل وغيرها يجيد الغناء مغنون وقيان ، وجوار كثيرات
لهؤلاء القيان مغنيات شاعرات يُتجر فيهن فيبعن ويشترين ، حتى اكتظت
بغداد وسمررا بالجواري المغنيات الشاعرات الاديبات ، قد جلبن الى

العراق من كل الآفاق .

ويتروى خطى هؤلاء او يقلدهم ويقلدهن كل ذي صوت نديّ او علم
بالنغم او قدرة عليه ، وتمسك طائفة منهم على القديم تحسّنه ولا تعدّوه ،
وتخطو طائفة اخرى في التجديد خطوات فلا ينكر عليهم منكر ، وتعتدل
طائفة بين هؤلاء واولئك فيكونون احسن المغنين اذ يخلقون لكل حلق
نغما ولكل غناء مذهبا ، وكثير منهم يجيد اعادة الجواد الرائع ، ويفبر
في وجه كل تابع ، وكأنهم اهل زماننا في هذا الاختلاف وهذه المذاهب*
والقيان اليق الناس بمهنة الغناء ، وهن لبيوت الامراء والرؤساء أليق ،
بل هن مطلب الجميع في عصر قرمت فيه الشهوات وطلبت اللذات ، وهن
خليقات ان يُؤثرن بالغناء في القلوب والاسماع ، ويستحثن الشهوات
وحب الاستمتاع .

ولقد ندر ان يكون ظريف من ظراف بغداد او سامرا ليس له
معشوقة حسنة الوجه او الغناء حتى ابو العتاهية الزاهد كان يريد ان يموت
شهيد الطرب ، قال محمد بن المؤمل : كنت مع ابي العتاهية في سميّيته**
ونحن سائرون الى اشموني (دير بقطر بل سمي باسم صاحبه اشموني) فسمع
غناء من بعض تلك النواحي فاستحسنته وطرب له وقال لي : التحسن ان
ترقص ؟ فقلت نعم ، فقال قم بنا نرقص ، فقلت : في سميّية ؟ اخاف ان
نفرق ! فقال : ان غرقنا ليس نكون شهداء الطرب !

وقد اوردت كتب التاريخ والخبار والادب حكايات لا تحصى عن
جنون العشق في تلك الايام مما لا نجد له نظيرا في عصر من العصور .

في دار ابن المعتز

وبين قصور الخلفاء وبيوت الناس في الرتبة دار لابن المعتز فخمة

* كان للمواخير غناء خاص سموه بالماخوري . قال ابو الفتح كشاجم في كتابه « أدب النديم » :
ولما سمي الماخوري لان أبرهيم الموصلّي كان يكثر الغناء في طريقته في المواخير .
** نوع من المراكب الصغار .

مشيدة مبيضة بنهر الكرخ في احد ميادين بغداد ، يعنى بها ويهتم بزيتها ،
فاذا احدث فيها الدهر او السيل ما يحوج الى الغرامة او الكلفة بناها
واصلحها وجددها وجلب اليها طبقات من امهر الصناع فأصلحوها وبيضوها
حتى في ازمان فقره وإفقار كيسه .

كان يجلس رب هذه الدار واميرها للشراب والغناء والتجميش بها ، في
صدر صعب من اخلص اصحابه او بمن توهم اخلاصهم ، يحتسون ويسمرون ،
وهو بينهم كالياقوتة في الحرز والواسطة في العقد ، يُسمع ، وينشد شعره
وينشر ادبه ويشئى على ظرفه ، ويُتنادم على الطعام والشراب على المجلس
المقبل والفرش الثمين ، ثم تدعى القينة الحاذق فتغني او يُقترح عليها ان
تغني في المجلس صوتا وصوتين وثلاثة فتحسن التوقيع والغناء لانها تفهم معنى
الشعر وتصيب معناه .

فهذه زرياب وتلك خزامى او هزار ثم بنت الكراعة ثم غيرهن من
بنات المغنين والقيان والجواري والغلمان كنشر ونشوان ، هؤلاء جميعا
يختلفن الى ابن المعتز في داره يأمر من تغني منهن فيغنين بلحونهن
او الحانه في شعر قديم او مولد او في شعر له محفوظ او مرتجل فيبدعن
الالحان ، وكثيراً ما يغني هو بين يدي اصحابه وقيانه في شعر
ظريف تخلقه المناسبة فيحسن الغناء ، وادبه دائماً يملأ مجلس الشرب والغناء
ظرفاً وحياء وانساً .

علمه بالنغم وكتابه « الجامع في الغناء »

وانه لعالم باصول النغم وقوانين الموسيقى وتاريخ الالحان ، يتحدث
فيذهب الالحن الى صاحبه ، ويشير بالتهذيب ويستحدث ، ويمزج بين الانغام
واللحون في براعة وتوفيق ، شأنه في مذهبه الشعري . ولم يقتصر الامير
على ان تكون داره محلة الفن وانما راسل اهل الصنعة والاستماع رسائل
طويلة تنبئ عن علم وزيادة فضل ، خلط فيها الجد بالهزل والهزل بالجد

في جزالة لفظ وبلاغة مقصد وانارة برهان حتى فضله بعضهم على الابراهيميين :
احدهما ابراهيم بن المهدي ، وكان من آدب الناس واشعرهم وابلغهم ، وغلب
عليه الغناء فبرز فيه واعجز وسحر وبهر حتى ضرب به المثل ، وقد قيل
انه كان اذا ضرب وغنى لاحدهم في الصحارى والمصائد والمتنزهات وقفت
له الطير وعكفت عليه الوحوش حتى تكاد تؤخذ بالايدي ؛ وثانيهما
ابراهيم الموصلي ، ومن بعده ابنه اسحق .

ولا يكتفي ابن المعتز برسائله هذه ، وانما يؤلف في الغناء كتاباً . ولو
عُثر على كتابه « الجامع في الغناء » لبان لنا فضله الاوسع واتضح لنا
فنه الاكمل وذوقه الرفيع .

ومن بعض علمه في الغناء ما رواه صاحب الاغانى قال : اخبرني علي
ابن هرون قال : كان عبدالله بن المعتز يحلف ان الواثق ظلم نفسه في
تقديم لحن اسحق في قول اعرابي :

لقد بخلت حتى لو اني سألتها قذى العين من سابي التراب لضنت
قال : ومن الدليل على ذلك انه قلما غنى في صوت بلحنين فسقط
احدهما وشهر الدون ، ولا يُشتهر من اللحنين الا اجودهما ، ولحن الواثق
اشهرهما ، وما يروي لحن اسحق الا العجائز ومن كثرت روايته .

وقد روى ابن المعتز اخبار المغنين من اولاد الخلفاء فكان مما قاله
عن ابى عيسى بن المتوكل : جمع لابي عيسى بن المتوكل صنعة مقدارها
اكث من ثلاثمائة صوت ، منها الجيد الصنعة ومنها المتوسط . وروى عن
علي بن يحيى قوله : امرني المعتمد على الله ان اجمع غناء عريب الذي
صنعتُه ، فاخذتُ منها دفاترها وصحفها التي كانت قد جمعت فيها غناءها
فكتبته فكان الف صوت . وحكى ابن المعتز عنها روايات كثيرة . وكان
يتورع ويدقق فيغلب رواية على رواية * ويقول النويري في آخر اخبار
عريب : « واخبار عريب كثيرة قد وضع عبد الله بن المعتز فيها ديوانا . »

* انظر اخبار عريب في نهاية الارب صفحة ٩٢ وما بعدها بالجزء الخامس .

في مثل ذلك ما يدل على علو كعب ابن المعتز في فن الغناء علما وعملا ، ولعل مجالس المناظرات والمذاكرات في عهد المعتمد قد ساعدته على تدوين كتابه هذا واسعا مفصلا ، فقد كانت تلك المجالس تعنى بالغناء ، اذ كان المعتمد يقيم في قصوره اسواق الغناء ، وكان يتحدث المتناظرون في الغناء وفنونه ، وانواع الملاهي وتاريخها ، وانواع الطرب ومنازل الايقاع وفعل الغناء بالنفوس وفضل الغناء على الكلام * ، وكان الخليفة المعتمد يسأل ندماءه عن الرقص وانواعه فيجيبون ، وذكروا له حاجة الراقص الى خفة الروح وحسن الطبع على الايقاع والمرح والتصرف ، ثم خلقة الراقص من طول في العنق والسوالف وحسن الدل والشائل ولين الاعطاف ودقة الخصر وحسن القسمات .

ولعل ابن المعتز كان يذكر لنا في كتابه هيئة السماع واقسامه وانواعه ، واصول الغناء ومبادئه في العرب والامم ، ويذكر اخبار اعلامه وبجالسهم ومراتبهم واحاسن الاصوات والالخان ، وينسج فيه على الطريقة التي سلكها في كتابه تباشير السرور وسيأتي بعد .

ولابن المعتز ناحية عملية في الغناء ايضا ، فقد كان يدبر اللحن او يرتجله ثم يطلقه على سجيته فيكون ظريفا شكلا جيدا ، ثقيلا اول ، وخفيفا ثقيلا ، وهزجا ، وخفيفا رمل ، ورملًا مطلقا . كما كانوا يسمون الانغام ، ويوفق جد التوفيق في البحور التي تليق بالالخان ، وتحف لمشيئته الالفاظ فلا تكون الفاظ اليق منها بالغناء المولد الجديد ، ومن اصواته في الغناء :

هل ترجعن ليال قد مضين لنا والدار جامعة ازمان ازمانا ... وهذا وامثاله كثير منه في حلاوة اللفظ وقرب المعنى وتمكين المعنى

* قد أوضحوا الايقاع ، ووسموه بسماوات ولقبوه بألقاب وهو أربعة أجناس : ثقيل الأول وخفيفه وثقيل الثاني وخفيفه والرمل الأول وخفيفه والهزج وخفيفه . وقد بين المسعودي تفرعات هذه الاوزان في تاريخه ، وقد تفرعت من هذه الاصول فروع اخرى .

ان يكرر اللفظ الاخير ، في حين يدع للسامع ان يكمل المعنى مما يتصوره
من ازمات سروره وذكريات ايامه ، فتزيد لذة الاستماع ويطفى تأثير
الغناء ، ومن اصواته غير هذا :

زاحم كمي كمي فالتويا وافق قلبي قلبه فاستويا
وطالما ذاقا الهوى فاكتويا يا قرة العين يا همي ويا

وهكذا ترى في لفظ (يا) الاخير ما يغني عن الشرح ، ويترك للسامع
ان ينادي صفات محبوبه من جميل ومنكر ، فتكون الذع في النفس
واجلب لهمها وطربها . ولكننا مع هذا نرى اصوات غنائها التي رواها
صاحب الاغاني من اضعف شعره نسجاً واقله معاني وروعة وسمواً ، ولعله
تركها للغناء ليسمو بها الى اعلى من مكانها ، وكان اول اسباب ضعفها
الارتجال .

الديارات والحانات

ومنذ الازمنة القديمة وديارات النصارى مبثوثة في العراق وما حولها ،
يشرف عليها قساوسة ذوو غنى ويسار قد اغناهم ما يحمل اليهم من
الندور ، وما يبيعون من خمور في دياراتهم للنازلين بها من الضيوف او ما
يحمل منها الى البلدان ، وما يجلب عليهم الطب الذي اتخذوه صنعة
يشفون بها اوجاع الناس .

وقد ظلت هذه الديارات قائمة في اماكنها وعلى مكانتها في العصور
الاسلامية ، ثم فشت كثرة وانتشاراً في العصر العباسي ، وقامت حولها
الحانات والمعاصر ، وكثر بها الخمارون والسقا ، وضربت حولها المزارع
والمباقل والجنينات ، فتكون في الربيع كالوشى الملمع والحلي المرصع
لكثرة نوارها وطرائف ازهارها وصنوف الاقاحي والشقائق والنرجس
والزيتون ، وقد جلب الى كثير منها السرو وآس مصر ونخلة مريم
والبنديق والفسق واللوز الفرك والبطم ، وغرائب الشجر والرياحين ، كل

حسب ارضه ومائه وهوائه وانحداره او استوائه ، وكانت تبدو مناظرها في ثياب وحلل من نزه الدنيا تقصر عنها 'قدّر الوصف ، ويود من رآها واستظل بها واستمتع بثمارها وازهارها الا يزول من مكانه لفرط ما يرى من الحسن والطيب ، وسهولة ما يريد من الحاجات .

وكانت المرافق موفورة بهذه الديارات ، وارجاء الطحن دائرة بها ، وقد امتلأت صهاريجها الكبيرة بالعذب الصافي من ماء المطر ، فاذا خرج الماء خرج من افواه تماثيل من صُفر فيكون منظراً عجيباً ، وقامت على شطوطها - ان كانت على دجلة - مصايد السمك . وحتى الدابة كانت تجد علفها بها موفوراً .

على هذه الديارات العراقية - واكثرها حول سرمره وبغداد وعلى الدجلة - كان ينزل الخلفاء والامراء والرؤساء وعامة الناس ضيوفاً على ديارانتها ، كل منهم على قدره في الضيافة ، يشربون ويطربون وينعمون ويلعبون ويقصفون ويتنقلون بين الشراب والسماع ، يصلون الصبوح بالغبوق والغبوق بالصبوح ، فمن لم يحركه الشراب حركه الغناء ، بين اباريق وكؤوس وارطال ذات حلى وتصاوير ، تكرع من دنان معتقة واشربة ليس اصفى منها ولا اعطر ، قد تولت الشمس عن النار انضاجها ، وطعام من دجاجات وحملان وشطيريات وخبز وإدام نظيف وماء بارد ونُقل منضود مرصوف في المناقل والاطباق ، وفاكهة طيبة واترج وثمار واعناب ، وبين ناي وعيدان وطنابير في ايدي مردان او فتيات حسان عليهن جيد الثياب وفاخر الجوهر ، وروائح المسك والعنبر قد طيب الهواء منها ، في ابهاء واسعة نصبت بها هياكل دقيقة الصنع عجيبة الحسن ، وصور ذات اصباغ لا تتحول والوان لا تحول .

وكلما اختلف الخلفاء الى هذه الديارات لم يرجعوا عنها الا وقد منحوا المغنين والقيان والندماء فيها المنح ، وهبوا لهم الوف الدنانير ، واعفوا القسس من الخراج او خففوه ، واقطعوهم الاراضي حول دياراتهم فزادوهم

غنى ووفرة ويسرا .

وكان كثير من الندماء والخلفاء - وما اكثرهم ! - يجعلون هذه الديارات وحاناتها مغاني ومآوي فلا تخلو يوماً ولا ليلة من المجان ومن يؤثرون البطالة والقصف والتطرح فيها ، وكان بعضها مجالس تجتمع فيها الاحداث لا غير ويطرد الكبار ، وبعضها اكثر سكانها نساء متوهبات ، وبعضها يمر بها ليال يباح فيها ان يختلط الرجال بالنساء فلا يرد احد يده عن شيء فكانت كثيرة الطراق .

حانات الخلفاء

أغرت هذه الديارات وحاناتها بعض الخلفاء فعقدوا بديارهم حانات خاصة بهم ، وكان منهم الواصل الذي احب المواخير وما قيل فيها وما غني به في ذكرها ، فعقد حانتين احدهما في دار الحرم والاخرى على الشط ، وأمر ان يُختار له خمّار نظيف جميل المنظر حاذق بالشراب ، ولا يكون الا نصرانياً من اهل قطربل - وقد برع النصارى في الخمر وسقايتها ولم يبرع براعتهم فيها احد من المسلمين او يحاول اللحاق بهم منذ القدم - فأتى بنصراني له ابنان نظيفان مليحان وابنتان بهذه الصفة فجعلهم الواصل في الحانتين وضم اليهم خدماً وغلماً وجواري رومية ، واخدم النساء حانة الحرم ، والرجال حانة الشط ، ونقل اليهما طرائف الشرب ، وفرشهما من فرش الخلقة وعلق عليهما الستور ، وجعل فيها الاراني الذهبية والدنان المدهونة ، فكانتا احسن منظر وابها .

فلما فرغ منها امر باحضار المغنين والجلساء ، ولم يدع احداً يصلح من ضراب الطنابير الا احضره ، ثم حضر الندماء والخاصة ، وخرج الخمار وأولاده معه عليهم الاقية المسهمة وفي اوساطهم الزنانير الحلاة ، ومعه غلمان يحملون المكاييل والكيزان والمبازل في الصواني ، واخرجت تلك الدنان المذهبة وقد طينت رؤوسها تطييناً نظيفاً يعبق منه الطيب ،

فاقيمت بأزاء المجلس الذي كان فيه جالساً فُبْزِلَتْ كما يفعل في الحانات ، وجُعِلَ يُؤْتَى بالانغوذجات فيذوقها ويعرض ذلك على الجلساء فيتخار كل منهم ما يشتهي ، فيأخذونه ، ويجيء الى الخمار ويكتال منه بمكيال في انائه كما يفعل في المواخير ويعود الى موضعه فيجلس ، وتوضع على رؤوس الحضور الكلاليل الآس وما اشبهه من الرياحين ، فكان احسن يوم رآه من حضر ، فشرب الوائق شرباً كثيراً ، وامر للخمار بالف دينار ولزوجته بالف ولكل واحد من اولاده بخمسمائة ، ولم يبرح احد من الحاضرين الا بجائزة سنية . وقد تشبه الخليفة المعتمد بالوائق في لهوه واشتغل بلذات نفسه .

ولم ينس الخلفاء ان يصطحبوا الشعراء في حاناتهم لينشدوهم فيها ، وفي ذكريات ايامها ولياليها ، فيغتنى في اشعارهم ، ويأمرون لهم بصلات مجددة ، وكذلك لم ينسوا الندماء ، وقد كان بعض الخلفاء يمنح النديم الذي يسره فوق ما يمنح الشاعر الذي يمدحه .

مسألة النبيذ

ومع ما حرم الاسلام الخمر فقد تسمّح الخلفاء ببقاء الحانات ملحقة بالديارات أو غير ملحقة بها ، وكان التسمّح يغري عامة المسلمين بالأسرار في شربها ثم شربها علانية ، وفي العصر الاموي واول الاسلام رأينا العرب قد انكبوا على المواخير ، وما منعهم الا زياد بن ابيه . وخطبته البتراء مشهورة حيث توعد فيها بهدم المواخير وتسويتها بالارض هدماً واحراقاً . ثم دعت مجاورة العرب والمسلمين لغيرهم من الامم وانتشار النصارى ودياراتهم وحاناتهم في البلاد الاسلامية الى ان شرب المسلمون الخمر واقبلوا عليها بعد ان ظهرت مسألة النبيذ واختلف الأئمة والفقهاء عليها * كالذي

* لم يختلف الأئمة الا على المطبوخ منها المسمى بالطلاء وهو الذي طبخ من الرب والدبس (١) حتى ذهب ثلثاه وبقي ثلثه ، سمي بذلك لانه شبيه بطلاء الابل في ثخنه وسواده ، اما غير ذلك من انواع الخمر فهو حرام بالاجماع . انظر المسألة صفحة ٨٢ وما بعدها من نهاية الأرب الجزء الرابع .

(١) الرب ما يطبخ من التمر او سلافة خثارة كل ثمرة بعد اعتصارها . والدبس عسل التمر .

كان بينهم في مسألة الغناء * وانتقل الجدل من رجال الفقه الى الادباء والشعراء والظرفاء والعامّة ، وكان في اقوال كثير من الشعراء منذ العصر الاول العباسي امثال بشار ووالبة والحكمي وابن الضحاك نماذج كثيرة - من ضعف الاخلاق - في التحدث بالخر والنمذ بها والحث في النسيب والمجون ، فوجد كثيرون في هذه الآراء تكأة يصلون بها الى اغراضهم ، ثم لم يقفوا عند النوع الذي احل ولا القدر الذي ابيع . وكذلك فعلت خلاعة الظرفاء واشعار الادباء ! ثم جاهرت بعد ذلك طوائف من الناس بشرب الخمر . بدأ بها الخلفاء والأمراء ثم قلدتهم الخاصة والاغنياء وتبعتهم العامة ثم أوشاب الناس .

ولا عجب اذا قلد العامة الخاصة فزينوا بحالهم ودورهم ووسعوا بساكنهم واتخذوا الخدم والعلمان ومالوا الى اللهو وتفننوا في الطعام والشراب ، وقد شاعت المنادمة على الطعام والشراب بين اصحاب الطوائف الواحدة كالتجار والصياغ ، وكان ذلك من تجمع الاموال بين ايدي الامراء وجباة الخراج واصحاب التجارات والجواهر .

ابن المعتز والديارات

كيف لا يغشى ابن المعتز هذه الديارات وتلك الحانات وهو الامير الشاعر الاديب الظريف الغزل الذي بلغ صباه في عهد المعتمد المشتغل باللهو والشهوات ! لقد حاكى اولئك المتطرحين في الحانات الهاربين من جد الحياة الى لهوها ، ومن ضجرها الى راحتها ومجونها *

وذلك دير العذارى في طريقه بين سامرا وبغداد في موضع حسن على دجلة يجمع بالرواهب العذارى ، وحوله حانات للخمارين ومتنزهات لا يعدم

* انظر مسألة الغناء بالتفصيل ورأي الأئمة فيها بالجزء الرابع من نهاية الارب صفحة ١٣٢ وما بعدها طبعة دار الكتب بالقاهرة .

* انظر ابن الرومي للعقاد صفحة ٣٨

من دخله ابن يرى من رواه جوارى حسان الوجوه والقود والالفاظ
والالفاظ ، فلا يعدم الدير ان يرى ابن المعتز كلما مرّ بطريقه ، ولا يعدم
ان يحظى بشعر ابن المعتز فيقول فيه :

ايا جيرة الوادي على المشرع العذب سقاك حياً حيئذ الثرى ميت الجذب
وحسبك يا دير العذارى قليل ما يحن بما تحويه من طيب قلبي
كذبت الهوى ان لم اقف اشتكي الهوى إليك وان طال الوقوف على صحي
وانه ليحجج الى دير السوسي الذي كان قد ابتناه رجل من اهل
السوس وسكنه هو ورهبان معه بالجانب الغربي من سامرا ، وظننا انه
الدير الذي بنيت سامرا بساحته وفضائه ، يبيت فيه ابن المعتز ليالي بين
كووسه وشرابه واهله ويقول فيه :

يا ليالي بالمطيرة والكرخ ودير السوسي بالله عودي
كنت عندي انموذجات من الجنة لكنها بغير خلود
اشرب الراح وهي تشرب عقلي وعلى ذاك كان قتل الوليد *
ثم يزور دير عبدون بسامرا الى جانب المطيرة ويذكره قائلاً :
سقى الجزيرة ذات الظل والشجر فدير عبدون هطال من المطر
ثم لا يعف ان يزور حانات الكرخ : كرخ سامرا وكرخ بغداد ،
فيرى فيها اخلاطاً من التجار والصناع واخلاط الناس ، ولا يأبى ان يذنبه
شأنها في شعره ، فإذا اراد التنزه بعيداً عن الضوضاء خرج في سميرته او
طيارته الى دير جرجس بالمرزقة احد الاماكن المشهورة والمواضع المقصودة
على شاطئ دجلة ، وتنقل بين بساطينه المهدقة به والحانات التي تجاوره ،
ويجد هناك كل ما يحتاج اليه ، ويظل فيه مدة حتى يشبع من منادمة
الاصفياء وتناشد الاشعار وسماع الغناء .

* هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك ذهب به الشراب كل مذهب حتى خلع وقتل
وله في ذلك حكايات وأشعار .

ابن المعتز والخمر

ولا يستطيع وصف الخمر ومجالس الشراب الا المدمن الدوب والذواق
الشروب ، فالخمر انواع ، والكؤوس صنوف ، وللشراب آداب ، وللسكر
احوال ، ولا يصف ذلك كله او بعضه الا ذو علم وبصر واحساس
مرهف وادراك لطيف ، واين من يصف نزهة من نزه الخمر كما وصفها
ابن المعتز في قوله :

فظلت لحوم ظباء الفلاة على الجمر معجلةً تتهب
وطافت سقاتهم يمزجون بماء الغدير بنات العنب
وحثوا الندامي بمشمولة اذا شارب عب منها قطب
فراحوا نشاوى بأيدي المدام وقد نشطوا من عقاب التعب
الى مجلس ارضه نرجس واوتار عيدانه تصطبخب
وحيطانه خوط كافورة واعلاه من ذهب يلتهب
واين تكون الروعة وشدة الاسر ان لم نرها في مثل قوله يصف
الخمر ومجالسها وندماءها في رحلة الى حانة :

وفتيان صدق قد بعثت بسحرة الى بيت خمار فخطوا به رحلا
وقام الى مخزونة بابلية كست دنيا ايدي عناكبها غزلا
مسندة قامت ثلاثين حجة كواضعة رجلا وقد رفعت رجلا
واخرج بالمبزال منها سبيكة كما قتل الصواغ خلخاله قتلا
فلما رأوها في الزجاجة سبحوا وكبر اجلالاً لها العليج او صلى
وظل يناجي شح نفسي وجودها فطوراً بها صعباً وطوراً بها سهلاً
فما زال حتى زال بالمال حكمه ولم يدخر عنها السباحة والبذلا
وجاءوا بها كالشمس يأكل نورها زجاجتها في كف شاربها اكلا
عروس جعلنا مهرها بعض ديننا فما رضيت حتى وهبنا لها الكلا
وهذا الامير الشاعر مع تقصير خمرياته عن النوااميات ، فانه لا يفوته
الابداع ، ويصور ما يرى تصوير المقتدر الحبير ، فما هو الا ان تشهد

العين فيستوي المعنى وينضج في النفس فينطق اللسان او يخط القلم ، فاذا بك ترى وصفاً دقيقاً معجباً ولفظاً مشجياً مطرباً ووزناً تستسيغه حلوق الغناء رقيقاً على اوتار العيذان ، وما يدع شيئاً من اشياء الخمر الا وصفه واوفى فيه على الغاية ، حتى قال بعض العلماء بالشعر : اول الشعراء المتقدمين في صفة الخمر الاعشى ثم الاخطل ثم ابو نواس ثم الحسين بن الضحاك ثم عبدالله بن المعتز .

وقد كاد ابن المعتز يجعل من اهتمامه بوصف الخمر ما يميل بمطالع القصائد عن ذكر الاطلال والارتحال ، وهو يفاضل بين المطالع فيروقه الابتداء بالخمر ويفضله ويشني عليه قائلاً :

احسن من وقفة على طلل ومن بكاء في إثر محتمل
كاس صبح اعطتك فضلها كف حبيب والنقل من قبل
في مجلس جالت الكؤوس به فالقوم من مائل ومنجدل
يطوف بالراح بينهم رشاً محكم في القلوب والمقل
افرغ نوراً في قشر لؤلؤة تجل عن قيمة وعن مثل
يكاد لحظ العيون حين بدا يسقيك من خده دم الحجل

ويصف السقا والندامى والدنان والكؤوس والاباريق والارطال ، وطيب الخمر ولون النبيذ ، ومبادرة الذات وابتداء السكر وميل الرأس وسورة الخمر ، ومخالفة اللوام ومدح الخمار ، وزمنه ومكان السكر وامنه ، وما احسن تشبيهه السقا بين الندامى في قوله :

بين اقداحهم حديث قصير هو سحر وما سواه كلام
وكان السقا بين الندامى ألفات بين السطور قيام *
وله في صفة السقا كلام كثير جيد منه :

تدور علينا الراح من كف شادن له لحظ عين يشتكي السقم مدنف

* يشبه اصطفاق الشرب جلوساً بالسطور التي استوت حروفها واطرافها والسقا بينهم وهم وقوف بالالفات ، وهو تشبيه جيد .

كان سلاف الخمر من ماء خـده وعنقودها من شعره الجعد يقطف
وله في ساق آخر :

اشرب عقاراً كأنها قبس قد سبك الدهر تبرها فصفا
يندى لثام الابريق من دمها كأنه راعف وما رعفا
بكف ساق حـلو شمائله يسكرني لحظ عينه صلفا
اما الابريق وفعل الخمر بالشاربين فيصفها قائلاً :

كان اباريق اللجين لديهم
وقد شربوا حتى كان رؤوسهم
ويقول في ابريق بان الخمر من فمه :

كان ابريقنا والراح في فمه
ويقول في قرقرة الابريق :

كان ابريق المـدام لديهم
لما استحشته السقا جئ لها
ويصف الكأس وقد امتلأت بالخمر قائلاً :

كان الكاس في يده عروس
ويصف الخمر والحب فيقول :

يا خليلي سقّياني فقد لا
من كميت كأنها ارض تبر
ويصف صفاءها ولطفها فيقول :

وكأس تحجب الابصار عنها
كان غمامة بيضاء بيني
وفي راحتها يقول :

فتنفس في البيت اذ مزجت
ويشبه بماء الكرم الرقيق فيقول :

كتنفس الريحان في الانف

بكيتك حتى قيل قد الف البكا
ورقت دموع العين حتى كأنها
ونحك * حتى قيل إلف حنين
دموع كروم لا دموع جفون
ويقول في مبادرة اللذات :

وبادر بأيام السرور فانها مراعى وأيام الهموم بطاء
وخلّ عتاب الحادثات لوجهها فان عتاب الحادثات غناء
تعالوا فسقوا انفسا قبل موتها ليأتي ما يأتي وهن رواء
وانت له في ايقاظ الصبح للنوم لتناول الصبوح لكلاما كثيرا أبدع
فيه واجاد ، وعدد المطالع وأساليب النداء فجاء بما لم يجيء به سابق ،
ويخيل اليك وانت تقرأ شعره في الحث على الصبوح أنه قد بات نضو
ديارات وحانات لا يفارقها ليل نهار ، ثم يكون اول من يستيقظ بها ،
أو اول ملب للساقى وكأنه لم يتم بل ظل مسهدا ، فيدعو للخمر فينشط
الصحب للمجلس وتدور العقار ، ولولاه ما استيقظ النوام ولا فقهت
الكؤوس والاباريق ، وانك لتسمعه يقول مرة :

قم يا نديمي من منامك واقعد حان الصبوح ومقلتي لم ترقد
ويقول اخرى :

يارب صاحب حانة نبيهته والليل قد كحل الودي بوقاد
ويقول ثالثة :

قم يا نديمي نصطحب بسواد قد كاد يبدو الصبح او هو باد
أو يقول :

خليلي اترك قول النصيح وقوما فامزجا راحاً بروح
فقد نشر الصباح رداء نور وهبت للندى انفاس ربح
أو يقول :

وقد يباكرني الساقى فأشربها راحا تريح من الاحزان والكرب
أو يقول :

* نحكك عدوى الفعل ، لمكانه من اللغة وتمكنه منها وذلك مباح لأمثاله.

قد حثني بالكاس اول فجره ساق علامة دينه في خصره
ويخالف اللائم في معاقرة الخمر بقوله :

خليلي طوفاً بالمدام وبادرا بقية عمري والسلام على مثلي
الا انما جسمي لروحي مطية ولا بد يوماً ان تُعري من الرحل
ايا عاذلي هلا اشتغلت بسامع كما انا مشغول بكاس عن العذل!
فاذا سكر الشرب ومالت الخمر برؤوسهم وساروا تقوست خطوط
سيرهم واضطربوا فمشوا في تكسر واعوجاج وصفهم قائلاً :
مشوا الى الراح مشي الرخ وانصرفوا والراح تمشي بهم مشي الفرازين *
ويمتدح ابن المعتز زمن السكر لانه يمر مسرعاً كالخطفة التي لا تدرك
واللمحة التي لا تحسب فيقول :

كأنا من بشاشتنا ظلمنا بيوم ليس من هذا الزمان
وكذلك يمتدح مكانه لتنزهه عن اللوم على السكر والطرب وبعده عن
تزمت الناس ، وكونه في رعاية ابليس الحريص على اللهو ان يكدر
والعبث ان يشاب ، وتلك غاية المجون ، ويقول في ذلك :
لا علم لي اين يشوي الخضر من بلد لكن ابليس في قطربل ثاوي
بحيث لا لوم في سكر ولا طرب ولا يقصر في افعاله غاوي
وابن المعتز يذكر ادب الشراب في خمرياته ، ويرى انه من أدب الشرب
ان يخلو من الاوشاب ومن سقط الحديث ، وان يكون الشرب في يقظة
للمنادمة ، فان تشاء احدهم على الشراب فلا خير فيه لشرب النبيذ ، وغير
ذلك من الآداب التي لا نرى ضرورة في بسطها اكثر مما قلنا .
وقيل ان ابن المعتز لم يهتم الا بالخمرة المطبوخة ، وقد استدلوا من
ذكره لها على انه كان حنفي المذهب ، وذلك في قصيدته التي مطلعها :
خليلي قد طاب الشراب المورّد وقد عدت بعد النسك والعود أحمد
وفيهما يقول وقد نضجت على النار :

* يريد انهم مشوا في الاقبال عليها سراعاً اقوياء وفي الادبار منها بطاء ضعفاء .

فهاث عقارا في قميص زجاجة كياقوتة في درة تتوقد
يصوغ عليها الماء شباك فضة له حلق بيض تحمل وتعقد
فظاهرها حلم وقور على الأذى وباطنها جهل يقوم ويقعد

تنسكه للخمر

كان ابن المعتز يتنقل للخمر كما رأيت في الديارات والحانات ومنازل
الاصحاب والبساتين ، او ينقلها معه في صيده وطرده ونزحه ، او تنتقل
هي اليه في داره حيث تعقد مجالس الشرب صافية خالصة من شوائب
السقط الذي هو شأن العامة في مجالسهم ، ولكن الزمن تحول وتغيرت
ناسه ورأى الامير في مجالس الخمر ومشاربها غير ما كان يرى ، وسمع
غير ما كان يسمع ، فعف عن الحانات ومجالسها والمواخير والتردد عليها ،
وتنسك للخمر فحبس نفسه ليدرسها ويعرفها عرفان لغة ونظر وجمال ،
منقطعا عن لذتها الفموية وخمارها الجماني ، كما يتنسك كل ذي عبادة
فينقطع عن الناس ليخلو الى الفكرة بروحه ليغرق فيها ويصل الى قرارها .
وكذلك انقطع ابن المعتز عن مجالس الخمر وتنسك لها فاهتدى في اثناء
تنسكه الى ان يؤلف كتابه « فصول التماثيل » .

وكيف لا يتنسك ، وقد كان للشرب آداب يسير عليها الشرب من
الحلفاء والوزراء والحكام والرؤساء والادباء والظرفاء ، وكان في ندمائهم
وجلسائهم ظرف وادب ولين وحسن تناول للاحاديث ، يجيب الى
النفوس ان تأنس بهم والى الكبراء ان يطلبوهم ويجالسوهم ويستمعوا اليهم
رغبة في صحبتهم وشوقاً الى ادبهم .

ولكن الزمن غير الناس فسقطت الحال في اخلاق الجلساء والندامى
حتى قبحت بهم النعمة وحسنت منهم الحشمة ، واصبح حديثهم كما يقول ابن المعتز
سوقيا ولفظهم عاميا ومزاجهم ثقيل غثا ولهوهم قبيحاً رثاً واصبح كل
صاحب فيمن يصاحبهم كما يقول ابن المعتز :

في فتية قد متهم قبلي وما استخلفت كفوا

امسوا جوى في القلب ية تله واحزاننا وشجوا

ولم يقف الامر عند هذا الحد من سقوط الدون ، بل ان عليه القوم اصابهم من الاسفاف ما اصاب اولئك ، ثم عمّ الناس جميعهم قدر كبير من الاضطراب وحلت بهم النقم ، ولم تعد هناك قيود ولا اخلاق ولا حواجز تحجز العامة عن الخاصة ، وتصون الاخفاء من الدهماء .

كانت هذه الحال تؤفف ابن المعتز بالخمر ومجالسها ، ولكني ما كنت اظنه يرتدع عنها ويتنفسك لها - مع كل هذا - لو لم يجبر على تركها ويقهر على البعد عن مجالسها في الحانات والمواخير ، فان الامام * نها عنها فاضطر للطاعة او ينزل به السخط والعقاب ، وفي نهى الامام له يقول :

ونهاني الامام عن سفه الكأس فردت على السقا المدام

عفتها مكرها ولذات عيش قام بيني وبينهن الامام

كل ذلك دعا الامير ان يجانب هذه المجالس ويتبعد عن اهلها لينأى بنفسه عن سقطهم وانحطاط آدابهم وليطبع الامام ، وانما بقي للخمر في نفسه مقامها ، فهل يدعها جملة أو يرتحل اليها رحلة اخرى ، رحلة فكرية نفسية لا جسمية ولا شهوانية ، ويستعين تاريخها الادبي على لذته ويأنس اليه في وحدته ؟

وهكذا ارتحل ابن المعتز الى خمرة جديدة او فكرة في الخمرة لا تجبر ندما ولا تبعث حسرة ولا تضر جسدا ، فراها في الاسلوب الرائع واللفظ الرائق والوصف الدقيق البارع ، ورأى في تمثيل الشعراء بالخمر عند الامم المبعثرة في الاقاليم والعصور ما لم يره في مجالس ندمائه وما لا يراه منها طال به العمر ، اولجّ به اختلافه الى الحانات والمواخير .

رأى في اعتكافه هذا الكروم والاعناب وفضل كل شراب وألوان كل خمر ومنابتها واوانيتها وطيبها ورديثها وصرفها ومزوجها وآدابها

* المظنون انه الخليفة المعتضد ولكني ارجح انه الخليفة المكتفي بن المعتضد .

وآثارها وحلاها وحرامها ، وتلذذ بذلك كله لذة المعتكفين والمتنسين
بالانقطاع للعبادة وقرب الوصول ، لكنه شاعر سخي جواد غير بخيل ،
فهو مجتهد دؤوب في ان ينقل الى الناس شعوره بالسرور ليسرهم ،
واحساسه بالجمال ليمتعهم ، واتساعه بالعلم ليزيد من ثقافتهم وفنونهم ، فلا
يكتفي بالقراءة ولذتها ، وانما يؤلف كتابا فيما قرأ جمعا واختيارا وتصنيفاً
وتبويباً وتعقيباً وانشاء ، يقرب فيه للناس ما ابتعد ويزيدهم بالجر معرفة
وسرورا ، وانه ليرجو ان يكسبه هذا النحو من الحياة غنى وحدا ،
ويغنيه عن الاصحاب والاحباب ، ويلج به مجالس الخاصة وابواب الخلفاء .
وانه لينزهه عن تناول الادبيات والجاهير ، فهو لاء ان تناولوا آداب
الملوك اسقطوها ، وللخاصة ادبها وللعامية ادبها ، وهو في ذلك خاضع
لنزعة المستبد المتعالي الذي يؤمن بقول القائل « لا يزال الناس بخير ما تابينوا »
فاذا تساؤروا هلكوا ، بل يقتصر على عرض الجيد من القول وينفي
الردى منه ، فكان كالمعلم العالم بأحوال النفوس لا يعرض القبيح لئلا
يتروك اثر قبيحاً ، وفي عرضه الجيد ما يوقظ اللب ويعمر القلب ويخف
على المذاكرة والمفاخرة ، وكان يرى في عناية الادباء بالكلام ودراسته
والاهتمام لروايته ما يشجعه على المضي في هذه الطريقة ، فألف في خلوته
هذه كتابه في الجر .

كتاب فصول التماثيل *

انساح ابن المعتز وراء الجر انسياح أهل النظر يبحث عن اصولها
وفروعها ، وعن فضائلها وخواصها وجيدها وردئها ، وعن اعرف الامم
بل واعدهم مذهبا في استعمالها ، وحاجة ذوي الاسنان والجواء والاعمال
اليها ، ثم اسمائها وصفاتها وآنياتها وسقاتها ، ثم صنعها مسكرة او مقتولة

* قد نشر كتابه هذا « فصول التماثيل في تبشير السرور على نفقة الرحالة المنقب محي الدين
صبري الكردي سنة ١٩٢٥ م بالقاهرة .

لا تسكر ، والفواكه والنقل عليها ، وكيف يحدث السكر وكيف يداوى ،
وآداب المنادمة والسقاية ، ورأي اهل الدين والفقهاء فيها ، ورأي الاطباء
من عاصره منهم ومن لم يعاصر ، بل رأي ابراهيم بن سيار النظام والفلاسفة
فيها ، مستدلاً في كل بحث من هذه المباحث بأقوال شعراء الخمر كالأعشى
والاخطل والحكمي ومسلم بن الوليد والبحثري وبشار ، وغير هؤلاء
من اغفال الشعراء او من غير الاغفال ما دامت اقوالهم ترتفع إلى مقامات
البلاغة المرجوة للخاصة ، ويختم كل باب بقول له لينسج على منوال السابقين
إن جاده القول :

وافضل الخمر في كتابه ما كانت من الكروم والاعناب ، وما اكل
عليها الفاكهة من رمان واترج وسفرجل وكثيرى وتقاح ، ودون ذلك
الانقال اليابسة من جوز وبندق او مشام بمسكة معبورة متخذة من عود
او صندل او كافور .

وافضل الخمر ما كان وسطاً بين الحديث والعتيق ، وما اسكر بالحيلة
والتفتير والحتل والتخدير وحسب النوم وزين الصمت ، وهكذا قرأ
جالينوس حيناً قرأ ، وافق عن حنين حين استفتاه ، وحنين يرى ان
افضل الشراب ما كان لسنته ، وافضل اللحم ما كان لوقته ، وافضل
الخبز ما كان ليومه ، وافضل الشراب أيضاً ما ابطأ بالسكر ودفعه
عن جوهر العقل .

والروم اعرف الناس بالشراب واوصفهم له واعلمهم بمنافعه واعدهم
مذهباً في استعماله ، والفرس شركاؤهم ، اما العرب فهم بين هؤلاء وهؤلاء .
وتقوى شهوة الشباب الى الخمر دون الصغار ودون الكبار . واعزف
الناس عنها الاصحاء واهل الرياضة البدنية لقلّة ما في ابدانهم من فضول .
والجور ان يبرد او اشتدت حرارته دعا اليها وحث عليها .
وليس الشراب نافعا كل انسان ، ولا الصرف منه او الممزوج لائفا
بكل الابدان ولا هو بمستحب في كل آن .

وانما اختلفت اسماء الخمر باختلاف آثارها وافعالها .

فسميت الخمر : لانها خمرت في إنائها
والشمول : لانها تشمل على العقل
والقرقف : لان شاربها يصاب برعدهتها
والعقار : لانها تعاقب الدن
والقهوة : لانها تُنقي عن الطعام وتصد عنه
والراح : لان صاحبها يراح من الغم . وهكذا يأتي على بقية الاسماء .
وآتيتهما الدنان والاباريق والكاسات والجامات والكيزان والصواني
والاقداح والارطال والقناني .

وقد رأى ابن المعتز ان يعلم الناس في كتابه كيف يصنعون النبيذ
مفيداً ، وكيف يضيفون اليه ما يسرع بالسكر او يبطيء به او ما
يبطله ، ثم تحدث عما يحدثه السكر في الاجسام وحركاتها وزيف ابصارها
واختلاف الطعوم في افواهها . ووصف السقاة حسن وجوه واعتدال
اجسام وجمال زي وسهولة خلق وانعطاف سير واطاعة عند الطلب .
وبين حقوق المنادمة وآدابها بين الكبراء ومن هم دونهم ، ثم بين النظراء ،
وأخذ القدح والمحادثة عليه والاصغاء الى الغناء ، ووجوب تأخر الساق
عن الشرب ، وحفظ النفس عما لا تقدر عليه من الشرب ومتابعته ،
وعدم التخطي الى السرف وحسن الاقتصاد ، والتهادي بالخمر بين الاصحاب .
وهو يرى الخمر عروس المجالس وتحفة النفوس وشفاء الاحزان ، تؤلف
الود وتجمع الشمل وتصدق الحس وتذكى النفس وتفرغ البال وتطيل
باع الاديب وترحب ذراعه وتزين لنفسه الكرم وتنسي الآلام .
ويرى سرور الخمر لا حده له ، فالشراب ينشئ القوة ويبسط الهوى
ويعفي من الحذر ويجور من التعب ، ويحبب المزاج والمفاكهة ، ويبغض
الاستقصاء ، ويبعد الحشمة مع الهم الثقيل .
ومع هذا كله فابن المعتز مسلم متدين متكلم حنفي المذهب ، فلا بد

له في تنسكه هذا من ان يدلي برأي مذهبه فيها ، ولا يكتفي بقول
الادباء والشعراء ، بل يورد اقوال اهل الدين الذين يقولون « ما دامت
حلاوة فهي حلال ، وحسد السكر ان يخلط في الكلام وينعقد اللسان
ويميل البدن » فعند ذلك تحرم ، ويحل للسلطان ان يضرب السكران
ويجلده . ثم يرقى الى التفلسف فيرى السكر اقبح ما يكون حين يذهب
بالعقل ، وهل من فائدة في السكر سوى الهم بفقدان الهموم ؟ قد بينت
ذلك الاحاديث وروايات الثقات عن النبي واصحابه الاجلاء .

ومها يكن من تشعب بحوث ابن المعتز في الخمر فالصفة التي تغلب
عليه انه شاعر ناقد حافظ اديب ، يستشهد في كل باب باقوال
الشعراء الجاهليين والاسلاميين والمولدين قدامائهم ومحدثيهم ، المثنى منهم
والسارق والمعقب والمفرع والناقل والمبتدع والمقتصد والمغالي .

وانه ليسأل ويحيب ويستقبح ويستحسن ويتمنى ، وينسب القول الى
قائله حين يعجز الرواة او المسئولون ، ويسوق حكمة الحكماء واقوال
الظرفاء في حبس الصوم النفوس عن المسرة بالشراب ، ولا يختار في كل
ذلك الا كل مطرب معجب ، ولا ينشد الا كل قوي النسيج ذي
روعة فتان .

المدح

لماذا مدح ؟

ليس المدح من شيمة امير حتى ولو كان شاعراً ، وان الغنى ليرفع
الرجل عن المدح ويعجزه عنه لو حاوله ، ومثل هذا اولى به ان يشتغل
بنفسه واحوالها وشهواتها كما اشتغل امرؤ القيس بنفسه ، وابن ابي ربيعة
بلهوه وغزله ، وامراء العباسية الشعراء بعبثهم ، وكما عجز الفرزدق عن المدح
لأنفته من التكسب ومكانته من الغنى والجاه ، وكذلك كان اليتى بابن المعتز

ان تصدق حياته قوله الذي يقول :

لا تشيم البروق عيني ولا اجعل الا الى العلاء اسفاري
ولكنه زال عن مكانه هذا وصار واحداً من وحدان الناس ، يصيبه ما
يصيبهم من فقر وبؤس وطرد وحرمان ، وأظن صلته لم تتوثق بالخلفاء
على الدوام ، ففي شعره ما يدل على انهم كانوا يقصونه ولا يقربونه ،
ولا يأذنون له بالدخول عليهم فيعتذر اليهم يطلب عفوهم والقربى منهم ،
ومن هؤلاء الخلفاء المعتضد مع قرب ابن المعتز منه واكثره من امتداحه ،
فقد قال يعتذر للمعتضد :

واني كالعطشان طال به الصدى اليك ولكن ما الذي انا صانع
ايذهب عمري والعوائق دونه على ما ارى ، اني الى الله راجع
وما انا في الدنيا بشيء اناله سوى ان ارى وجه الخليفة - قانع *
وهبني اريت الحاسدين تجلدا فكيف بهم ضميرته الاضالع
واني لنعماء القديمة شاكر وراء بعين النصح فيه وسامع
وما انا من ذكره امري آيس ومن دام حيا علته المطامع
واقعدني عنه انتظاري لاذنه وما قال من شيء فاني طائع
وكان المعتضد يزعه ويؤدبه وينصح له ، فأجأه مثل هذا الى ان يمدح
ويصير من شعراء المدح ويصطنع صنعتهم ، ولكنه على كل حال لم يقصد
بمدحه سوى خليفة او وزير ، ولم يقربه الى مجالس الخلفاء الا اتساع افقه
وعلمه بالرواية فقد كانت مجالس الخلفاء حافلة بالمنادمة من هذا النوع
من الادب : يذكر الخليفة بيتا فينشده فيسأل عن قائله وعلى الزديم ان
يفني ويورد الابيات التي يكون فيها هذا البيت *

* قانع خبر أنا التي في اول البيت وهو لهذا ضعيف .

* حبله الكميث صفحة ٧٩

لم يكن المدح كما قلنا من طبعه وانما حمل نفسه عليه او قسره الزمن على ان يمدح ، ليستعين بمدوحه على الدهر خشية ان يناصبه العدا ، فجاء التكلف واضحا في مدحه ، ويكاد يكون هذا الفن اضعف فنون شعره ، لا ترى فيه معاني المجتهدين ولا غوصهم عليها ولا تفننهم في ايرادها ، ولا ترى حتى مبالغاتهم المقبولة فيها ، بل تراه مقصرا عن حليتهم ، يسرد صفات الممدوح سردا مكنتيا بما ابتذل من صفات الهيئة والجود والشجاعة وما الى تلك من الصفات ، وكل هذا في الفاظ دانية قريبة لا تثير النفس - اللهم الا القليل - ويحيل إليّ ان مدائحهم لم تثر حتى نفوس الذين قصدهم بها .

ولقد يظهر في شعره جلجا فراره من التورط بذكر اسماء من يمدحهم او من يعتذر اليهم - ما عدا القليل - فتراه يذكر لفظ الخليفة والامام والوزير دون ان يصرح بالاسماء ، حتى بات القارئ ولا سيما من ابتعد عن عصره ومضى به الزمن في البعد كثيرا يمضي تعبسا ساهرا باحثا في كتب التاريخ والاخبار ليعثر على صاحب اوصافه وامداحه في الشعر الذي قاله كما لقيت انا في ذلك جهدا جهيدا .

وانه ليتغزل ، او يتغزل ثم يصف الخمر ، او يصف الخمر مبتدئا في معظم مدائحهم فلا يبقى لممدوحه سوى ابيات قليلة من قصيدة مدحه ، ثم ينتقل من بدئه هذا فجأة للمدح على عادة الجاهليين ، ولا يحتمل افكرة الانتقال ويدبر لها كما احتال شعراء عصره وتلطفوا ، ومن انتقالاته المفاجئة قوله :

ومضى يخاطر في المشى كجبار غبيد
سحرا من قبل ان ترجع ارواح الرقود
مرحبا بالملك القا دم بالجود السعيد

ومنها قوله .

رشا كساه الحسن خلعتة وجرى على خديه رونقه

اهلا وسهلا بالامام فقد جلى الدجا وانا مشرقه
ومنها :

يا هلالا تحته غصن بان اي ذنب فيك للعاشقين
يا امير المؤمنين المرجى قد اقر الله فيك العيون

وهو يكرر المعاني في مدائحه ، وتكاد قصائده هذه تتشابه في الفاظ
كثيرة كما تقاربت في المعاني ، ولعل الذين نعوا عليه تقصيره نقدوه لعدم
تبريزه في المدح تبريز ابي تمام والبحتري واضرابها فظلموه .
ولقد ظل مترفعاً ترفع الامراء ، فلم يذهب قط مذهب الغلو اذا مدح
لذلك الطبع الذي تحدثنا عنه ، ولمكانه من الممدوحين وقربه من مقاماتهم
او علو عنصره عليهم ، وكما لم نره مبالغاً لم نره كاذباً ، وما يليق به ان
يكون كالبحثري في مدح ابن الزيات وكان احد الجبابرة الذين امتلأوا
حقداً إذ يقول له :

مستريح الاحشاء من كل ضغن بارد الصدر من غليل الحقود
وما درت العباسية حشاً يحمل ضغناً او صدرأ احرقه الحقود كابن
الزيات الذي كان يقول كلما عذب احداً في التنور فاسترحمه : « الرحمة
خور في الطبيعة » .

ممدوحوه من الخلفاء

واخص من مدح من الخلفاء العباسيين الخليفة المعتمد على الله ابو
العباس او ابو جعفر احمد بن المتوكل بن المعتصم ، والمكتفي بالله ابو محمد
علي بن المعتضد ، ولكن المعتضد فاز منه بالقسط الاوفر ، اما المعتمد
فصاحب الفضل في حمل ابن المعتز وجدته من المنفى الى سامرا ، وفي
اطلاق سراحه وهو صبي ليؤدب ويُعلم كما يشتهي ، وقد قضى ابن المعتز
معظم صباه وبلغ اوطار لهوه وعيشه ومجونه في عهده ، فقد مكثت خلافة
المعتمد ثلاثاً وعشرين سنة ، واوشك ابن المعتز ان ينيف على الثلاثين .

وكان سليمان بن وهب وزير المعتمد ينصره وينصر اهل بيت المعتز على
خصوصهم فاستحق بذلك ان يُمدَح الخليفة والوزير بما فعلا من جميل ،
ومن مدحه المعتمد قوله :

يا خير من تزجى المطيَّ له وُميرَّ حَبْلَ العهد 'مُوثِّقه'
اضحى عنان الملك مقتسراً بيديك تجبسه وتطلقه
فاحكم لك الدنيا وساكنها ما طاش سهم انت موفقه

* المعتضد *

وافضت الخلافة الى المعتضد فأسكن الفتن وهدأ الهرج واصلح البلدان
وارخص الاسعار ورفع الحروب ، وسالم كل مخالف وإن كان هو مظفراً ،
فدانت له الامور وانفتح له الشرق والغرب ، فلما هبت اعاصير المخالفين
والخارجين ادبهم وعاقبهم وأدبل له ، وكان يقال : لبني العباس فاتحة
وراسطة وخاتمة فالفاتحة السفاح والواسطة المأمون والخاتمة المعتضد .

والحق ان خلافة المعتضد حفلت بالحوادث الجسام ، وما من حادثة
في شأن المعتضد الا وقد سجلها ابن المعتز في شعره من اول يوم الى
آخره ، فقد هنأه وهنأ الملك به اول ما وليَ الخلافة ، وكان بما قاله :

اما ترى ملك بني هاشم عاد عزيزاً بعد ما ذللا
يا طالباً للملك كن مثله تستوجب الملك والا فلا

ولما مرض المعتضد بعلته موته قال ابن المعتز يخاطبه :

طار قلبي بجناح الوجيب جزعاً من حادثات الخطوب
وحذارا ان يشاك بسوء اسد الملك وسيف الحروب

وحق الدم كان يسيل من ذراع المعتضد في الفصد فينشد فيه شعراً *
فلما مات المعتضد رثاه بقصيدته الالينية التي اكثر فيها من قوله « أين »

* اقرأ صفة الخليفة المعتضد في كتاب « يوم وليلة » صفحة ٢٥ وما بعدها
طبعة بيروت للمؤلف .

* انظر هذا الشعر في صفحة ٤٠ من كتاب يوم وليلة للمؤلف .

وقد استحسننا ان نذكر شيئاً منها في هذا الباب لانها شبيهة به ، ولن
نفرد لمراثيه باباً خاصاً لأنها من القلة بمكان لا يُلفت اليه . قال فيها :
يا ساكن القبر في غبراء مظلمة بالطاهرية * مُقنصى الدار منفردا
ابن الجيوش التي قد كنت تسحبها ابن الكنوز التي لم تحصها عددا
ابن السرير الذي قد كنت تملؤه مهابة من رآته عينه ارتعدا
ابن الاعادي الالى ذلت مُصعبهم ابن الليوث التي صيرتها بددا
ابن الجياد التي جعلتها بدم وكن يحملن منك الضيغم الاسدا
ابن الرماح التي غذيتها مهجا مذ مُت ما وردت قلبا ولا كبدا
ابن الجنات التي تجري جداولها وتستجيب اليها الطائر الفردا
ابن الوصائف كالغزلان رائحة يسجن من حلال موشية جددا
ابن الوثوب الى الاعداء مبتغيا صلاح ملك بني العباس اذ فسدا
ما زلت تقسر منهم كل قسورة وتخطب العالي الجبار معتمدا
ثم انقضيت فلا عين ولا اثر حتى كأنك يوماً لم تكن احدا
وهذه اطول مرثية رأيتها له ، وهي كما ترى خامدة النفس خالية من
الابتكار ليس فيها من نغم الحزن ما كان جديراً بشاعر على المعتضد ومن
اهله القريبين اليه ، ولكن ابن المعتز فاتر في الرثاء كما هو فاتر في المدح
لخالفه ذلك الفن لطبعه وما جبل عليه ، وربما كان له في بعض الاحيان
رثاء مدوّ شديد الاسر ولكنه لا يطول كقوله :

قد ذهب الناس ومات الكمال وصاح صرف الدهر ابن الرجال
هذا ابو العباس في نعشه قوموا انظروا كيف تسير الجبال

ارجوزته في المعتضد

واشمل ما قال ابن المعتز في المعتضد تلك الارجوزة الشهيرة التي ارخ
فيها لاعمال المعتضد واصلاحاته وانشاءاته ، وقالها بعد موت المعتضد واولها:
* الطاهرية دار محمد بن عبدالله بن طاهر في الجانب الغربي من بغداد او قرية من قرى بغداد
لعلمها منسوبة لطاهر بن الحسين .

باسم الاله الملك الرحمن ذي العز والقدرة والسلطان
والحمد لله على آلائه أحده والحمد من نعمائه
أبدع خلقاً لم يكن فكأننا وأظهر الحجة والبياننا
وجعل الخاتم للنبوة احمد ذا الشفاعة المرجوة
الصادق المذهب المطهر صلى عليه ربنا فأكثرنا
مضى وأبقى لبني العباس ميراث ملك ثابت الاساس

وكذلك يقتضب المقدمة وينتقل من النبي لبني العباس لانهم مقصده ، ثم
ينتقل بعد بيت واحد الى ذكر المعتضد فهو بيت القصيد فيقول :

هذا كتاب سيرة الامام مهذباً من جوهر الكلام

ويمضي فيها يقص ما اصاب الملك العباسي قبله من نهب وضياع وخلع
وتخويف وقتل وانتهاك حرّم ، ويخص العسكر من الترك وغيرهم بالذم
لظفائهم ومطامعهم وادعائهم الحقوق بطلاً وزوراً ، ذاكراً اسماء محلاتهم
التي خربوها في ثوراتهم كالكرخ والتل والجوسق والقطائع ، ثم يمضي
فيذم العاصي بمصر من بني طولون والخارجية بالنواحي والاطراف ، ويذم
الرافضة والزنج والصفارية والشرارة والاكراد ويهجو القرامطة وينعى عليهم
ادعائهم وجميعتهم وجبنهم ، وفي اثناء ذلك يذكر فتك المعتضد بهؤلاء
الشائرين ، ويذكر خضوع مصر والبلاد له وكبسه اللصوص وتأمين العباد
في البلاد والبر والبحر والعامر والخلاء والآهل والصحراء .

وقد كسر المعتضد حقاً عمرو بن الليث الصفار على يد اسماعيل بن
احمد الساماني ثم حبسه في مطبوعة تحت الارض كما كان يفعل بالعصاة ،
ولما ظهر القرامطة في عهده وانتشر امرهم بسواد الكوفة وقتلوا الحبيج
واقتلعوا الحجر الاسود واغاروا على البصرة ارسل اليهم عسكره فظفروا
بابن ابي الفوارس رئيس القرامطة وبجاعة معه وعذبوا بانواع العذاب ، ثم
صلبوا واحرقوا .

وفي عهده كذلك واقع صالح بن مدرك رئيس عرب طي الحاج العراقي

فقتل وقتل معه اعيان طبي .

وفي عهده خضعت مصر ودفعت الحراج ، وقدم اليه جماعة من قواد مصر
يقدمون الولاء ، ثم عقدت لهرون بن خمارويه الولاية عليها .

وكان اسماعيل بن بلبل امرف في بيوت الاموال والنفقات والجوائز
والخلع ، وامد العرب واجزل لهم العطاء ، واصطنع بني شيبان من العرب
ومن غيرهم زاعماً انه من بني شيبان ، وظلم الناس فطالبهم بخراج سنة
مبهمة ، فثقل على الرعية وكثر الداعي عليه وثار به الناس وانتهبوا داره
حتى اضحت خلاء . فلما آل الامر الى المعتضد قيده وحبسه وامر بضرب
جميع الآنية التي كانت في خزانته (اي سكها نقودا) فضربت وفرقت
في الجند . واسماعيل هذا يذكره ابن المعتز في الارجوزة فيقول :

واثبت الاعراب في الديوان	وقال اني من بني شيبان
مضطرب الآراء والاحوال	والزي والالفاظ والافعال
يستعمل الغريب في خطابه	وغامضات النحو في كتابه
ويزجر الناس اذا تكلمها	مفخماً مجهوراً مغلصها

وكما يذكر ابن المعتز كل هذا في ارجوزته التعليمية التاريخية يذم رؤساء
الفتن ويجادل مذاهبهم ويخاصمهم فيها بالحجة والدليل ، ويخص الكوفة بالذم
لكثرة اديانها واقتراق ائمتها وانتشار الكفر بين ارجائها ، ويذكر سوءاتها
القديمة والجديدة فما قاله فيها :

واستمع الآن حديث الكوفة	مدينة بغيها معروفه
كثيرة الاديان والائمة	وهما تشتيت امر الامه
مصنوعة بكفر بختنصر	وكفر غرود امام الكفر
وعشش الشر بها وفرخا	ثم بنى بارضها ورسخا
وغرق العالم من تنورها	جزاء شر كان من شرورها

ويقول في القرامطة اصحاب الرجعة :

والقرمطيون ذوو الآجام
صغفوا فقد باءوا مع الآثام

وشرعوا شرائع الفساد
كانوا يقولون اذا قتلنا
من بعد ايام الى اهلينا
فقبح الرحمن هذا الديننا
ويجادل الرافضة مسقطا مذهبهم الذي يقول ان جبريل اخطأ في اداء
الرسالة فابلقها محمدا وكانت لعلي قتيلا :

والمسلمون منهم براء
فبعضهم قد جحد الرسولا
وبعضهم قالوا علي ربنا
ورافضة ودينهم هباء
وغلطوا في فعله جبريلا
وحسبنا ذلك ديننا حسبنا
وهكذا يخاطب المذاهب واهلها ، ويهجو كل من نهج منهج الفلاسفة
والزنادقة فمدح افلاطون ، أولاك في فمه السعود والنحوس والجوهر والعرض
والنجوم ، او طعن في الفقه والحديث او انكر البعث . ومن قوله في
ذلك عند الكلام على اسماعيل بن بلبل واصحابه يذمهم :

ومدح افلاطون والفلاسفة وساعدته في هواه طائفة
وذكر السعود والنحوسا والجوهر المعقول والمحسوسا
والعرض الظاهر في التجسيم والقول في مطالع النجوم
واستقلوا من قام للصلاة فكيف من طوّل في القراءة
وطعنوا في الفقه والحديث وعجبوا من ميت مبعوث
وقد كانت السياسة نزعت الى تأييد مذاهب اهل السنة من عهد الخليفة
المتوكل ، وكان بطله ابو الحسن الاشعري ٢٦٠ - ٣٢٤ هـ يثير الجدل ويرد
على المعتزلة بمثل ادلتهم ويوسع علم الكلام وينظمه ويضع قواعده .
ويمدح ابن المعتز المعتضد لما بنى وشيد وحفر وغرس من قصر الرباب
والنهر والبستان والشجرة العظيمة ذات الغصون والثمار ، والبحيرة والقبة
العالية ، محتجا بأن هذا البناء والغرس والتشييد يظهر قوة الاسلام ويعلي
شوكته ، ومن قوله في ذلك :

وبالزبيدات ولن ننساها
قرة عين كل من رآها

بنية فيها جنان الخلد لكل ذي زهد وغير زهد
ربيع بها عدوها وذعرًا وملأت عينيه لما نظرا
كانت على ساكنها دليلا جليلة قد وصفت جليلا
ومذكرات جنان الخلد لطيفة ما ان لها من ند
ومظاهرات قوة الاسلام على اعاديه من الانام
تخبر عن عز وعن تمكين وحكمة مقرونة بالدين

ويمدح فيها الخليفة لرايه وشجاعته وحسن سياسته وتدييره وجهاده ،
ويمدحه لتأمين ذوي العهود وغفران الذنوب ، ويذكر فيها ظلم الحكام
قبل المعتضد وعدوانهم وأكلهم الرشوة واموال الناس وضياهم ولا سيما
التجار ، وقتلهم الاكابر ، وافاعيلهم بهم في الحبوس والقيود .
ويذكر ان الناس شكوا الى المعتضد امورهم فأصلحها ورفق بالرعية ،
ومن ذلك الرفق انه غير موعده النيروز العجمي وسماه النيروز المعتضدي ،
ومنع الناس من اشعال النار وصب الماء على الناس كما كانوا اعتادوا ذلك *
وكذلك يذكر تأخير الخراج وتأجيله بامر الخليفة حتى ييسر الناس ،
ثم يذكر فضل المعتضد ووزيره القاسم وقضاته العدول ، ويذكر غيره
المعتضد وحرصه على دينه .

وكذلك تجمع هذه الارجوزة الطويلة ما قبل عهد المعتضد ثم عهده ،
وتنشره واضحا محكما ولا تكاد ارجوزة في الشعر العربي او قصيدة
— فيما عدا ما حاوله شوقي في عصرنا من التأريخ لدول الاسلام الاولى —
تؤرخ لخليفة هذا التأريخ المفصل لسيrote سوى هذه الارجوزة .

وقد ساعده على اطالة نفسه فيها انه غير القافية في كل بيت وضمن
فلم يدع كل بيت مستقلا ، وساق العلل والدعاوى للحوادث ، فاستطاع

* كان ذلك في النيروز وهو عيد فارسي قديم مدته عندهم ستة ايام كان يقضي
فيه الاكاسرة حوائج الناس في الخمسة الاولى ثم ينتقلون الى مجالس انهم وخواصهم ،
وفيه كلام طويل وصفه ابن المقفع ، وكانت عادة عوام الفرس فيه رفع النار في لياته
ورش الماء في صبيحته . انظر صفحة ١٨٦ الجزء الاول من نهاية الارب .

ان يبلغ بها نحواً من اربعمائة وعشرين بيتاً من بحر الرجز من غير
تكلف ولا ضعف ولا قلق ، وقد وقعت بها محسنات بديعية ولكنها
واتته طبعاً وارتجالاً .

وقد امتازت الارجوزة - فيما عدا ذلك - بكثرة الآراء السديدة
والحكم المنشورة في انحاءها في مقطوعات او ابيات كاملة او في نصف
ابيات كقوله :

ومن اطاع رغبة او رهبة اكثر من قوم اطاعوا حسبه
لا سيما ان طال عمر الامه ونظرت سلامة ونعمه
واختلفت واحدت احداثاً والثبات امر دينها التباث
فما لذاك الداء من دواء الامتزاج الخوف بالرجاء
او قوله :

والحي منقاد الى الفناء والرزق لا بد الى انتهاء
او قوله : ولا تكونوا خطباً للنار فرب اشرار من الاخيار
او قوله :

وَمَنْ يَفُوتَ قَدْرًا إِذَا اقْتَرَبَ ؟
ومتاز الارجوزة كذلك بدقة التأريخ لبعض الحوادث وتسجيل الأرقام
كما في قوله يؤرخ لدخول عمرو بن الليث الصفار بغداد مكبلاً مغلولاً :
وأدخل الصفار شر مُدْخَل يئن من عض حديد مثقل
بغدادَ فوق جمل محمولاً أول يوم من جمادى الاولى
ويؤرخ لموت المعتضد قائلاً :
ثم انقضى أمر الامام المعتضد وكل عمر فالى يوم نقد
ومات بعد مائتين قد خلت في عام تسع وثمانين مضت
وقد استطاع ابن المعتز أن يضع الصلة بين الادب والتاريخ في
ارجوزته هذه ويصور الحوادث تصويراً مؤثراً ، وبذلك أكبره عصرنا
من هذه الناحية ، لأن عصرنا قد عني أكثر من كل العصور التي سبقته

بالصلات التي تربط الادب بالتاريخ .
ولم تخل الارجوزة من الفكاهة اللاذعة كقوله في هرون الشاري :
أكل خلق الله للعصائد ومضغه للحم والثرائد
يشرب جباً ويعرّي مائه وهي عليه في العشي عائده
ولست أدري لم لم يذكر ابن المعتز زواج المعتضد بقطر الندى بنت
خمارويه في أرجوزته ، بل لم يذكرها في شعره ونثره قاطبة ؟

المكتفي

والمكتفي آخر الخلفاء الذين مدحهم ابن المعتز ، مدحه بجوده وفصاحته
على المناير واغاثة اللاجئين اليه بعد أن كان بابه قد سدّ في وجوههم ،
ثم هجّو خصومه .

وكان المكتفي اديبا ظريفاً عالماً شاعراً راوياً صادق الحكم في نقد
الادب ، وأول ما ولي الحكم هدم المطامير التي اتخذها ابوه ، وصيّرها
مساجد ، وأمر برد البساتين والخوانيت التي أخذها أبوه الى أهلها ،
وكان يفرق الاموال في الناس ويتشدد في ضبط اللصوص ، وسار
سيرة جميلة فمالت اليه قلوب الرعية وأحبه الناس ودعوا له ، ولكنه عاد
فانتكس واغتصب ضياعاً كثيرة ومزارع بغير ثمن من ملاكها ، مدحه
ابن المعتز بكل تلك الخصال والفعال الطيبة فكان بما مدحه به قوله :

بالمكتفي كفي الانام همومهم وغدا عليهم طالع مسعود
جاءوك يحشرهم إليك محبة طوعا وسيفك عنهم مغمود
ولطالما ظمئت اليك نفوسهم وطريق بابك عنهم مسدود
وبما قال يمدحه بعد عودته من الرقة بعد القبض على القرمطي قوله :

مرحبا بالملك القا دم بالجـد السعيد
يا مذل البغي يا قا تل حيات الحقود
عش ودم في ظل عش خالد باق جديد

فلقد أصبح أعدا وُك كالزراع الحصيد
ولقد صاروا حديثا مثل عاد وثمود
جاءهم بحر حديد تحت اطلال بنود
فيه عقبات خيول فوقها اسد جنود
وردوا الحرب فمدوا كل خطيٍّ مديد
وحسام شره الحدَّ الى قطع الوريد
ما لهذا الفتح يا خير امام من نديد
فاحمد الله فإن الـ حمد مفتاح المزيد

ومدحه للمكتفي كما ترى ليس فيه من طريف ولا من بديع .

بنو وهب

اما الوزراء الذين فازوا بمداخه فهم بنو وهب ، وأصل هؤلاء الوزراء نصارى اسلموا من قرية من اعمال واسط ، ثم أعرقوا في الكتابة فانجبوا ، ولسنا نستبعد ذلك فقد سنها من قبلهم البرامكة والفضل بن الربيع ، ظهرت نجابته ليحيى بن خالد البرمكي فقال له : أنسلم اجد السبيل الى اصطناعك فاسلم على يد المأمون فكان ذا الرياستين * ثم استوزر المعتصم الفضل بن مروان بن ما سرخس وكان نصرانيا .

ومنذ عزل المعتمد الحسن بن مخلد واستوزر سليمان بن وهب اخا الحسن ابن وهب ودولة بني وهب في صعود ، وكان سليمان هذا احد كتاب الدنيا ورؤسائها فضلا وادباً ، وأحد عقلاء العالم وذوي الرأي منهم ، كتب للمأمون وهو ابن اربع عشرة سنة ، وكان عالماً حسن الجواب صحيح التمثل بالشعر ، وكان ناقدًا بصيراً بوجوه الكلام رقيق الشعور ، قال احمد بن اسماعيل :

ماتت ام سليمان بن وهب فجاءه ابو ايوب بن اخت ابي الوزير فعزاه ،

* زهر الآداب ص ١٤ الجزء الثاني .

وقال لابد من ان تسمع مرثيتي لها رحمها الله تعالى ! قال : هات اعزك
الله ! فأنشده :

لأم سليم نعمة مستفادة علينا كسل المرهفات البواتر
عراني هم أخذ بالحناجر لأم سليم من كرام العناصر
وكنت سراج البيت يا أم سالم فصار سراج البيت وسط المقابر
فجزاه خيراً وانصرف ، فاقبل سليمان بن وهب على الناس فقال :
ما امتحن احد بمثل محنتي ، ماقت امي وهي اعز الناس علي ورثت بمثل
هذا الشعر وكنيت بكنتين لانعرف واحدة منهما ، وجعلت انا مرة
سلياً مصغراً ومرة سالماً ، وترك اسمي الذي سماني به ابوي ، فمن محن
بمثل محنتي !

ثم وزر ابنه عبيد الله للمعتضد والمعتضد ، وكان عبيد الله من كبار
الوزراء ومشايخ الكتاب بارعاً في صناعته حاذقاً ماهراً ليلاً جليلاً ،
ثم وزر القاسم بن عبيد الله للمعتضد ، واسمه اكثر اسماء بني وهب لمعناً ،
وكان من دهاء العالم ومن افاضل الوزراء شهياً فاضلاً ليلاً محصلاً كريماً
مهيئاً جباراً ، ثم وزر بعد المعتضد للمكتفي فجعل امره وعظم شأنه :
قبيل صلى المكتفي بالناس يوم النحر ، وكان بين يديه ألوية الملوك ،
وترجل الملوك والامراء بين يديه ما خلا وزيره القاسم فانه ركب وسار
دون الناس ، ولم ير قبله خليفة يسايره وزيره غيره ، وقد زوج
المكتفي ولده ابا احمد من ابنة وزيره القاسم بصداق قدره مائة الف
دينار وخلع على القاسم اربعمائة خلعة .

هؤلاء هم بنو وهب الذين كانوا رؤساء الدنيا وحذاقها وفضلاءها
وكرمائها ، وكانت دولتهم ناضرة وایامهم مشرقة ، والادب في زمانهم
قائم المواسم والكرم واضح المعالم ، وقد ربطتهم حبال الادب والسياسة
بابن المعتز وقربته منهم فقربوه وساعدوه احتساباً لا رغبة ولا رهبة ،
واقصصوا من قتلة ابيه المعتز بالله ، لاله ، وانما للدولة ليهبوا المعتدين على

مقام الخلافة العباسية ، فتقدم اليهم الامير الشاعر مادحاً ومهنئاً وراجياً
ومتعنياً وشاكراً ، واقواله فيهم كثيرة يمدحهم مجتمعين ومنفردين ، فمن
مدحه جماعتهم قوله :

لآل سليمان بن وهب صنائع لديّ ومعروف اليّ تقدما
هم ذلّوا لي الدهر بعد شماسه وهم غسلوا من ثوب والدي الدما
وقوله :

كم صنيع شكرته لبني وه ب بدا لي وما اهتديت اليه
وعدو يريد قتلي ولكن يد صنع منهم ترد يديه
ومن مدحه افرادهم مدحه عبيد الله في قوله :
عليم باعقاب الامور كأنه بمختلسات الظنّ يسمع او يرى
اذا اخذ القرطاس خلت يمينه يفتح نوراً او ينظم جوهراً
ومن قوله يعني المكفي بوزيره القاسم لما عمل على مبايعته بالخلافة من
ابيه المعتضد :

هنتك امير المؤمنين خلافة اتتك على طير السعادة واليمن
ولما اقرت في يدك عنانها نشرت على الدنيا جناحاً من الامن
لقد زفها في حليها رأي قاسم الى ملك كالبدر مقتبل السن
ولم يظلم الحق الذي هو اهله وانفذ حكم الله في والد وابن
وقال الصولي : لما عرض القاسم بن عبيد الله ليخلف اياه قال ابن
المعتز في قلم القاسم :

قلم ما أراه ام فلك يحري بما شاء قاسم ويسير
خاشع في يديه يلثم قرطاً سا كما قبّل البساط شكور
ولطيف المعنى جليل نحيف وكبير الافعال وهو صغير
كم منايا وكم عطايا وكم حة ف وعيش تضم تلك السطور
نقشت بالدجى نهراً فما ادري أخط فيهن ام تصوير
هكذا من ابوه مثل عبيد الله ينمى الى العلا ويصير

عظمت منة الاله عليه فراك الوزير وهو وزير
واغلب الظن ان قاسماً هذا صار عليه جواداً فلم يشح قط ، وفي ذلك
يقول ابن المعتز :

وقد حكت الامطار نائل قاسم ويا ربما شحت وليس له شح
وقد كان هذا حال ابن المعتز مع بني وهب لانه ما كاد يدنو من
العاشرة حتى رآهم وزراء الدولة ، ثم اقتربت حياته بحياة دولتهم وانقضت
بانقضاء ايامهم ، فعرفوه منذ كان صبياً وردوا عنه العدوان ومدوا له يد
المساعدة ، فاستحقوا ان ينزل الامير لهم عن كبريائه صادقاً مخلصاً ، وان
يعطر الدنيا بذكرهم والثناء عليهم .

بعض ممدوحيه

وقد مدح غير اولئك ابا الحسن علي بن محمد بن الفرات وزير المقتدر
في اول ولاية المقتدر ، وقبل الخلاف الذي كان بينهما .

كما مدح ابا احمد بن المتوكل الملقب بالناصر او الموفق ، وكانت حاله
قد راجت في أيام المعتمد الى غاية لم يبلغها خليفة . وشعر ابن المعتز
فيه من أجزل الشعر واقواه ، ومنه قوله :

البك امتطينا العيس تنفخ في البرى وللصبح طرف بالظلام كحيل
صدين من التهجير حتى كأنها سيوف جلاها الصقل وهي فحول
ومن القصيدة ذاتها في السيف :

وُجِرْد من اغماره كل مرهف اذا ما نضته الكف كاد يسيل
جرى فوق متنيه الفرند كأنما تنفس فيه القين وهو صقيل
ومنها :

سريع الى الاعداء اما ذبابه ففاض وأما وجهه فجميل
ويقرى السؤال العذر من بعد ماله ويستصغر المعروف حين ينيل
وكان ايضا قد مدح عبيد الله بن عبد الله بن طاهر .

هذا ، ومهما يكن فجملة شعره في المدح ليست بذات بال ، ما عدا
ارجوزته في المعتضد من ناحيتها الادبية والتاريخية كما قدمنا .

الهجاء والسخرية

لم يبلغ ابن المعتز مبلغ ابن الرومي في الهجاء والذم ، فقد انفرد ابن
الرومي بملكة السخرية والغلو في جدّها ومرارتها ، وانفرد بلاذع الهجاء
ومره انفرد ابن المعتز بالتشبيهات لطبيعتها المختلفين والمواعين البيئية
واختلاف البيئتين ، وقليل ما اذعن ابن المعتز في هجاء او جاء به نابيا
مكشوفاً .

وأدق هجائه كان لأصحاب المذاهب التي يبغضها ، ذلك الهجاء الذي
اصله التعصب للأهل او للمذهب الديني او للفريق السياسي ، وقد ضربنا له
الأمثلة في أرجوزة المعتضد ولكننا نتكلم هنا عن صنف آخر له من الهجاء قد
امتلا سخرية ومجوناً ، كهجائه للمغنين والقيان ، ومن هجائه لقينة زامرة :

كأيدكم دهركم بزامرة تحدث غما في كل سراء
اربطوا شديقها اذا نفخت فذاك أولى بها من الناء
وقال في قينة :

غناؤها يصلح للتوبه وريقها من زبد الحوبه
فعبجوا بالشرب قد أمسكت من قبل ان تلحقها النوبه

أما بدعة المغنية فكانما له عندها ثار ، فهو يهجوها ويكرر هجاءها ، وكانت
ذات منظر قبيح ، كانت نحيفة خفيفة الشعر صغيرة الرأس ، ومن قوله فيها :

حدّثونا عن بدعة فأبيننا فتغنت فظن في البيت بوق
واذا شوكة تقصف يُيساً فوقها رأس فأرة مخلوق

ولعل أفحش هجاء له قوله في مغنية اسمها دبسية :

ودبسية بالاسم لكن صوتها كصوت حمار قطع النهق مفحماً
يلامس منها الكف عيدان مصخب كنباش ناووس يقلب أعظماً

وعابدة لكن تصلي على القفا وتدعو برجليها اذا الليل أظلم
ويجوز المرأة التي تخلف الوعد والمتصاية والمرخصة نفسها ، فيقول في
المتصاية :

عجوز تصابي وهي بكر بزعمها ومن الف عام قد وجى خدها الواجي
ويقول فيها ايضاً :

عجوز كانت الشيب تحت قناعها على الرأس والاكتاف قطن منقش
خبينة ريح الريق تحسب هدهداً يبيض بفيها ثاوياً ويعشش
ويجوز الزائر الثقيل فيقول :

وزائر زارني ثقيلاً ينصر همي على سروري

أوجع للقلب من غريم ظل ملحاً على فقير

وكان من عاداتهم قيام الاسواق للتجارة في الثلاثاء ، فتحلى الاسواق
بالضوضاء والزحام فتخلى الكتائب في هذا اليوم ، وابن المعتز لا يحب
الضوضاء فاجتمع في مجلس ذات مرة في الثلاثاء وقامت به ضجة وضوضاء فقال :
بالله يا بن عليّ فضّ جمهم وأعف نفسك من غيظ وضوضاء
تجملون الثلاثاء لاجتماعكم ان الكتائب تخلو في الثلاثاء
وزار حماماً متسخاً مرة فوجد أكثر المستحمين به صلماً وقد أطالوا
المكوث فقال :

يا مُدخل الصلح حماماً يزيدهم بطول مكثهم في جوفه وسخا

حتى اذا عرقوا من حره شرعوا وكلهم بخلاف منه قد لظخا

وقد هجا بعض معارفه وجلسائه من لم تربطهم به أواصر الصداقة
الحالصة ، ولم يرض هو بصداقتهم اما ترفماً واما استقلاً .

فهجا من هؤلاء علي بن منصور بن بسام والقاسم بن محمد النميري *
وامره مع ابن المعتز مشهور ** ومن قوله في ابن بسام :

* انظر صفحة ٣٧ من كتاب يوم وليلة للمؤلف .

صفحة ١٤١ الجزء الثاني من نهاية الارب طبعة دار الكتب المصرية .

من شاء يهجو علياً فشعره قد كفاه
لو انه لا يبيسه ما كان يهجو اياه
وهو هجاء لاذع لما يشم فيه من هجاء امّ علي بن بسام في البيت
الثاني . ومن هجائه للنميري قوله وقد صلى بهم صلاة خفيفة جداً ثم دعا
بعد انقضاء صلاته وسجد سجدة طويلة جداً حتى استثقله جميع من حضر
بسببها :

صلاتك بين الوري نقرة كما اختلس الجرعة الوالغ
وتسجد من بعدها سجدة كما ختم المزود الفارغ
ثم قال يصفها مرة اخرى :
اخف من لا شيء في سجدة
ثم قال فيها :

لنا امام ثقیل خفيف روح الصلاة
يظل يركض فيها نقرأ بغير قراءة
كراكب وتراه مستعجل بـبزة

وقال في خصومته للنميري :

جفاني النميري فيمن جفا
ويزعم اني له حافظ
وما لي منه سوى الاعتذا
وما جمع الله حب امرى
باي سلاح تلاقي العدو
اما المعجب الرائع من فنه هذا
يسخر من بخيل :

يا بخيلا ليس يدري ما الكرم
حدثوني عنه في العيد بما
حرّم اللؤم على فيه نعم
سرّني من لفظه فيما حكم

*** الضمير في سائرہ للنميري .

قال لا قرّبتُ الا بدمي ذاك خير من اضاحي الغنم
فاستخار الله في عزيمته ثم ضحى بقفاه واحتجم
وقوله لاحمد بن موسى بُغا

يا ذا الذي تحب الحائظه عنه بتخليط وتشويش
انت أمير مله جنده وانت خر كوش بلا كوش
ولا تحسب انها الفاظ لا معنى لها ولكنها قبيحة الهجو ، وهذا
ما يريد ابن المعتز وهو نوع من المجون الذي فرع فيه وتفنن واجاد .
وما الطف ذمه لبستانه الذي لا ينبت فيه البذر ولا يثمر فيه
الشجر ، قال يرتجز :

لله ما ضيعته من الشجر اطفال غرس ترتجي وتنتظر
ومعجبات من بقول وزهر مصفرة قد هرمت على صغر
في بقعة لا سقيت صوب المطر حالقة لنبتها حلق الشعر
ضميرها نار وان لم تستعر كم اكلت غبراؤها من الحضر
كل امرئ علمته من البشر بستانه أنثى وبستاني ذكر
وقال ايضا في داره وبستانه وقد اطبق عليها المطر من فوقها وفيضان
دجلة من تحتها :

أتني دجلة لم أدعها فما يصنع البحر ما تصنع
طفيلية لم تكن في الحسا ب تأكل داري ولا تشبع
فكم من جدار لنا مائل وآخر يسجد او يركع
ويطرنا السقف من فوقنا ومن تحتنا أعين تنبع
واصبح بستاننا جوبة يسبح في مائها الضفدع

الحكمة والشكوى

قيم الناس

إذا كنت ذا ثروة من غنى فأنت المسود في العالم

وحسبك من نسب صورة^١ تخبر انك من آدم

هذا قول ابن المعتز وهذا رأيه في عصره الذي يعيش فيه ، ولكنه
ايضاً رأى حكماء عصره ، ولا اخشى ان اقول انه رأى الناس جميعاً
منذ عرف الناس المال ومنذ صار التعارف على قضاء الحاجات ، وسيظل
كذلك ابداً . ومن قبل ابن المعتز قال ابن قتيبة : « فاني رأيت اهل
زماننا هذا عن سبيل الادب فاكبين ومن اسمه متطيرين ولأهله كارهين ،
اما الناشئ منهم فراغب عن التعليم ، والشادي تارك للازدياد ، والمتأدب في عنفوان
الشباب ناس او متناس ليدخل في جملة المجدودين ويخرج عن جملة المحدثين . »
فالسيادة كانت لاهل اليسار والنضار ، وكان ابن المعتز يحس نفسه تصغر
في عينه كلما رأى ذلك التسويد والتمجيد فيتهم ويندب حظه
ويكبر خطبه ، وقد كان من اهل السياسة فزالت عن بيته السياسة ،
وكان من الاغنياء فصودرت كل بقية من مال اهله ، واخص ما صودر
اموال صبيحة جدته وهي من هي في الغنى والثروة ووفرة الجواهر
واليواقيت ، ومهما جاءه من جود الخلفاء والوزراء فما هو الا وشل قليل
ينضب في ليلة يجتمع فيها عليه الندماء او تمتد اليه فيها يد الاصحاب
والطلاب . ومع هذا الفقر فان امره لا يستقر على حال من القلق بل
كل يوم يمضي يسلمه الى غدٍ أسوأ ، وليس ذلك في المال فحسب وانما في
العافية والعاطفة والاهل والصحب والآمال .

ومن الحق ان هذا حال الامراء جميعاً في عصره ، ولكن احساس ابن
المعتز به صيرره كله كأنه حاله وحده لا يشركه فيه انسان ، وذلك
لانه يتكلم ويبكي ويصور فيقول :

عجباً للزمان من حالته وبلاء دفعت منه اليه

رب يوم بكيت فيه فلما صرت في غيره بكيت عليه *

* تنازع هذا البيت لشهرته من رواه لابن العتاهية ومن رواه لابن المعتز ومن
رواه لغيرهما .

ويظهر ان ابن المعتز كان مغتورا بالناس يظن فيهم الخير ، فلما خطا في السن والتجارب عرف حقائقهم من جديد فرأى الكبار من اهله يقصونه والصغار يخافون مودته ، واهل المودة من الاصدقاء لا يبقون عليها ، والغرباء يثدنون المروءة ، ورأى الدنيا كلها تكتئب فلم تبق الدور على الهيئة التي كان ينزلها ولا المجالس على البشر الذي كان يعهده ، ثم ماتت جدته فمات بها كثير من الاوفياء ولم يبق من الناس إلا الذئاب الجياع . وهذا كله واكثر منه كان وابن المعتز يبتسم للدنيا مغرورا فلم يكن يراه ، فلما تفتحت عينه عليه بدا في عينيه ضحا يسد الافاق ويقطع الانفاس ويجرمه الآمال .

ولا يخطر بالبال ان ابن المعتز تقدم كثيرا في السن حين ادرك ذلك ، بل ادركه وهو صبي منذ نفي الى مكة مع جدته صبيحة بأمر صالح بن وصيف مقدم الترك ، ومنذ حبس مرة ومرتين عند كل تولية جديدة مخافة ان يتحول الامر اليه . هذه حوادث تخللت ايامه فكانت ايامه مختلطة لا تستطيع ان تفرد منها قسما بسرور وآخر بأحزان ولكنها كانت ملفوفة بها معاً لفا محكما . ولهذا نراه ينطق بالحكمة منذ كان صبيا ، ويفطن لما يدور حوله من حوادث الزمان فيكتم منها ما لا قدوة له على اظهاره ويبيدي ما يستطيع .

مشييه

لم تشيبه السن ، وانما شيبته الهموم في قوله :

شَيَّبَتْنِي وَمَا تَشَيَّبَنِي السَّنْ هُمُومٌ تَتْرَى وَدَهْرٌ مَرِيدٌ

وقد ادركه الشيب في الصبا وعاجله قبل الثلاثين حيث يقول :

ومشي الشيب قبل عقد الثلاثين فلما انتهى اليها أغدا

وقد كاد يغفل امره اغترارا بصباه ، ولكن ساعات سروره نبهته على

بوادره حين أومأت اليها عيون الغواني فابتدأ يدافعهن بقوله :

رأت طالعا للشيب اغفلت امره ولم تتعهده اكف الخواضب
 فقالت اشيب ما أرى؟ قلت شامة فقالت لقد شانتك عند الجباب
 فلما اغذت الشيب سيره وفشا احتال عليه بالحضاب ولكنه غلبه فاتقد
 واشتعل ، فألح في المدافعة والمغالطة والاحتيال وكان يقول :
 يا هند ما شاب الفتى وإنما شاب الشعر
 فإذا نصل الحضاب وبان تحت سواده الصباح عاد اليه فقال :
 وقالوا النصول مشيب جديد فقلت الحضاب شباب جديد
 إساءة هذا باحسان ذا فإن عاد هذا فهذا يعود
 وكان ابن المعتز في كل هذا يعلم انه يخادع الناس كلما استطاع ان
 يخدع نفسه ويזור عليها ، فلما دب الشيب في لحيته لم يبق بد من ان
 يعلن انه لم يعد مخدوعاً ، وبدأ يتهم بنفسه قائلاً :
 ولحيتة كأنها غراب زورها التسويد والحضاب
 اذا تبدت ضحك الشباب

وكذلك لم يبق بد أن يدخل في زمرة من انتصحوا بالشيب وهجروا
 التصابي وحلموا ويئسوا واقصروا ، بين ذلك في امثال قوله :
 مات الهوى مني وضاع شبابي وقضيت من لذاته آراي
 واذا رأيت تصابياً في مجلس فالشيب يضحك لي مع الاصحاب
 وقوله :

تولى العمر وانقطع العتاب ولاح الشيب واقتضح الحضاب
 لقد ابغضت نفسي في مشيبي فكيف تحبني الخود الكعاب
 وله بعد ذلك في الشيب صفة عجيبة ذهب فيها مذهب المكثرين من
 المحدثين ترفعه الى صفوف البحثري وابن الرومي واي دلف ومسلم بن الوليد
 واي تمام وكشاجم واي العتاهية ، فهو يحسن مثلاً وصف الامة المخضوبة
 حين يزول خضابها ويظهر بياضها فيقول :
 مسودة لها خضاب أبيض نام الحضاب والشباب يربض

وحين يقول في ذم الشيب :
 قل لمشيبي اذ بدا وايض مني المفرق
 يا فضة حليتها لكنها لاتنفق
 ويانهارا لايرجي صبحه من يعشق
 لا مرحباً لا مرحباً انت العدو الازرق

عتابه

ولم يقصر ابن المعتز عتابه على ناحية ، فعاتب الاهل والصحب واهل
 المودة والمروءة والزمان والاقدار ، عاتب هؤلاء جميعاً وكرر عتابهم حتى
 مل العتاب ويئس من عودة الود ورجوع النعيم ، وكان كلما جدت به الحاجة
 والعزلة واسرع به العمر رأى الموت ادنى من كل امل دان فقال :

يدعو الى الامل الفتى والموت اقرب منه جانب
 ينبو على طول العتاب فقد مللت ومن اعاتب

ولقد تفتقت له معاني العتاب فضرب فيها بسهم ، ومن اروع ما
 عاقب قوله لصاحب له استغنى عنه ببستانه :

اتعمر بستاناً زكا لك غرسه	وتحرب وداً من خليل موافق
فأعجبه كرم يروق نباته	واعذاق عيدان رواء الحدائق
يقيل الحمام الورق في شجراته	فمن هادر يدعو الاناث وصافق
وجياشة بالماء طيبة الثرى	تفور على ايدي السقااة الدوافق
وما ذاك الا خدع دنيا وزخرف	واسباب انفاق لمالك ماحق
لعلك في الارض التي لك واجد	بنا بدلا ! كلا ورب المشارق

وهل كان لمثل ابن المعتز ان يقف امام عمال داره حين هدمها للسيل
 يراقبهم وتسفع الشمس وجهه ولا معين له من اهله ولا اصحابه حتى يقول :

الا من لنفسي واحزانها	ودار تداعت بجيطانها
اظل نهاري في شمسها	شقياً معتنى ببنيانها

يساعدني عند اتيانها
واهدم كيبي لعمرانها

ولا احد من ذوي قربتي
أسود وجهي لتبييضها

زهده

وكذلك لم يكن ما ورد في شعره او نثره من زهد وليد الاربعين
او ما بعدها ، ولم يكن وليد الثلاثين كما كان الشيب ، ولكنه ورد في
شعره مذ قاله صغيراً لنقلب احواله ، فوردت حكم الحياة وحكم الزهد في
شعره ونثره عفو الحاطر غير متكلفة ولا مقلدة ، وانما كانت نتيجة آلامه
وتجاربه وتقييده الحواطر والمشاهدات * وفطنته لما يدور حوله من الحادثات
وخوضه غمار الكلام مع المتكلمين من أهل المذاهب ، وتأثر عقله بالدراسات
المستفيضة المختلفة الاتجاهات ، والفلسفة الدخيلة في ارض العراق - رضي
بها ام لم يرض - وقد دعا العصر العباسي الشعراء والكتاب والفقهاء الى
الافراط في هذا النحو من الكلام وتزهيد الناس في الدنيا لاقبالهم عليها
وعلى مادتها وملذاتها اقبالاً شاملاً عنيفاً صورنا جانباً منه حين تحدثنا عن
الحجر والغناء .

وقد نضجت حكمه مبكرة فلما كبر زاد عليها اقبالاً ، وليس أصغر لقلب
الشاعر من نقلة من الصبا وتذكر عهده ونظرته للهرم يدنومنه فيروعته ،
فيقف محتاراً بين ماضيه ومستقبله يقلب الطرف الى ذاك ويرده على هذا
فيش مرة وتنغصن اساريه اخرى ويضحك ويبكي ثم يذكر الماضي بخير
كأنه يفخر ويذكر المستقبل من الخوف بخير ولكنه ذكر اليأس المستسلم ،
وما اقدر ابن المعتز حين صور نفسه في هذه الوقفة المتحيرة وقد رأى
الدنيا مولية فقال مرتجزا :

سريت به بقلص نجائب
وصفت العقرب للمغارب

يا رب ليل اسود الذوائب
حتى نهته زهرة الكواكب

* سنوفي هذا البحث عند الكلام في نثره.

بذنب كصولجان اللاعب قد ملئ الزمان بالعجائب
وارتفع المنسم فوق الغارب عد بالكفاف من رجاء كاذب
واقعد فقد أعذرت في المطالب

وانه ليرى الموت مقبلاً لا محالة ، ويرى ان انفراده عن الاهل والصحب
والاوفياء ليس الا طريقاً يذل الى انفراد اكثر سكوناً وانقطاعاً هو
الانفراد في مضجع القبر فيقول :

آه من سفره بغير اياب آه من حسرة على الاحباب
آه من مضجعي فريداً وحيداً فوق فرش من الحصى والتراب
وانه ليروءه ذلك الانفراد وذلك التقاطع الذي بين الموتى على فرط
ما ازدحموا وتكاثروا فيصف ديارهم قائلاً :

وسكان دار لا تواصل بينهم على قرب بعض في التجاور من بعض
كان خواتيم من الطين بينهم فليس لها حتى القيامة من فض
وكيف لا ييوم بالدنيا واهلها وقد زابتها اصوله قبله ولم يترك له بها
أخاً ولا فرعاً حيث يقول :

سكنتك يا دنيا برغمي مكرهاً وما كان لي في ذاك منع ولا امر
وجربت حتى قد قليتك خبرة فانت وعاء حشوه الهم والوزر
فان ارحل يوماً أدعك ذميمة وما فيك من فرعي غراس ولا بذر
واذا كان قد تأثر بالفلسفة في هذه الابيات فتأثره بها في الابيات الآتية
اكبر :

ذمك يا دنياي مدح نفسي أقلت زادي واطلت حبسي
غداً أمانى وبأسى أمسي واليوم من مآتم وعرس
لا افقد الوحشة عند الانس طوبى لثاوي تحت ترب الرمس

لا يعرف الهم اذا ما يمسي
وما هو ذا الما جن المقصي المأمور من الخلفاء بالاعتدال ينقلب في بعض الاحيان
متنسكاً أو اها ينادي الله في جوف الليل قائلاً :

مسهد في ظلام الليل أوّاه عضته للدهر أنياب وأفواه
ان كان يخطيء حظي ما أقدره فليس يخطيء ما قد قدّر الله
ويقول :

سأكنم حاجاتي عن الناس كلهم ولكنها لله تبدو وتظهر
لمن لا يرد السائلين بخيبة ويدنو من الداعي فيعطي ويكثر
فاذا ذهبت الدنيا مبغضة كما وصف ، وجائزة كما شاهد ، فليس بعدها
الا العدل الذي يلي الجور ، والحياة الآخرة التي تدلّ له من الدنيا ،
فهو يسلم أمره لله راجياً أن يفوز بعدله حيث أخطأه هنا عدل البشر فيقول :

رب أمر تتقيّه جر أمرا ترتجيّه
خفي المحبوب منه وبدا المكروه فيه
فاترك الدهر وسلمه الى عدل يليه

وفي مثل هذا الكلام تظهر نزعة ابن المعتز الدينية ظهوراً واضحاً ،
هي نزعة نقية طاهرة من كل ريب وشك ، فهي خالصة لله مهما اقتربت
من سوء وارتكبت من صفائر ومنكرات .

حكمة

أما الحكمة في شعره فقد ملأت جوانب ديوانه ، وقلما تخلو قصيدة
من حكمة له في الحياة او نظرة فلسفية فيها ، يتخذها حيناً في صورة
الوعظ والنصح ، وحيناً في صورة الحقيقة المجردة ، فتجري أبياته التي
تحوي تلك النظرات مجرى الامثال .

ونحن نعهده لأكثره في هذا الباب أحد حكماء الشعراء ، وننزه في الطبقة
العليا منهم ومنها قوله :

ويا ربّ السنة كالسيوف تقطع أعناق أصحابها
وكم دهي المرء من نفسه فلا تؤكلن بأنبيائها
فان فرصة امكنت في العدو فلا تبدّ فعلك إلا بها

فان لم تلج بابها مسرعاً أذاك عدوك من بابها
وما ينتقص من شباب الرجال يزد في نهاها وألبابها
وبما جرى له مجرى الامثال :
ما إن أرى شبيهاً لها فيما أرى أم الكرام قليلة الاولاد

....

يموت الفقى من عشرة بلسانه وليس يموت المرء من عشرة الرجل

....

وهل يروع بازيلاً زقنوا أفراخ القطا *

- اختار له البارودي جملة صالحة منها في مختاراته .

الأراجيز

قبل العصر العباسي

قطع العرب الأراجيز قصيرة في العصر الجاهلي ، فلما كان عصر
التخضرمين أطال الأغلب العجلي فيها ، ثم تبعه الأمويون فأطالوا أراجيزهم
وتناولوا بها أغراض الشعر ولا سيما المدح والوصف ، والوصف اخص .
وسلكت الأراجيز الأموية مسلكاً وعراً الالفاظ ، فرميت الأرجوزة بضعفها
عن ان تبلغ مقام القصيدة ، ورمي اصحابها بقصورهم عن بلوغ مقامات
الشعراء ، وقد عفا عنها قوم ، وتخصص لها آخرون فسموا بالراجز
كرؤبة والعجاج وابي النجم ودكين بن رجاء وذوي الرمة .

والحق ان الأرجوزة - ولا سيما ان طالت - تجبر الراجز ان
يصطنع البيوت او المصاريع لالفاظ القافية ، وان يقتصد من حرية في
الذهاب وراء المعاني اقتصاداً كبيراً ، لان الراجز ما يكاد يذكر في شطر
الأرجوزة « مستفعلن » مرتين حتى يضطر ان يأتي بالقافية في التفعيلة الثالثة ،

وفي لفظتين وثالثتهما لا يستطيع ان يؤتي بالابداع كما يتيح البيت في القصيدة للشاعر ، وخصوصاً ان كان من وزن طويل .

وانا انما اتحدث الآن عن الارجوزة المصرفة ذات الروي الواحد لا التي يتعدد حرف الروي في قوافيها ، والارجوزة من هذا النوع لا تصبر على الاستيعاب ، حتى الراجز المطبوع على الشعر كالشماخ يتعذر عليه الاستمرار في رويّ الفاء في ارجوزته :

لم يبق الا منطق واطراف

فيتركها بعد ثلاثة ابيات ويرتجز في الفاء استخفافاً لها ، اما صانع الرجز فيقدر مع فسحة الزمن ان يطيل ، ولكن لا بد له ان يتنقل بأبياتها سريعاً الى معان جديدة ويثب من موضوع الى موضوع حتى يعثر على القافية المرجوة ، ولعلك تجد ذلك واضحاً في اراجيز الامويين . فذو الرمة في ارجوزته التي مطلعها :

ما هاج عينيك من الاطلال المزمنات بعدك البوالي
يجعل عمودها الفقري بكاء الاطلال ، يبتدىء به ويعود اليه في اثنائها ، ولكنه يتنقل فيها الى وصف بقر الوحش ونجم الثريا وعادات العرب ازمان اجتماعهم وتفرقهم ، ويصف المطر والابل عليها الفواج ، والصحراء واعلامها وسرايها ، والركبان والقطا والذئاب والصبح والخمر وبعض الامكنة والصيد والكلاب ، ويضطر مع الاغراب في هذا الجمع بين الاشياء الى الاغراب في الالفاظ ، وكان هيام ذي الرمة في الصحاري والفلوات يضطره الى وصف ما يرى في ألفاظ خشنة مسنة يعوزها الشرح الطويل .

ولم ينبج من الاغراب الا نفر قليل ، وذلك حين يقصرون كما اقصر جرير في ارجوزته التي يمدح بها الحكم بن ايوب الثقفي ابن عم الحجاج وعامله على البصرة اذ يقول :

أقبلن من تهلان او وادي نخيم على قلاص مثل خيطان السلم

قد طويت بطونها على الأدم اذا قطعن علماً بدا علم
يبحثن بحثاً كمضلات الخدم متى تنهين الى باب الحكم
خليفة الحجاج غير المتهم في ضئىء المجد وبجروح الكرم

في العصر العباسي

اما في العصر العباسي فقد اكثر الشعراء من الرجز ، ولم ينفصل اسم
الراجز عن الشاعر ليدلوا على علو كعبهم في نسج الشعر من كل بحوره
وصوره وقيوده وقوافيه ، ولكنه جاء مطبوعاً بطابع الحضارة ، فسهلت
فيه الالفاظ وحسنت فيه المعاني وكثر فيه الافتنان .

والقارىء لارجوزة عباسية كأرجوزة بشار :

يا طلل الحي بذات الصمد بالله خبر كيف صرت بعدي
او لارجوزة لابي تمام في وصف الغيث :

لم أر عينا جمّة الدعوب تواصل التهجير بالتأويب
او لارجوزة للبحتري في وصف سحابة ماطرة :

ذات ارتجاز بجنين الرعد مسفوحة الدمع لغير وجد

او لارجوزة (العُماني) في (الغضبان) فرس المهدي حين جلى في حلبة السباق :
قد غضب الغضبان اذا جدّ الغضب وجاء يحمي حسباً فوق الحسب
من إرث عباس بن عبد المطلب وجاءت الحيل به تشكو التعب
له عليها ما لكم على العرب

يرى رقة الفاظها بالنسبة لاراجيز الامويين مها بقي بها من الغريب .
بل لعله يكون أجلى للقارىء والموازن ان يقرأ وصف البازي في رجز
الامويين لذي الرمة ووصفه لاحد شعراء الطرد من العباسيين ككشاجم
مثلاً فينبجلي له الامر وتوضح السبيل :

وفضلاً عن ترقيق العباسيين للرجز فقد هملوه فصيروه جزءاً جزءاً
مستفعلن مستفعلن ، واول من عمل ذلك ، سلم الخاسر تلميذ بشار يمدح

موسى الهادي اذ قال :

موسى المطر غيث بكر ثم انهر ألوى المر
كم اعتسر وكم قدر ثم غفر عدل السير
بأقي الأثر خير وشر نفع وضر خير البشر
فرع مضر بدر بدّر لمن نظر هو الوزر

لمن حضر والمفتخر لمن غبر

ثم تبه الشعراء في هذا التجزيء فمدح اقدم المعتضد بارجوزة منها
هذه الابيات :

هو العلم والمعتصم خير النسم خالا وعم
حوى المم وما احتلم طود اشم سمح الشيم
جلا الظلم كالبدر تم رعى الذمم حمى الحرم
له النعم مع النقم واخير جم اذا ابتسم
والماء دم اذا انتقم

وفي هذا التجزيء تضعف المعاني ضعفاً ظاهراً ، بل تصاب بالسخف
والسماجة من كثرة التكلف والبحث عن الالفاظ السهلة والقافية المطاوعة ،
على حين يعدم الشعر معنى طريفاً او مقبولا .

وكانت الارجوزة تقصر فتصير مقطوعة تعبر بسرعة عن معنى مركز
فتعملو وتنصع فكرتها ، وكانت تطول فيفرغ فيها الشاعر باله وجهده
تلييناً وتحسيناً فتأتي كذلك مستساغة الالفاظ دالة على العصر العباسي
ومكان الحضارة منه ، الا انها لم تبرز قط من الاغراب لطبيعة الارجوزة
كما قدمنا وقد صدقوا حين قالوا ان الأراجيز موطن الغريب من كلام العرب .
ووصف المرثى والواقع من طبيعة الأرجوزة أيضاً ، وقد قبلت
اكثر ما قبلت في العصر العباسي في المدح وغيره ، وبرع فيها
بشار وابو نواس وابو تمام وابن الرومي وابن المعتز وغيرهم ،
وكان اكثر هؤلاء براعة فيها واكثراراً من قولها الشعراء الذين خرجوا في

الطرد وراء الصيد على جيادهم وفي صحبتهم الطهارة والبزاة وطلاب الصيد
في اجمل الرحلات ، واكثرهم جميعاً ابن المعتز .

طرديات ابن المعتز

وابن المعتز قد ارتجز في كل غرض : في الغزل والمدح والشكوى والعتاب
والهجاء ، ولكنه كاد يلزم الارتجاء في الطرد كل اللزوم لان الطرد من
الوصف ، والرجز يوافقه .

ويحاول ابن المعتز ان ينسج اراجيزه سهلة فتطاوعه هذه السهولة في
الاراجيز التي تتغير قوافيها . ولكن طبيعة الارجوزة المصرة تأبى عليه
تلك السهولة فتحمل اغرب الفاظ شعره .

ولقد ولع في اراجيز طرده بافتتاحات ذي الرمة بقوله : وقد اغتدي
«ولقد غدوت» وأكثر منها حتى صارت طابع اراجيزه في الطرد. ومن ابتداءه :

قد اغتدى والليل في مأبه - قد اغتدى والصبح في المشيب - قد اغتدى والليل كالغراب -
قد اغتدى في نفس الصباح - قد اغتدى على الجياد الضمر - قد اغتدى قبل غدو بفلس -
قد اغتدى بصبح ليل فاش - قم صاحبي نغدو لجيش الوحش - قد اغتدى والليل قد
تقضي

ولا ريب فقد تأثر ابن المعتز بذوي الرمة في الطرد لانه استاذه في
وصف الفلوات وما فيها من وحش وطير ، ولكن اراجيزه لم تجزأ مهلهلة
فتسقط ، وانما حافظت على مكانتها فكانت اروع شعره وادق وصفه .

وكان لا بد لهذا السابح على متن جواده او فرسه او على سنام ناقة
يطلب الصيد - من قوس وسهم ، وسيف ورمح ، وكلب وباز وصقر ،
يرسل كلاً منها وراء الطريدة ، وكلّ يعمل عمله فيها ، ويقف هو متوقفاً
ليصف كل ما يراه من صغير وكبير وقريب وبعيد ، وكان شعره عدسة
المصورة الصافية يزاح عنها الغطاء فتنتقل ما ترى كما هو ، ويزيده
الاسلوب والخيال والوزن جمال الوان وبراعة فن وحسن انغام .
والارتجال للطرد يكون قبل الغدوة والليل لم يزل مرخياً قناعه والضوء

لم ينتشر بعد ، او في الغدوة ولما يبتسم الصبح الا ابتسامة غامضة ، ثم يربض للوحش حتى تجتمع كالجيش وتتكتب ، ولأسراب الطباء وقد آمن وتطاوت اعناقهن الى الشجر لئلا يكن من اوراقه ، وللطير حين تهبط الى الثرى الرطيب او على وجوه الغدران وهي ساكنة ، اذ الطير لا تسقط الا على ساكن ، فاذا بدت انقضت عليهن الحيل انقراض الصواعق وتراوت الاسهم تراعي الاقدار ، وطارت وراءها البزاة والبواشق والصقور والكلاب يأتي كل منها بما قدر عليه ، وكلهن قوادرات يأتين بكل ما سبحن وراءه لا يفلت منهن صيد .

اما الفرس التي تفترس الارض بسرعة مشيها فكالطائر لا يعوقها غدير ولا ضحضاح عن ان تجري جريتها ، وتظل في نشاطها على سنتها ، وقد يغتدي بالناقة الهزيلة كما يغتدي بالجواد . واما البازي فاسرع من اللحظ وأهوى من الماء المنحدر ، يركض في الهواء ركض الطير في الغضاء *

* البازي جمعه بزاة ويقال للبزاة والشواهين وغيرها مما يصيد صقور ، ونفطه مشتق من البزوان أي الوئب ، وكنيته أبو الاشعث وأبو البهلول وأبو لاحق ، وهو من أشد الحيوان تكبراً وأضيقها خلقاً ، قال القزويني في عجائب المخلوقات : قالوا : إنه لا يكون الا أنثى وذكرها من نوع آخر كالحداً والشواهين ، ولهذا اختلفت أشكالها ، وهو خمسة أصناف : البازي والزرق والباشق والبيدق والصقر .

والبازي أحمرها مزاجاً لأنه قليل الصبر على العطش ومأواه مساقط الشجر العالية الملتفة والظل الظليل وهو خفيف الجناح سريع الطيران ، ولأنه أجراً على كبار الطير من ذكوره ، وأحسن أنواعه ما قل ريشه واحمرت عيناه مع حدة فيها . ودونه الأزرق الأحمر العينين ، والأصفر دونهما ، ومن صفاته المحموده أن يكون طويل العنق عريض الصدر بعيد ما بين المنكبين شديد الانحراف الى ذنبه ، وأن تكون فخذاه طويلتين مسرولتين بريش ، وذراعا غليظتين قصيرتين ، وفرخ البازي يسمى غطريقاً . ويضرب بالبازي المثل في نهاية الشرف : فيقال : وكم طير يطير ولا كراز .

وأما الباشق فاعجمي معرب وكنيته أبو الآخذ وهو أيضاً حار المزاج يغلب عليه القلق ، يأنس وقتاً ويستوحش وقتاً وهو قوي النفس ، فاذا أنس منه الصغير بلغ صاحبه من صيده المراد ، وهو خفيف الحمل ظريف السمائل يليق بالملك أن تخدمه لأنه يصيد أنضر ما يصيد البازي من الدراج والحمام والورشان ، وهو إذا قوي عليه صيده لا يتركه

وأما الباشق فقد عشق الموت ، وهو يمر كالسهم المصيب لا يتقيه هاربٌ
بغوث ، يعجل الطير ان رسخ ويلحق به ان طار .
وأما الكلاب فضمّر سلوكية * قد علمها المكلب كيف تعدو كلما
سئلت العدو طائرة كالفراس ، بل كيف تسبق الريح ، ويعلمها وهي
شديدات البطش ألا يسفكن الدم كما أبيع للبراة ، وانما يعلمها كيف تمسك
بالصيد مشفقة عليه ان يجرح منها او ان يهرش او يخدش ، وكيف
لا تمنعها قرون بقر الوحش ، وهي أشبه شيء بالمعز الاهلية ، عنها وعن
اولادها حين تطيف بها ، وقد لا يفوتها ظبي ولا حمار وحش ولا ثور
ولا وعل .

وأما السهام فمن الطين قد دام عليها صناعها فمهرروا فيها ، واشبه
بعضها بعضاً في الشكل والحجم ، اذا انطلقن كن كالشرر المطير يصب
القلوب والصدور والثغور ، او الأظلاف أو القرون ، كما شاء الرامي ،
وكأنما ترميها يد القدر لا ايدي البشر .

حتى اذا جيء بالصيد وجمع ، ذبح واطعم الصاحب من لحمه سواء غضا ،
وشرب عليه العقار والمدام ، وحملت بقيته الى سامرا أو بغداد ليفرق
هدايا في الاصحاب والاحباب .

اصطحب ابن المعتز كل اولئك في طرده ثم وصفهن واعمالهن وصفاً
دقيقاً ، فوصف البازي ومقلته وحدتها وصفاً منقطع النظير فقال :
ذي جوجؤ محبتر موشى ومقلة تلحق بالقصي

إلا أن يتلف أحدهما .

وأما البيدق فضعيف لا يصيد إلا العصافير وربما فرت منه . والصقر الطائر الذي
يصطاد وهو الاجدل وكنيته أبو شجاع وأبو عوان ، ومنه ما هو أخف من البراة جناحاً ،
ويصيد أشياء من صيد الماء ، ويمجز عن الغزال ، ومن أنواعه البؤبؤ الذي يسميه
أهل مصر الجلم .

* نسبة الى سلوك وهي بلد باليمن واثاته اسرع تعلمها من ذكره .

كأنها دينار صيرفي

وقال في قدرته على صيد ما يريد :

بأنسر مثل السنان المختضب قد وثق القوم له بما طلب
فهو إذا عرّي لصيد فاضطرب عروا سكاكينهم من القرب
وقال في البازي وما أروعه :
يطارح النظرة في كل أفق
مختضب في كل يوم بعلق
كأنها نرجسة بلا ورق
يسبق دعر الطير من حيث انبرق
وقال فيه أيضاً :

ويذعر الصيد بباز أقر
ذي مقلة تسرح فوق الحجر
تخاله مضطجاً بالعصف
وجوؤجو متهم محبّر
وذنب كالمنصل المذكر
ويقول في الصقر :

وأجدل حَكَمَ بالتأديب صبّ بكف كل مستجيب
أسرع من لحظة مستريب

ويقول فيه أيضاً :

بأجدل 'يلقن' نطق الناطق ملهم الهامة فخم العاتق
ذي مخلب ألقى كنون الماشق وجوؤجو لابس وشي رائق
كأثر الاقلام في المهارق أو كبقايا الكحل في المالحق
ويقول في الكلاب السلوقية :

بكلبة سريعة الوثاب تفوق سبقاً لحظة المرتاب
لم يُدم صيداً فمها بناب حفظاً وابقاء على الاصحاب

ويقول في سرعتها :

تمرح في الاطواق والسيور تدني وراء القنص المذخور

تسمية الله من التكبير

ويقول في سعة اشداقها :

كانها في حلق الاطواق ضواحك من سعة الاشداق

وما الرحلة الى الصيد تحت جناح الليل المسود كخافية الغراب مع
الفتية البطارقة الغطاريف ، على الجياد المحجلة والافراس تثير النقع ويرعد
بعدها الفضاء وتروع الوحوش ، وقد عدت الكلاب في اطواقها تطوي
الارض مع الجياد وقد اتسعت اشداقها ، ومع الفرسان القسي والبندق ،
ومع السقاة والحدم البزاة والصقور والشواهين - ما الرحلة بهذا كله الا
موكب يثير الخاطر ويهيب بالشاعر ليصف المنظر يلي المنظر والحادث
يتلو الحادث . وليس اقدر على الوصف من امير الحاشية الذي يقف من
خلفها يراقب ماذا يعمل كل جندي منها كما كان ابن المعتز فيصفها تلك
الاعوصاف التي قرأت بعضها ويستعصي علينا ان نسردها هنا كلها او ننقي
احسنها ، وانما نورد لك رحلة واحدة يصفها من بين تلك الرحلات وفيها
كفاية هذا الباب ، قال :

لما غدونا بسحر والليل مسود الطور نأخذ ارضا ونذر
جاءت صفوف وزمر يطلبن ما شاء القدر عند رياض وزهر
وهن يسألن النظر ما عنده من الخبر فقام رام فابتدر
أوتر قوساً وحسر اذا رمى الصف انتثر فبين هاو منجدر
وذي جناح منكسر فارتاح من حسن الظفر ومسه حز الاشر
وقلن اذ حق الحذر وجدّ رمي واستمر ما هكذا يرمي البشر

صار حصي الارض مدر

هذا ولو شئنا ان نورد ، مثل هذه الأوصاف لهذه الموصوفات في غير
الأراجيز لوجدنا شيئاً كثيراً مثل قوله في البزاة :

وفتيان غدوا والليل داج وضوء الصبح منهم الطلوع
كأن بزاتهم امراء جيش على اكتافها صدا الدروع
وقال في الناقة في غير اراجيزه :

كأنا عند نهضتها رفعنا خباء فوق اطراف الرماح
وقال في الفرس :

ولقد غدوت على طمر قارح رفعت قوائمه غمامة قسطل
وقال فيها أيضا :

ولقد اغتدي على طرف الصبح ح بطرف اذا ونى الجري بذأ
طاعن في العنان يستنكر السوط مدلا ويأخذ الارض اخذا
واذا ما عدا فنار اذاعت بدخان هذه الريح هذا
بحر شر يشاغب الصخر قرعا بصخور وينبذ التراب نبذا
يصرع العير والشبوب ولا أدري أهذا اليه أقرب أم ذا

الموشحة

قد نسبوا الى ابن المعتز هذه الموشحة :

ايها الساقى اليك المشتكى قد دعوناك وان لم تسمع

ونديم همت في غرته

وبشرب الراح من راحته

كلما استيقظ من سكرته

جذب الكأس اليه واتكا وسقاني أربعا في اربع

ما لعيني عشت بالنظر

أنكرت بعدك ضوء القمر

واذا ما شئت فاسمع خبري

عشت عيناى من طول البكا وبكى بعضى على بعضى معي

غصن بان مال من حيث التوى

مات من يهواه من فرط الجوى
 خفيق الاحشاء موهون القوى
 كلما فكر في البين بكى ويحه يبكي لما لم يقع
 ليس لي صبر ولا لي جلد
 يا لقومي عذلوا واجتهدوا
 انكروا شكواي بما اجد
 مثل حالي حقه ان يشتكى كمد اليأس وذل الطمع
 كبته تحرى ودمع يكف
 يذرف الدمع ولا يندرف
 ايها المعرض عما اصف

قد غما حيي بقلبي وزكا لا تقل في الحب اني مدع
 يريدون بنسبة هذه الموشحة اليه ان يردوا للشرق كل فضل في البدء
 والابتكار، ويتعصبون له على المغرب، ولكننا حين نعرض الامر ونجادل هذا الادعاء
 يبين لنا الحق من خلل ما نقول ، ولن نهب ابن المعتز اكثر من قدرته
 وطوله ، ولن نغبط مغرب الاندلس حقه في الابداع والاختراع .
 فهذه الموشحة الكاملة لم تسبق بمحاولات ولا نظم مقطوعات صغيرة من
 نوعها او قريب منه ، لتفضي بعد عهد الى هذا الكمال ، بل لم تتبع
 بمحاولات اخرى من ابن المعتز ولا من طبقته حتى نحكم بانها له ونقطع
 بهذا الحكم او ننسبها للمشاركة على الوجه الاقل .

على اننا اذا قلنا ان ملكة الشرق كانت ناضجة في ذلك العصر نضجاً
 لا ضرورة معه الى محاولات صغيرة تتدرج بالصغير الى الكمال ، وادعينا
 انه في القدرة ان تقال الموشحات الكاملة الطويلة بادى ذي بدء احتجنا
 في تأييد هذا الرأي الى موشحات اخرى غيرها تشيع شيوع الخمسات ،
 ولكننا لم نجد قط ، فالظاهر ان بعض الادباء نسبها للشرق والى من
 تشبهه ويشبهها ، ووجد في حرية ابن المعتز في مذهبه الشعري ما يقبل

هذه النسبة فنسبها اليه ليكون كلامه اكثر قبولاً ، ولان المغرب مولع
بالمشرق ، وكل ما يصدر عنه يقلده فيه حتى الاسماء والكنى والالقباب
وترجمة كتب الفرنجة الاوائل .

ولماذا لم تتواتر روايتها لابن المعتز وهي حدث جليل في الشعر اولى
بالكلام والضجيج ؟ ولم لم يتحدث عنها ابو الفرج في اغانيه وهي اقرب
الشعر اتصالاً بفن الغنائي واقرب الاحداث الادبية من عصره ، وهو يتعصب
لابن المعتز ويدافع عنه ويشهر فضله ويعدد مناقبه ؟

على اننا لو سلمنا جدلاً بانها لابن المعتز لاضطررنا ان ننسبها اليه في
شبابه ، ولو كان هذا من انتاج الشباب وهو شبهه فلماذا لم يعاود الصنعة
مع لياقتها بالغناء ، وقد اعتاد ابن المعتز ان يعاود ما ينسجه فيجيء بمثله
مرة واثنين وثلاثاً ؟

وهناك في طبيعة الاختصاص بفن في نظر اهل المعرفة ما يثبت انها
ليست له ، وذلك انه قلما يخلو واحد من الشعراء المجيدين او الكتاب من الفاظ
يديروها في شعره او معان تحلو له او تعلق بنفسه فيكررها ، او اساليب
تروقه فيعيدنها ، والموشحة خلوما اختص به ابن المعتز من معان ، ولا
تتصل بفن في النسيج وادب الشرب والغزل ، ومثله لا يقع في التكرير
الكثير الذي كان للفظه بكى وببكي والبكا في فقرات قريبة من الموشحة
وكذلك للفظه عشيت .

وسداجة المعاني وخلوها من الترتيب والتعليل وتنقلها السريع من فكرة
الى فكرة يدل على انها من صنعة العصر الاول الاموي في الاندلس لا
صنعة المشرق في عصر ابن المعتز ، لان المشرق كان قد اولع بالتوتيب والدقة
والتعمق واولع ايضاً بالصنعة والبديع .

ولقد اتاحت السعة لابن المعتز ان يضيق على نفسه في الاسلوب الشعري
أحياناً فيرتجز ملتزماً قافية واحدة في الارجوزة ليدل بهذا الالتزام على
سعة اللغوية ومقدرته الشعرية ، وطالما تحرر من هذا لمضيق فخرج عنه

وعن قيود الروي في قافية القصيدة الى الارجوزة ذات القوافي المتعددة
والى القافية المطلقة فأتى في مجبوحة هذه الحرية والانطلاق بالشيء الكثير
وذلك في مثل وصفه السحابة الممطرة التي يقول فيها :

وسارية لا تمل البكا جرى دمعها في خدود الثرى
وقصائد له أخرى في الشكوى والهجاء والعتاب والوصف ، ولكن
لا أظن حرية التجديد قد وهبت لشعراء المشرق في ذلك العصر ان
يخرجوا على التقليد لدائرة الشعر العامة عندهم ، ولا هم فكروا في الخروج
عن تقليدهم - والشرق من طبيعته المحافظة على التقاليد - ولا اظن التفنن
في الغناء ونغماته والحانه بلغ الحد الذي بلغه في الاندلس فتدعو الحال فيه
الى ابتداع الموشحات كما ابتدعت في قطر الاندلس .

الدوق الغنائي

وكان السبب في ابتداع الموشحات بالاندلس تلك الطبيعة الموهوبة
جمالاً فريداً ، والمعيشة الفارقة في الترف والغنى ، واقبال العامة على اللهو
والاستمتاع ، وامتزاج الذوق العربي بالقوطي والفرنجي امتزاجاً شديداً ،
وطبع المغرب الذي لا يتمسك بالتقاليد ، كل اولئك كان سبباً في ان
تتغير حال العرب في المغرب عنهم في المشرق ، وان يخضع الشعر للغناء
ويسبق به ، وان تتغير الطريقة المشرقية في خضوع الغناء للشعر
وتبعيته له .

كان المشاركة يهتمون اولاً بالانشاء ثم بالغناء فكان الشاعر ينشد في
المعنى اولاً ثم يؤمر المغني فيضع في الشعر صوتاً ويغني فيه لحناً ، وحين ذلك
يسبق الانشاء الغناء ، والغناء يتبعه ، واليك المثال :

شخص اسحق الموصلي الى الواثق بسرمن رأى واهله ببغداد فتصيد
الواثق وهو معه الى نواحي عكبراء فلما قرب من بغداد قال :
طربت الى الاحبية الصغار وهاجك منهم قرب المزار

وكل مسافر يزداد شوقاً اذا دنت الديار من الديار
ولحنه وغناه الوائق فاستحسنه واطربه فصرفه الى بغداد على ما احب..
وكان اسحق قال اولاً :

وكل مسافر يشواق يوماً إذا دنت الديار من الديار
فعابوا قوله يوماً وقالوا هي لفظة قلق في هذا الموضع لم تحل بمركزها
ولا لها هنا موقع ، فغيرها الى ما انشدت اولاً . ومن هذا ترى أن الشعر
ينشد ثم يعرض على النقد فيصلح ثم يغنى فيه .

وبما حكى ابو الفرج في اخبار ابن المعتز قال : حدثني جعفر بن قدامة
قال : كنا عند ابن المعتز يوماً وعنده نشر وكان يجها ويهم بها ،
فخرجت علينا من صدر البستان في زمن الربيع ، وعليها غلالة معصرة
وفي يديها جنابي باكورة باقلا فقالت له : ياسيدي تلعب معي جنابي ؟
فالتفت اليها وقال على بديته - غير متوقف ولا مفكر - :

فديت من مرة يمشي في معصرة عشية فسقاني ثم حياني
وقال تلعب جنابي ؟ فقلت له من جاد بالوصل لم يلعب بهجران
وأمر فغني فيه . قال ابو الفرج : غنت فيما أرى فيه هزار لحنا ،
وهو رمل مطلق .

هذان مثلان لما كان يحدث في الشرق من إفساد الشعر ثم غنائه ،
يتلذذ اولاً بالشعر وفنه ، ثم يتلذذ بالغناء ولحنه .

أما الموشحة فدون القصيدة في الانشاد ، فلا تبلغ من نفس السامع
اذا أنشدت ما تبلغ تلك ، لكثرة القلق الناشيء من تنقل الموشحة بين
القوافي المختلفة ، فكانت احدى مخلوقات الغناء . وكان المغاربة أكثر
اهتماماً بالغناء من الانشاد اذ نقلوا فنون الايقاع ونغمه من المشارقة
وزادوا غنائهم جلبة وتطريباً ، وطما منه بأشيلية مجر زاهر - على ما قال
ابن خلدون - . وقد تصارع في ارضهم الوزن والنغم ، كل منهما يريد
غلبة اخيه ، وساعدت البيئة النغم ، وسرعان ما خضعت أوزان الشعر

لنغمات الغناء ، وصار على الشاعر ان يصوغ شعرا يطابق اللحن لا أن يضع لحنا في شعر ، فرأى الشعراء - وقد كانت أمزجتهم وأذواقهم قد تحولت مع هذا الحال ، وتغلبت على نفوسهم حياة الترف والمجون ، وقادتهم الى مجازاة الناس في اذواقهم - رأى الشعراء ضرورة ان يتصرفوا في الاوزان اطالة وتقصيراً وزيادة وقلالا مع خضوعهم لتفاعيله في المشرق ، فتعددت عندهم التقاسيم والقوافي فكانت الموشحات .

وابن خلدون - وهو ممن يعتد برأيه في التاريخ للموشحات لنشأته بالمغرب والاندلس وقربه من عصور تأليفها - يؤيدنا فيما ذهبنا اليه وليس في قوله مطعن ، لأنه جاء الشرق وعرف ادبه وكتب مقدمته وتاريخه ، وكان في فسحة من الزمن لينغير رأيه او يعدله لو انه رأى المشرق مصدر الموشحات * وقال الاسكندري : أما الأندلسيون فأدخلوا أوزانا شتى تناسب ايقاع الغناء ونغمه لأنهم كانوا أكثر تقننا من المشاركة في الغناء وصناعة الايقاع ، بل كأنهم وجدوا ان ايجاد وزن يناسب النغم اسهل من ايجاد نغم يناسب الوزن ، وتفننوا ما شاءوا في تقسيمه وتقفيته وسموا ذلك موشحات إلى انه قال وكان المخترع للموشحات مقدم ابن معافى - نزولا على رأي ابن خلدون .

عود الى ابن المعتز

أما المشرق فلم يجر فيما جرى فيه المغرب ، وليست الموشحة للشاعر الأمير ، وابن وصف الساقى في هذه الموشحة من وصفه للساقى في قوله :
ألا فاسقنيها قد مشى الصبح في الدجا عقارا كمثل النار حمراء قرقفا
فناولني كأسا اضاءت بنانه تدفق يا قوتا ودرا بجوفا
ولما اريناها المزاج تسعرت وختل سناها بارقا قد تكشفها
يطوف بها ظبي من الانس شادن يقلب طرفا فاسق لاحظ مدنفا

* مقدمة ابن خلدون في فصل « الموشحات والازجال للاندلس »

عليهم بأمرار المحبين حاذق بتسليم عينيه اذا ما تخوفا
فظل ينجيني قلب طرفه بأطيب من نجوى الاماني والطفوا
والقطعة تحتشد فيها القوة وضجيج الالفاظ وكثرة الاستعارات
كمنهبه الذي بيناه .

النقد والبلاغة

الشعر ديوان العرب

ورث القرن الثالث الهجري اصلح جملة من اللغة العربية الخالصة نثرها وشعرها ، اما النثر فمنه القرآن والحديث وكثير من الرسائل والقصص والتاريخ والجدل ، ومنه الخطب التي عرفها المسلمون ، واما الشعر فما ورث منه كان اضخم من ذلك كله ، ورث منه شعر الجاهلية والاموية وجملة كبيرة من شعر العباسيين الاول ، اعدل ما يقال فيها ان امة من الامم قديمها وحديثها لم توث من شعرها ما ورثه العرب من الشعر الغنائي في القرن الثالث ، ولذا كان حقاً ما قيل من ان الشعر ديوان العرب ، حتى ولو وقف تياره عند الحد الذي بلغه الى ذلك القرن الذي نتحدث عنه .

واذا تفاضل النثر فيما بينه عند العرب ففضل القرآن والحديث ما عداهما من الانواع فصارا افضل الكلام ، فان الشعر عندهم فاضل ، حتى ولو جعل

في خدمة القرآن فحسب ، لانه كما قال ابن عباس « الشعر ديوان العرب ،
فاذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي انزله الله بلفظة العرب رجعنا الى
ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه . »

من اجل هذه المكانة للشعر اقبل الناس على دراسة قديمه ولا سيما
اهل هذا القرن الثالث ، وقد خصوه بالعناية والتقدير لانه يعتبر بحق ميراث
الامة العربية الخالصة والفكرة العربية المحضة قبل ان تتأثر بغيرها من
الامم تمام التأثير .

وكان الشعر منذ العصر العباسي الاول قد اتخذ له رتبة غير الرتبة التي
كان عليها في الجاهلية والاموية ، فقد كان هؤلاء يقدسونه لأثره وفعله
في النفوس ، اما العباسية فقد اتخذته غرضاً يقدس لذاته ، وانتهت الى صناعة
الشعر للشعر وابلاغه حد الكمال الفني كما قلنا من قبل .

وبانت للشعر في هذا العصر غير هذا ظاهرة الشيوع والانتشار فوق
ما كان عليه الامر في القبائل واحزاب الامة والملة في العصرين القديمين ،
فقد كنت تراه امامك في كل مجلس تغشاه حتى في مجالس الفقهاء والحفاظ
ورائمة الحديث ، وقال الشعر الناضج الخلفاء والامراء والوزراء والحكام
والفقهاء والعلماء ثم اولاد الصناعات وابناء الطريق والمصابون بالعتة والجنون ،
ولا تعجب من ذلك فقد قيل ان بزازاً نهض من حانوته في نيسابور حين
قدم اليها عبد الله بن طاهر عامل المأمون وكان المطر قد انقطع ثم هطل
فاستقبل العامل قائلاً :

قد قحط الناس في زمانهم حتى اذا جئت جئت بالدرر
غيثان في ساعة لنا قدما فمرحباً بالامير والمطر
ولا تعجب ايضاً حين تعرف ان شاعراً مؤلفاً كابي العبر الهاشمي لم
تكن في الدنيا صناعة الا وهو يعملها بيده حتى العجن والخبز ، وهكذا
شاع قول الشعر ونشط له الناس نشاطاً كبيراً .

قدسية الشعر

وهل ينسى احد مكان الشعر في الجاهلية واثره في النفوس ، وما اظن قدسيته حين ذلك الاشبيهة بقدسية الشعر في الملاحم اليونانية والشعر التراجيدي ، ولم تخلع عن الشعر العربي قدسيته في الملة الاسلامية ، فلم ينزع القرآن على الصالحين من الشعراء شعرهم ، واباح النبي لحسان ولشعراء المسلمين ان يقولوا الشعر في مسجده وعلى منبره ، ونصح عمر بن الخطاب ان يرووا اولادهم الشعر وان كان قد امتنع عن اعطاء الشعراء ، واعطى عمر بن عبد العزيز الشعراء وهو والي المدينة وادخل عليه جريراً بدمشق في خلافته ، وقال ابن عباس فيه قوله ، فليس بدعاً ان يقبل العرب والمسلمون على الشعر لان الزمن والدولة جعلاه مجداً من اجدادهم التي يفخرون بها .

دراسة النقد

ومن قبل القرن الثالث الهجري اقبل المسلمون على دراسة الشعر القديم يحفظونه ويروونه ويحتجون به للقرآن والحديث ، ويحلقونه في المكان الاول قبل النثر حتى كاد يصير فنهم الوحيد ، ودفع كما دفع النثر الى طوائف من علماء النحو واللغة والادب والجدل ، فاخذ اللغويون يعللون لصوغ الكلمات على ما صيغت عليه ، ويتعرضون لاصول الكلمات وماخذها في مضيق ضيق لا يتعدونه ، واخذ النحويون والصرفيون يفسفون اللغة كما فسف الفقهاء آيات الاحكام والاحاديث والفتاوي ، وكما فسف المتكلمون العقائد ، واخترعوا كليات القواعد واختلفوا فيها ، كما اخذ علماء الكلام يرتبون الافكار ويقيسون القضايا ويبحثون القول بالعقل ويصلونه بالعلم .

واخذ اهل الادب وجلهم من اللغويين والنحويين يروون الخطب والاشعار ويبذلون جل همهم للشعر ، يبينون حسنه ويوضحون غلطه ويمحصون سرقات المعاني ويفضلون السابق بها او الزائد عليها ،

وكل ذلك في جمل قصيرة او طويلة لا تعدو ان تكون دراسة مضطربة ليس لها فواعد جامعة تخضع لها او اصول تبني عليها ، ولم يتخلص اكثرهم من نزعة التعصب والميل مع الهوى ، ولم يخضعوا للروح العلمية النزينة مع تعمق الناس في فهم الادب ، والموازنة بين شعر وشعر وبين شاعر وآخر ، ولعل همهم جله كان منصرفاً مع ذلك الى ما يتعلق بصورة الكلام وتنسيقه . ولقد اقتص الببان بالنثر فجعله اهم موضوعاته ، واقتص النقد الادبي بالشعر فجعله اهم موضوع له ، وما زال النقد الادبي كذلك حتى بلغ حلبة هذا القرن وعلمائه وادبائه ، فاتخذ طريقاً اوسع واشمل ، ثم كان ان اتصل النقد الادبي بالبلاغة وامتزجا ، ثم اخذ تاريخ الادب ودراسته تعين عليهما ، ولو استطعنا ان نلخص الاهداف التي بلغها النقد الادبي في القرن الثالث الهجري لرأعنا انها هي الاهداف التي نرمي اليها في عصرنا ، من حيث ما زلنا في شك واضطراب ، وذلك العصر في وثوق واستقرار .

ولعلنا نستطيع ان نلخص هذه الاهداف فيما يأتي :

« ان المراد من الكلام البليغ ان يتحرز في معانيه عن النقص والخطأ ويمتاز عن غيره بالفصاحة والسلامة ، وأن لا يقاس بمقاييس الذاتية فيحمده سامعه لميله اليه أو للفظه الذي بهره او لشرف قائله كما كان يقول الفرزدق :

وخير الشعر أكرمه رجالا وشر الشعر ما قال العبيد

وإنما يخضع لذوق عام وقوانين علمية ثابتة من البلاغة والنقد ، فلا يختلف في الحكم عليه اثنان . »

وقد ساعد على قوة ملكة النقد في ذلك العصر - وملكة النقد أهم خصائص النشاط العقلي - كثرة مجالس المناظرات وما أحدثته الثقافات المختلفة والاجناس المتباينة والعلوم الكثيرة التي عرفت في القرن الثالث ، وفي مقدمة من خدموا فن النقد علماء الكلام *

* زهر الآداب الجزء الثالث صفحة ٢٠ .

وهكذا تحول فن النقد في هذا العصر الى رجال من طراز جديد ،
من تهذبوا أكثر مما يتاح لغيرهم ان يتهذب ، على جمهور زاهر من العلماء
والادباء والشعراء وعلماء الكلام ، ولم يفهم ان ينظروا في كل ناحية
خطابة وكتابة ونثراً ونحواً ولغة وفقهاً وكلاماً .

ورزق النقد في هذا العصر - كما رزق العلم - رجالاً من الشجعان
احرار الفكر ومن اقدرتهم مراكزهم الاجتماعية على ان ينقدوا في قوة
وجهر ، وهبى لهم ان يطاعوا ويخضع لرأيهم متى أحسنوا ، ومن هؤلاء
بشر بن المعتز صاحب اول صحيفة في البلاغة - على ما يقولون - وثانيهم
الجاحظ ، ومن بينهم ابن سلام وابن قتيبة .

ابن المعتز وقدامة

ولكن رقاب الفن اسلمت قيادها آخر الأمر لابن المعتز وقدامة بن
جعفر ، وكان علينا ان نتكلم عنها ، ولكننا ندع قدامة الآن لانه ليس
موضوع البحث ، ولانه تأخر فعدياً من علماء القرن الرابع ، ونفرد بطل القرن
الثالث بالكلام ، وهو يعتبر حقاً الرجل الذي نضج على يده هذا الفن اول
ما نضج بعد بدء ابن سلام ، ومن اهم الاشياء ان نتحدث عن الاسس التي
وضعها ابن المعتز امامه لينضج لنا فن النقد ، وليضع اول نظام محكم في
قواعد بلاغتنا .

(١) كان النقد قبل هذا العصر يكتفي بالكلمة القصيرة او الجملة الطويلة
يقف فيها موقف المعجب من الكلام او الساخط عليه ، او يغلب عليه
مذهب النحويين واللغويين باخضاعه للمألوف من النظم القديم ، ولكن ابن
المعتز ومن على شاكلته رأوا ان ينقد الكلام نقداً علمياً لغوياً ادبياً ،
وحبذا لو كان الناقد شاعراً ادبياً لان طائفة الشعراء الادباء تحسن النقد ،
وهم الذين يهتمون بتيارات الادب في عصرهم ولا يجمدون جمود غيرهم ،
وكذلك فعل ادباء ذلك العصر وان لم يتخلصوا من الذوق القديم جملة ،

فانفسح باب النقد في هذا العصر انفساحاً عظيماً ، وخف فيه اثر اللغويين ، وصار علم الشعر ونقده اكثر اتصالاً بالادباء منه باهل النحو واللغة .

(٢) انه جعل اليقين العلمي والحجة اساس النقد ، لا المغالطة ولا الذوق الخاص ، واستند في ذلك الى سوق الادلة مما روي من قبل في آراء الادباء ، وكان يعقب على آرائهم في بسط وسعة ، وقد ذكر صاحب الموشح له في ذلك احاديث مستفيضة . وقد ساعد ابن المعتز على الانصاف انه تتبع شعر الطوائف والافراد وعرفه منحدراً وصاعداً ومختلطاً او نقياً ، ولم يدع حتى الشعر الرديء الا قرأه ، فعرف المخترع والمزيد والمبتكر والمسروق . قال ابو بكر الصولي - في حديث طويل - : اجتمعت مع جماعة من الشعراء عند ابي العباس عبدالله بن المعتز وكانت يتحقق بعلم البديع تحقّقاً ينصر دعواه فيه لسان مذاكرته ، فلم يبق مسلك من مسالك الشعر الا سلك بنا شعباً من شعبه ، وارانا احسن ما قيل في بابهِ ... ثم قال الصولي : فما احد من الجماعة انصرف من ذلك المجلس الا وقد غمره من بحر ابي العباس ما غاض فيه معينه .

(٣) انه اقام ميزان العدالة في نقد الشاعر ، فلا ينقده ارادة الخط من قيمة شعره ، ولا يشفق عليه مهما قلت سقطاته ، ليعلم ما في الخلقين من النقص . ونقد الشعر عنده نقد فني محض ، ومن قبل كانوا يزنون الشعر بمقام قائله كما روينا عن الفرزدق ، وكما حكوا ان المبرد لم يكن يحب ابا تمام لأن الحسن بن رجاء كان قد عاشر الطائي وانه في دينه لتقصيره عن الصلاة ، فسوأ سمعته عند المبرد ، فلم يتسع صدره مدة طويلة لدراسة شعره ، ولم يصطبر عليه .

(٤) ولم يتحين ابن المعتز الى جانب ، فلم يكن من المدرسة التي يمثلها ابو العباس ثعلب العالم المتزمت الذي لايعنى الا بشعر زهير والأعشى والنابغة وطفيل والطرماح ، ويمثلها كذلك ابو العباس المبرد الذي ابنى ان يدرس شعر الطائي لانه يقصر عن الصلاة . ولم يكن من المدرسة

الجديدة التي يمثلها محمد بن هبيرة المعروف بصعودا والذي لم يكن يُعنى إلا
بشعر المحدثين يحفظه ويحتج به ويعرف له فضله .

وقف ابن المعتز من هاتين المدرستين بين بين فان كان في القديم
فضل ميزه ، وان كان في الجديد فضل ابرزه ، ولم يقدر القديم على
اطلاقه لوقوعه في شبهة الزمان وقدمه ، ولم يترك الجديد لعيوف الناس
عنه لقربه ، ولكنه درس كل ما عن له من اقوال الشعراء .

وكان قد جدّ على الشعر الجديد من اول العباسية شيء جديد رأوه
في شعر بشار ومسلم وابي نواس واشجع وابن الجهم ، فقد شاع مع
هؤلاء استعمال البديع ، فوجدت بذلك فتنة لغوية تحرز الناس منها اولاً ،
ولكنها كانت اصلح ارض للدراسة الجديدة ، واعطى ابو تمام اكبر
مخطر بشعره في هذا الباب فرصة عظيمة ومادة غزيرة لحلقات النقد ، وقد
اعانت ابن المعتز خاصة على انضاج نقده ووضع اصول قواعده .

واذا تعرض ابن المعتز لشعر ابي تمام لم يهضمه حقّه فيما اجاد فيه ،
ودافع عنه ونافح ، ولم يغفر له سقطه فأنحى عليه باللائمة في مجالس
المباحة والجدل ، او كتب فيه الرسائل الطويلة المسهبة ، وهو في كل
ذلك لا يفرط في تقديمه ولا يحطه عن مرتبته السامية ولا يقصر في مدحه
حين يبلغ غاية الاجادة ولا يرحمه حين يبلغ غاية الاساءة .

ويروك لابن المعتز في ابي تمام خطرات لطيفة في نقده حتى فيما
يروع النفوس من شعره ، وتظنه قد بلغ غاية الاجادة فيه كما في
قوله يمدح :

تكاد عطاياه يحن جنونها اذا لم يعوذها بنغمة طالب
فيقول ابن المعتز : ولم يحن جنون عطاياه انتظاراً للطلب ؟ يبتدىء
بالجود ويستريح . قال ابن المعتز ذلك وامثاله في رسالة طويلة له نبه
فيها على محاسن شعر ابي تمام ومساويه ، اورد بعضها المرزباني في الموشح
عن الكلام على الطائي ، ومن رسالته تلك في ابي تمام ومدارساته الاخرى

فتفتح لنا موازين نقده .

مذاكرة ابن المعتز

يذكر صاحب الموشح ان ابن المعتز كان يحفظ الشعر ويرويه وينقده ويروي نقد الادباء له ، ويعقب عليهم في بسط وسعة ، فيذكر انه روى عيب الناس على امريء القيس قوله :

أغرك مني ان حبك قاتلي وانك مهما تأمري القلب يفعل
قال : وقالوا : اذا لم يغرها هذا فأني شيء يغرها ؟ قال وانما هذا
كأسير قال لمن اسره : اغرك مني اني في يديك ؟
ويذكر الموشح عن ابن المعتز انه قال : عيب على النابغة قوله في
وصف النعام :

مثل الاماء الغواذي تحمل الحزقا

قال : وقال الاصمعي : انما توصف الاماء في هذا الموضع بالروح
لا بالغدو ولاهن يحنن بالخطب اذا رحن .

وحكى عن ابن سلام او غيره انه قال : بما قدّم به زهير على
الشعراء انه كان ابعدهم عن سخف ، واشدهم اجتناباً لحوشي الكلام ...
ثم اورد ابن المعتز لزهير كلاماً حوشياً وآخر سخيلاً ، وقال : فأني شيء
نصنع لهذا ؟

ولقد قرأ شعراً رديئاً جداً لمنوّج احد شعراء آل ابي حفصة فلم يعجبه
فقال : أشبه لكم شعر آل ابي حفصة وتناقضه حالاً بعد حال ؟ فقالوا
ان شاء الامير ، فقال : كأنه ماء أسخن لعليل في قدح ثم استغنى عنه ،
فكان ايام مروان الاكبر على حرارته ، ثم انتهى الى عبدالله بن السمط
وقد برد قليلاً ، ثم الى ادريس بن ابي حفصة وقد زاد برودة ، والى
ابي الجنوب كذلك ، والى مروان الاصغر وقد اشتد برده ، والى ابي هذا
متوج وقد ثخن لبرده والى متوج هذا وقد جمد ، فلم يبق بعد الجود شيء .

وأخبر الصولي قال : سمعت عبد الله بن المعتز يقول : لو لم يكن
لبحثوي الا قصيدته السينية في وصف ايوان كسرى فليس للعرب مثلها ،
وقصيدته في وصف البوكة ، واعتذاراته الى الفتح التي ليس للعرب بعد
اعتذارات النابغة مثلها . وقصيدته في دينار التي وصف فيها ما لم يصفه
احد قبله ، وصفة المراكب في البحر لكان اشعر الناس في زمانه فكيف
ذا انضاف الى هذا صفاء مدحه ورقة تشبيهه في قصائده ؟

وقال صاحب الاغاني : حدثني الصولي قال : سمعت عبد الله بن المعتز
يقول : لو قيل : ما أحسن شيء تعرفه ؟ لقلت شعر العباس بن الاحنف :
قد سحب الناس أذيال الظنون بنا وفرق الناس فينا قولهم فرقا
فكاذب قد رمى بالحب غيركم وصادق ليس يدري انه صدقا
وشيء آخر يتصل بهذه الدراسة ، وهو دراسة السرقات والموازنات بين
الشعراء ، ولابن المعتز لطائف في هذا الباب من فضل تحقيقه بالبديع
والاستعارات ، ففيا حكى الصولي انه كان يسأل : ما احسن استعارة
اشتمل عليها بيت واحد من الشعر ؟ فيجيب احد الجلساء فيستحسن ابو
العباس قوله ، ثم يروي مأخذه وما هو اجود منه . ومن استعاراته التي كان
يستحسنها :

ألفت دُكاء يمينها في كافر - وأيدي الثريا جنتح في المغارب -
نطاردهم نستودع البيض هامهم - اهتدت اليه المنايا عينها ورسولها .
وكان له خاطر نفاذ في النقد ، فقد قال له احد جلسائه ان من احسن
الاستعارات قول ذي الرمة :

أقامت به حتى ذوى العود في الثرى وساق الثريا في ملاءته الفجر
فقال ابو العباس : هذا لعمرى نهاية الخبرة ، وذو الرمة ابداع الناس
استعارة وابرعهم عبارة الا ان الصواب : حتى ذوى العود والثرى ، (على
ان الثرى مفعول معه) لان العود لا يذوى مادام في الثرى وهذا

منقول من مذاكرات الفرزدق مع عمرو بن العلاء ... وفي الموشح من
هذا كلام طويل .

المنهج التطبيقي

ويتصل بهذه المذاكرات ما سميناه من قبل عند الكلام على البيئة
العامية في أول الكتاب بالمنهج التطبيقي ، وقلنا ان ذلك يكون بأن
يُعرض المعنى القديم ويدرس وتحصى عيوبه ثم يقترح أن يقال في ذلك
شعر يخلصه من عيوب القدامى ، فيسلم المعنى حين ذلك سلامة لا ينقص
أطرافها عيب . وقد اهتم ابن المعتز بهذا المنهج اهتماما بالغا حتى صار له
في ذلك جملة صالحة من الأمثال قد لا تجدوها عند غيره ، واليك بعضاً منها ،
ومنه ما هو روايته ومنه ما هو عمله :

قال عابوا على الأعشى قوله :

ونبت قيسا ولم آتـه وقد زعموا ساء أهل اليمن
فعاوبه بهذا الشك (الذي في قوله وقد زعموا) ويقال ان قيسا
أنكر ذلك عليه فجعل مكان وقد زعموا : « على نأيه » فصار البيت هكذا
الى السلامة :

ونبت قيسا ولم آتـه على نأيه ساء أهل اليمن
وينسب اليه بعض الرواة خبر نقـد الرشيد لأبي نواس في مدحه
الخصيب بقوله :

فان يك باقي افك فرعون فيكم فان عصا موسى بكف خصيب
فقال له الرشيد ألا قلت :

فباقي عصا موسى بكف خصيب

(وذلك لتحسن المقابلة)

وروى قول اسحق الموصلي في غنائه :

وكل مسافر يشتاق يوما اذا دنت الديار من الديار

ثم غير البيت فصار الى قوله :

وكل مسافر يزدد شوقا

وقد سبق الكلام عنه .

ولما كان ابن المعتز قد أرغل في حلقات الأدباء واللغويين ورواة الشعر ونقده ، وصار من المقدمين فيهم رسالة وحفظا ورواية ونقدا ، فقد أراد لنفسه ألا يقع فيما وقع فيه السابقون وان يتحرز مما يُطعن عليه ، فانحنى على الشعر يصنعه وينضجه ويحسنه فيأتي بما يتحرز منه خفيا لطيفا دقيقا كقوله في صفة الحيل :

صبينا عليها ظالمين سياطنا فطارت بها أيدٍ مراعٍ وأرجل
وانه لو لم يقل (ظالمين) لكان لمعتز عليه ان يقول : انما ضربت
هذه الحيل لبطئها ، كما عابوا على امرئ القيس قوله :

فللزجر الهوب وللحاق درة وللوسط منها وقع اهوج مُتَعَبٍ
وقالوا : اذا أحوج الى هذا كله فليس بسرير ، فقال عبد الله :
(ظالمين) : تحرزاً من هذا الطعن .

فهو اذن يخشى ان يؤخذ بسذاجة بدو الجاهلية والأموية ، وينسج
القول محكماً لا نهي جوانبه ولا يشوبه نقص ولا عيب .

اصول وموازين

ويجب ابن المعتز بالشاعر ان يبتعد كل الابتعاد عن اللفظ الغريب
والمصدود عنه . وقد جرى في ذلك على عادة اولاد الملوك ، ومقت ان
يميل الشاعر الى البديع كل الميل فيُمتك كمن الجد ومشيب الفؤاد وزند
الدهر ، ولا يستجيد المطابقة ان خرجت خروجاً غير حسن او تكلفها
الشاعر ، والمطابقة ان حسنت حيناً فلا تحسن احياناً كثيرة ، فوجب الا
يؤتى بها في كل آن ، ولا يعجبه ان يسوء التشبيه فيشبه الممدوح بما لا
يستساغ كالتشبيه بالتنين او الفيل ، ولا يعجبه ان يُنتحل التجنيس ويتكلف تكلفاً .

ويرى الا يتشبه ابن القرية المتأدب بالبديوي الجلف في كلامه ، ولا
المحدث مع تصفحه اشعار الاوائل وعلمه بها ان يقف عندما وقفوا عليه
من غير ابتكار وتجديد ، ولا يغتفر للشاعر ان يجيء بالمعنى خطأ ، او يرق
في تأدية الغرض فيكون كلامه مثل كلام الخنشين كقول القائل :
« تقطع قلبي رحمة للكارم » .

ولا يعذر الشاعر ان يسبق بمعنى ولا يكسوه احسن بما كساه الاوائل
من ثوب الالفاظ ، او يزيد في اضاءة المعنى او يسهل له منه معنى يفضح به ما تقدمه
ولا يفتضح به ، وينظر الى ما قصده نظر مستغن عنه لا فقير اليه .
كل هذه الاصول والموازن عرض عليها ابن المعتز شعر ابي تمام لكثرة
انتاجه وغزارة شعره ، وتقليبه ضروب القول وفنونه وتعدد ينابيعه ،
ولامتيازها بخصائص في صياغته ومعانيه ، فاستجاد منه ما استجاد وزيف
ما زيف ، واقتصر فيما كتب على ما يبهل الحجة ويفل حد النصرة ، ولكن
ابن المعتز اورد ما اورده على العموم في نفس قصير ودون تشعب في
البحث وسوق العلل الا قايلاً ، الا انه مع هذا النقص فتح الباب لمن
بعده على مصراعيه واطاء لهم السبيل ، فلم يمس على علم البلاغة الا قليل
حتى صار الى النضج الذي صار عليه .

كتاب سرقات الشعراء

وكان كتابه سرقات الشعراء كله يجري في هذا الباب ، وقد روى
الآمدي ان ابا العباس بن المعتز انشد في كتابه هذا لسلم الخاسر يعقبيه
بردى الاستعارة في قوله يرثي موسى الهادي :

لولا المقادير ما حط الزمان به لا بل تولى بأنف كلمه دام
وقال هذا ردى كأنه من شعر ابي تمام الطائي *

* الضمير من تولى للزمان ، والمعنى لولا المقادير أرادت موته لما قدر الزمان على حطه في
القبر بل وارتد عنه الزمان ان اراده بسوء وهو دامي الانف مجروح .

ولعله من اوفق الامور ان نقول كلمة قصيرة هنا عن سرقات ابن المعتز نفسه جرياً على اصوله التي رسمها للنقد، وليعلم ما في الخلوقة من النقص، وكنا نود ان نفرّد لسرقاته باباً، ولكننا رأينا من المستطاع رد معانيه كلها الى من سبقه، الا اننا رأينا - كما يرى النقاد المنصفون انه لا خير ان يصير المعنى من شاعر فيتجاذبه الشعراء ويتناولونه من قرب او بعد، ويولدون منه كل خفي لطيف.

وقد بينا في مذهبه الشعري انه لا يبالي بأخذ المعاني ما دام يعقب عليها بما يزيد لها حسناً او يفرّج عنها، وبما عدوه عليه من السرقات قوله: انا جيش اذا غدوت وحيداً ووحيداً في الجحفل الحرار مأخوذ من قول الفرزدق.

وقوله: كأن اخفافها والسير ينقلها دلاء بئر تدلت بين اشطاف مأخوذ من قول عنقرة:

يدعون عنقر والرماح كأنها اشطان بئر في لسان الأدم وقوله: وتقدم ولا تحف فاز بالحلب من جسر

مأخوذ من بشار وسلم الحاسر، والأول:

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللمج ولثاني: من راقب الناس مات غماً وفاز باللذة الجسور وكلاهما اقوى منه واعم.

وقوله: وكنت كرامي كوكب يبصاقه فردّ عليه وبله ومواطره أخذه من المثل العربي الذي يقول: أحق ما توجه *.

وقوله: «يارب ليل سمر كله»، أخذه من قول عبد الملك بن صالح ابن علي، وقد سأله الرشيد عن ليل منبج فقال: سمر كله.

تأثر الشعراء به

وقد يسبق ابن المعتز بالمعنى مسروقاً من قبله أو مبتكراً من عنده فيبين لك سهلاً خفيفاً ، فاذا تناوله أحد من بعده كالمثني ضخمه وجعل له طينناً حتى ليظن أنه صاحبه ويُنسب فضل ابن المعتز فيه ، من ذلك قوله :
ورد عليّ الدهر حدّ سلاحه فقطعني جرحاً وأوجعني عضا
أخذه المتنبي فقال وأوضح :

عركت صروف الدهر طفلاً وبافعاً فغرقني ناباً ومزقني ظفراً
وقد قال المتنبي :

أزورهم وسواد الليل يشفع لي وأنثني وبياض الليل يغري بي
وقد عثر ابن جني على الموقع الذي أخذه منه المتنبي وقد كان ينكره ، وذلك من قول ابن المعتز في شطر صغير :
« فالشمس نائمة والليل قواد » .

ومنه قوله يصف النار :

كانت الشرار على نارها وقد راق منظرها كل عين
سحابة تهب إذا ما علا فاما هوى ففتات اللجين
أخذه العسكري فقال وأحسن :

أوقدت بعد الهدوء ناراً لها على الطارقين عين
شرارها إن علا نضار لكنه ان هوى لجين

كتاب البديع *

وكان لا بد لنا قد بصير دروب كابن المعتز ، وخص الموازين لنقد الشعراء وأشعارهم وطالت مجادلاته ومباحثاته فيها ، ورأى غيره يسبقه

* نشر كتاب البديع أغناطيوس كراتشكوفسكي المستشرق الروسي وطبع في لندن سنة ١٩٣٥ مصدراً بمقدمة انجليزية مذيلاً بترجمة لصاحبه وفيها بيان عن أثر الكتاب في الأدب العربي . ثم أعيد طبعه بالقاهرة .

لتأليف كتب تصور حياة النقد والاذواق المختلفة منذ نشأ في الجاهلية الى القرن الثالث كابن سلام في كتابه طبقات الشعراء - كان لا بد له ان يفكر في وضع اصول وقواعد لفن من بلاغة القول لم توضع فيه غير صفحات ، ولم نقل فيه غير جل مبعثرة هنا وهناك في كتب من سبقوه كرسالة بشر وبيان الجاحظ وأدب ابن قتيبة ، وكان لا بد له ان يجمع تلك القواعد في كتاب يكون له به فضل السابق المجلي في الحلبة ، فما إن رافقه الفكرة حتى شمر عن مساعد جده يؤلف كتاب البديع .

وكل مسائل البلاغة التي فصلتها الكتب منذ ابن المعتز الى اليوم وقسمتها الى ما يبحث عن مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، والى تنوع أساليب الاداء والى تحسينها او تحسين المعاني مما سمي اخيرا معاني وبيانا وبديعا ، كل ذلك اسماء المحدثون لما رأوه قد كثر في شعرهم بديعا ، وكذلك سار على هذه التسمية ابن المعتز فسمى بحوثه في هذه النواحي جميعا بالبديع .

ولقد ادعى المحدثون ان بشارا ومسلما وأبا نواس وحلباتهم هم الذين أدخلوا في شعرهم كلاما ذا مذاق خاص سموه بالبديع ، ولكن ابن المعتز الذي نظر في كل الكلام أنكر على المحدثين ان يقصروا نسبة ذلك البديع على أولئك الشعراء وان يخصوهم وحدهم بعمله وصناعته وان كان اسم البديع هم الذين ابتدعوه .

ولعل هذا هو كل غرضه ، او غرضه الاول من تأليف الكتاب ، لينبه الناس على ان المحدثين لم يسبقوا المتقدمين الى باب من ابواب البديع ، وانما كانت عملهم ان وضعوا الاسم لا غير واكثروا منه في صناعتهم .
والقرآن والحديث ولغة القدماء شعرها ونثرها بمتلثة به سابقة اليه في اقلال واعتدال ، وكل ما هنالك ان هذا النوع قد كثر في شعر هؤلاء الشعراء كثرة امتاز بها شعرهم عن شعر السابقين .
على ان ابا تمام قد اقبل على هذا البديع بعد أولئك الشعراء اقبالا

لا مثيل له من قبل ، وكان كلما اراد البديع خرج الى الحمال واحتطب واستكثر .

وقد كان الشاعر القديم يأتي بنوع واحد منه في البيت او البيتين من القصيدة ، فيستحسن ذلك منه ، وربما لم يأت بشيء منه قط ، اما ابو تمام فقد شغف به حتى غلب عليه وتفرع فيه واكثر منه ، واصبح صاحب صناعته ، حسناً في بعضه ومسيئاً في بعضه ، متطرفاً في الجودة والاسفاف ، وتلك عقي الافراط وثمره الاسراف .

قال ابن المعتز في كتابه هذا : « ان بشاراً وابا نواس ومسلم بن الوليد ومن مثلهم لم يسبقوا الى هذا الفن ، ولكنه كثر في اشعارهم فعرف في زمانهم ، ثم ان الطائي تفرع فيه واكثر منه واحسن في بعض ذلك واساء في بعضه وتلك عقي الافراط وثمره الاسراف ... » ويكثر من الاستشهاد للطائي في اثناء كتابه .

والكتاب لا يعدو خمسة ابواب : الاستعارة اولها ثم التجنيس ثم المطابقة ثم رد الاعجاز على الصدور ثم المذهب الكلامي ، وعد ما سوى هذه الانواع الخمسة محاسن ، وابع ان يسميها من شاء ذلك بديعاً . *
وان استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء آخر قد جاءت في القرآن الكريم والحديث وشعر القدماء ونثرهم ، وكذلك وقع في كل ذلك الكلام انواع من التجنيس ولا سيما تجنيس الاشتقاق ، والمطابقة والالتشبيه والكناية ، فهو في كل باب من ابواب كتابه يعرض الادلة من القرآن فالحديث فأقوال الصحابة * * * والمشهورين من الاسلاميين ، ويتعرض في اثناء

(*) عرف ابن المعتز الاستعارة في البديع قال : هي استعارة الكلمة من شيء قد عرف بها الى شيء لم يعرف بها .

(**) مثل هذا البحث والترتيب نقله الآمدي في موازنته مقولاً عن ابي علي محمد بن العلاء السجستاني ، وكان صديق البحتري ص ٥ ، ٦ ، ٧ من الموازنة طبعة صبيح ، ثم قال ذكر ذلك كله ابو العباس عبد الله بن المعتز في كتاب البديع فلما اطلعنا على كتاب البديع وجدناه كما قال الآمدي .

الابواب لمحسن الكلام ومساويه لتتميز باضدادها الاشياء .

ومع قلة امثلة الكتاب وقصره وانحصاره في انواع قليلة من البلاغة تبلغ سبعة عشر نوعاً فان مؤلفه يعتز به فيزعم انه عرض فيه احسن ما وجده ويرى انه جاء كافياً مفيداً ، ويقول : وما جمع قبلي فنون البلاغة احد ولا سبقني اليه مؤلف ، ومن احب ان يقتدي بنا ويقتصر على ما اخترعناه فليفعل ، ومن رأى اضافة شيء من المحاسن اليه فله اختياره .

ولو رأى ابن المعتز ما صار اليه هذا العلم بعده من التقسيم والتفريع وما خاض فيه علماء من بعده ، ورأى انه بعد ذلك كله لم يعد كافياً لراعه ذلك ، ولكنه ظل صاحب الفضل في السبق اليه والبدء به . *

وقد رأى مؤلف البديع ان الاسانيد وكثرة الغنينة التي يمتاز بها مؤلفو عصره استكثار لا ضرورة له ، ولعل ذلك شيء ان اباحته لهم رواية الادب فلن يبيحه رواية الدين لما في هذه من وجوب التورع وضرورة الغنينة او ذكر الاسانيد ليُعرف الحق وطريق السداد ، ولكنه لم يستطع الخلاص جملة من فكرة الاكثار والاسناد فاختر على ذكر المعروف المشهور .

وانك لتكاد تلمس نفس ابن المعتز في كتاب البديع لانه لا يختار فيه الا ارشق الاساليب ، ويعجبه تجنيس الاشتقاق ، وحققاً فانه لا يحمّد الاشتراك في اللفظ الا في هذا النوع من التجانس ، ولم يفقه ان يكون في كتابه لغوياً صرفياً ناقداً ، فهو يعنى في كتابه بتفسير الكلمات وتصريفها كبقية مصنفى كتب الأدب في ذلك الزمان .

أثر الكتاب

ومها يكن من شيء فحسب ابن المعتز انه اول من بذر النواة التي نبتت منها دوحة هذا الفن المتعددة الاغصان الوارفة الظلال الطيبة

* انظر فن القول لأمين الحولي .

الشمرات . وكانت تعاليم كتاب البديع سبباً لاتساع نطاق بحث الالفاظ
والاساليب والمعاني ، ووضع القوانين لها ، وبلغت بالاعتقاد العلمي في
القرآن فوق ما بلغه الاوائل فيه ، وقد كان الكتاب تهيبجا للأفكار
وللبحث والتفنن في اسس البلاغة ، وقد مهد الطريق لمن بعده حتى اتى
عبد القاهر فانتتهت اليه فلسفتها وصار اليقين في بلاغة القرآن الى غاية
الكمال . فابن المعتز سقراط بلاغة هذه اللغة بعد عهود السفسطة الطويلة
وله الفضل الاول في توطيد اركانها .

أنواع نثره

نثره العلمي

هذا ابن المعتز في أسلوبه العلمي وسكن ، وبذل فيه من منطقته وسليم فكره وقدرته على التوضيح ما وسعه ذلك ، وبعده به عن الخيال الشعري والأسلوب المجازي ، وتوجه به إلى العقل يخاطبه وإلى الفكر يناجيّه ويشرح حقائق ما يتعرض له من مسائل العلم ، في بسط وسهولة وتقديم أمثلة وحجج وسلامة ذوق في اختيار الكلمات وحسن تقرير المعاني في أفهام الناس .

ولسنا نريد الإطالة في نثره العلمي الذي ورد في رسائل نقده وكتبه التي ألفها واطلعنا عليها ككتاب البديع ، فقد يتساوى هو وآخرون أقل منه شأنًا أو أكبر في هذا الأسلوب الذي يظهر عليه سلطان العقل أكثر من ظهور سلطان الفن ، ومثله قوله في التاريخ للشراب في كتاب فصول التماثيل :

« الروم أعرف الناس بالشراب وأوصفهم له وأعلمهم بمنافعه » ،
 وأعد لهم مذهباً في استعماله ، وأكثر ما يختارون منه الأحمر المشبع الصقيل
 لأنه أسهل عندهم في توليد الدم من غيره ، فاما الفرس فهم شركاء الروم
 في معرفة فضائل الشراب ، إلا أنها تختار منه الأصفر لذكاء رائحته ولذا ذات
 طعمه ، ولأن فيه ضرباً من حركة النار ولونها ، واما العرب فإنها بين
 هاتين الحالتين تتصرف بلطائف مداثرها إلى ما أحببت من اوصاف
 الألوان ومن اوصاف الاجناس ، فتصيب منه المعنى أو تقارب الاصابة .
 ولكنا نريد ان نحدث عن نثره الفني الذي هو قسم الشعر في الادب
 فهو اولى بالبحث والدراسة لأنه يدل على شخصه وفنه كما دل الشعر عليهما ،
 بل قد يكون النثر الفني ادل على صاحبه من الشعر وأكثر هداية اليه منه .

نثره الادبي

كان كل من نثر ابن المعتز وشعره أحدهما في خدمة الآخر ، فاذا قيّد خاطراً
 من خواطره نثره ووضعه في بابيه ثم لاح له منه بارق شعري نسجه شعراً أو
 استعان به ووضعه في فنه الذي يناسبه ، وإذا انشد شعراً وبانت من خلله
 ملامح حكمة أو عظة أو فكرة نثرها ووضعا في بابها من النثر ، فكان
 نثره وشعره كلاماً خادماً وكلاماً مخدوماً ، ولكن نثره كان أكثر خدمة
 لشعره فقد جاء أكثره قريباً من الشعر كقوله في احد رسائله : وقد
 لبثت بعدك بقلب يود لو كان عيناً ليواك ، وعين تود لو كانت قلباً فلا
 تخلو من ذكراك . أو قوله : « والله يعلم ان خيالك شمس نفسي اذا
 غمت وذكراك مراجها اذا انتبهت » ، وهذا وشبهه كان الشعر به اولى ،
 فانه لم يفارقه الخيال الشعري ، وبرزت فيه صور الجمال والخيال والتصوير
 الدقيق بروعها في شعره وتشبيهاته ، وكان أسلوبه جزلاً موجزاً حيناً مسهباً
 حيناً آخر حسباً يقتضي المقام وتطلب الحال كما كان شأن عصرهم غلوا في
 طرقي الايجاز والاطناب ، فنراه مرة كالجاحظ مطيلاً منوعاً عباراته مرادفاً

مستطرداً متظرفاً متندراً ، كما كتب في رسالته التي تفضل سامرا على بغداد
وهي التي يقول فيها مناظراً احد اصدقائه :

« كتبت اليك من بلدة قد انقض الدهر سكانها واقعد جذرائها ، فشاهد
البأس فيها ينطق ، وحبل الرجاء فيها يقصر ، فكان عمرانها يطوى وكأن
خراياها ينشر ، وقد وُكِلت الى الهجر واستحثت باقيها الى فانيها ، وقد
تمزقت باهلها الديار فما يجب فيها حق جوار ، فالظاعن منها بمحو الاثر
والمقيم بها على طرف سفر ، نهارة ارجاف وسروره احلام ، ليس له زاد
فيرحل ولا مرعى فيرتع ، فجالها تصف للعيون الشكوى وتشير الى ذم
الدنيا بعد ما كانت بالمرأى القريب جنة الارض وقرار الملك ، تفيض
بالجنود اقطارها عليهم اردية السيوف وغلائل الحديد ، كأن رماحهم قرون
الوعول ودروعهم زبد السيول ، على خيل تأكل الارض بجوافرها وتمد
بالنقع سائرهما ... على انها وان جفت معشوقة السكنى وحيية الثوى ،
كوكبها يقظان وجوها عريان ، وحصاها جوهر ونسيمها معطر وتراها مسك
أذفر ، ويومها غداة وليلها سحر ، وطعامها هنيء وشرابها مريء ، وتاجرها
مالك وفقيرها فاتك ، لا كبغدادكم الوسخة السماء الومدة الهواء ، جوها
نار وارضها خبّار ، ضيقة الدار قاسية الجوار ساطعة الدخان قليلة الفتيان ...
ثم ختم الكلام مضمناً كلام امرئ القيس :

غدت سرورا في العفاء كأنها قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل
واصبح اهلها شبيهاً بجالها لما نسجتها من جنوب وشمال
اذا ما امرؤ منهم شكسا سوء حاله يقولون لا تهلك امي وتجمل
وتراه حينما جرى مجرى ابن المقفع تحتشد قوته للفكرة وتحتشد للفظ
فنهز المعاني في ثياب لم يُقَدَّ مثلها حسناً ورشاقة وتجانساً ، وسنورد امثلة
ذلك عند الكلام على الفصول القصار .
وهو في اسلوبه كليها شديد المرّة عظيم القوة يدل على عمق النفس وحدتها
وصهر الحوادث لها وبصرها بالامور .

ولم يكن نثره الفني إلا سهلا رائقا قليل الصنعة والتكلف لانه لم يقصد فيه الى اظهار براعة أو سعة تحصيل ، وانما كتبه في المناسبات والمناسبات وحدها ، فجاء معبرا في صدق وانسجام عن الافكار التي أمله والاغراض التي كتب من اجلها .

ولم يكن ابن المعتز معنيا بالسجع عناية من جاء وابعده به ، بل كان فيه على طريقة من تقدموه من الكتاب أمثال الجاحظ وجعفر بن يحيى وابراهيم بن العباس واحمد بن يوسف وابن ثوبة وأشباههم ، فان السجع في كلامهم قليل ، لكنهم لا يكادون يخلون بالمناسبة بين الالفاظ في الفصول والمقاطع الا في اليسير من المواضع ، وكانت له عناية فليقة بالمحسنات البديعة ، وانما انصرف همه الاكبر الى المعاني ، وما وقع من المحسنات فقد جاء ابن الصدفة وعفوا الخاطر .

وهل بلغ عصر عربي - قبل هذا العصر أو بعده - ما بلغ هذا العصر من رقي الكتابة على انواعها كافة ! لقد أصبح النثر على رقبه فنا تؤدى به جميع العلوم على كثرتها واختلافها ، وأصبح فنّ لهو وترف يقوم مقام الشعر في ارضاء العواطف والشعور .

فنون نثره

قلنا ان ابن المعتز كان دمويا على تقييد خواطره ومشاهداته ، وكأنما كانت له يوميات يسجل فيها كل ما يمر بسمعه أو تحت عينه لئلا تفوت ثواني الحياة ولم يثبت فيها له وجودا ، او لم يقترح لمساثلها المعقدة حلا ، أو يحكم عليها حكما .

وكان هذا التقييد نثرا ، يجري في مسالك شعره او مسالك اخرى غير التي يجري فيها شعره وان كان الخيال الشعري لم يفارقه فيه كما قلنا ، فكان هذا النثر في معظمه ، سالكا طريق الجسد بعيدا عن المجون يدل على العمق وسمو الفكرة وتعددتها واتساع الافق والثروة اللغوية ،

وكان هذا النثر - في القليل منه - يسلك الاغراض التي ينشدها الشعر
ويعبر عنها من مدح وعتاب ورثاء ووصف .

وانك لتروى في نشره رقة اولاد الملوك وحسن مداخلهم ورفق عتابهم ،
من ذلك انه ارسل ذات مرة الى قينة لتلحق به في مجلس حظ ، فلما
مرت في الطريق الى المجلس وجدت فيه حارسا حراميا فرجعت ، فأرسل
يعاقبها فكتب اليه اعتذارا بخطها فأجاب فكان بما قال :

فمن يجيرني من توكاه على تقديم العذر ووقوعه موقع التصديق في كل وقت ،
فتتصل ايام الشغل والعلة ، وتنقضي ايام الفراغ والصحة ، فتطول مدة
الغيبة وتدرس آثار المودة ، ثم كتب في آخر الرقعة :

اذا غبت لم تعرف مكاني لذة ولم يلق نفسي هوها وسرورها
وبدلت سماعا واهيا غير بمسك لقول وعينا لا يراني ضميرها

رسائله

وقد كتب رسائل اخوانية قد غزت غزرا ، وفتقت له الحوادث
والمناسبات فيها معاني لم يكن ليبلغها لو كان أحد كتاب الدواوين ، وكان
معظم هذه الرسائل في خدمة الرؤساء والوزراء ، من تهنئة بقسوم من
سفر او ولد بولد او تعزية بوفاة او شفاعة ، وطلب وتنفيذ وشوق وشكر
ودعاء ، يرسل هؤلاء العلية والكبراء بما يليق بهم من معان والفاظ
فيعلو اسلوبه ويقصر ، وتسمو معانيه وتغزر ، وليس له غير هؤلاء من
اصحاب .

وكان العصر عصر استبداد - كما تعلم - شاع فيه احتكار المنافع
والثروات في ايدي الحكام ولا سيما الوزراء ، والسيطرة على كل شيء من
آية السبل ، فكثر الطلب والرجاء والوساطة والاستشفاع كثرة استقرارها
في اذهان الناس ومواضعهم ان الاستبداد شيء لا بد منه لاستقرار الدنيا .
وشاع هذا الاعتقاد وتفشى ، فكان ابن المعتز الامير احد اولئك الطالبين

الراجين المستشفعين ، وكان احد الوسطاء الذين استقرت في اذهانهم تلك القواعد فكان ان قال : « الشفيع جناح الطالب » . ومن رسائله في عبيد الله بن سليمان بن وهب في يوم عيد ويعتذر لانه لم يسع بنفسه : « .. آخرتني العلة عن الوزير اعزه الله ، فحضرت بالدعاء في كتابي لينوب عني ويعمر ما أخلته العوائق مني ، وانا اسأل الله تعالى ان يجعل هذا العيد اعظم الاعياد السالفة بركة على الوزير ، ودون الاعياد المستقبلية فيما يحب ويحب له ، ويقبل ما توصل به الى مرضاته ، ويضاعف الاحسان اليه على الاحسان منه ، ويمتعه بصحبة النعمة ولباس العافية ، ولا يريه في مسرة نقصاً ولا يقطع عنه مزيداً ، ويجعلني من كل سوء فداه ، ويصرف عيون الغير عنه وعن حظي منه » .
وله اليه :

« .. لو كان في الصمت موضع يسع حالي لحففت عن سمع الوزير ونظره ولم اشغل وجهاً من فكره ، وما زالت الشكوى تعرب عن لسان البلوى ، ومن اختلت حالته كان في الصمت هلكته ، وقد كان الصبر ينصرني على شر امري حتى خذلني » .

ومن استشفاعه بعض الرؤساء قوله :

« لا تشن حسن الظفر بقبح الانتقام ، وتجاوز عن كل مذنب لم يسلك من الاعذار طريقاً حتى اتخذ من رجاء عفوك رقيقاً » .

وفي هذه الرسائل يظهر أثر النثر الفارسي الكثير التفخيمات المتفنن في الاساليب .

وصفه

وكان وصفه كشعره يصف الاشياء والاحداث في أسلوب موجز قوي ، وكان بعض وصفه في التأليف نثراً ادبياً فنياً ولا سيما إذا مهد به الطريق الى الشعر ، وذلك مثل بعض نثره في كتاب فصول التائيل كقوله

يصف الكرمية :

« الكرمية شجرة مكرمة شريفة العنصر ، تزهر بورق مجلج البصر كأنه السندس الأخضر ، تضحك عن ثمر حلو الخبز كأنه شاربخ الجوهر وكبائس الشذر المعنبر ، استخرجته الايام من الغمام ونقلته الازمان الى ضمائر الاغصان فصار غذاء يراه العميان بعد ان كان هواء خفي المكان ، ثم عاد ماء كالزعفران أو كعصارة المرجان ، لطيف المنظر جميل المصور ، يدل على حقيقته شيئان : لون معصفرونسيم معطر كأنه المسك الاذفر . »
ومثل قوله في الشراب :

« الشراب مشمة الملك وتاج بدره وعروس مجلسه وتحفة نفسه وشغاف حزنه ، لم يزل بتوليد التودد معروفاً وبتأليف الشمل المتبدد موصوفاً ، ان تمشى في عظام الاخوان صدق الحس وذكى النفس ، وان جرى في مفاصل الزمان أباحهم فراغ البال وكثرة المال ، وان يطرب الى شربه ذو أدب او ارتاح لمصافحته ذو حسب طال باعه ورحب ذراعه ، وزين لنفسه الجود وبذل منها فوق المجهود ... »

ومثل وصفه العلم والجهل والكتاب والقلم في اقواله :
العلماء غرباء لكثرة الجهال - زلة العالم كأنه كسار سفينته تفرق ويفرق معها خلق كثير - المتواضع في طلاب العلم أكثرهم علماً كما ان الماء المنخفض أكثر الماء بقاء - اذا علمت فلا تذكر من دونك من الجهال واذا ذكر من فوقك من العلماء - النار لا ينقصها ما أخذ منها ولكن ينقصها ألا تجد حطباً كذلك العلم لا يفنيه الاقتباس منه ، وفقد الحاملين له سبب عدمه - ثمرات خزنة الاموال وهم احياء وعاش خزان العلم وهم أموات - ازهد الناس في عالم جيرانه .

كلما حسنت نعمة الجاهل ازداد فيها قبحاً - لسان الجاهل مفتاح حقه - لا ترى الجاهل الا مفترطاً او مفترطاً .
العاقل من عقل لسانه والجاهل من جهل قدره .

الكتاب والرجح الابواب جريء على الحجاب ، مفهم لا يفهم وناطق لا يتكلم ، به يشخص المشتاق اذا اقعده الفراق .

القلم مجهز لجيوش الكلام ، يخدم الارادة ولا يمل الاستزادة ، ويسكت واقفاً وينطق سائراً ، على ارض بياضها مظلم وسوادها مضيء ، وكأنه يقبل بساط سلطان او يفتح ثوار بستان .

وقال في الصديق والعدو والصادق والكاذب والمكثر من المزاح :
انما سمي الصديق صديقاً لصدقه فيما يدعيه لك ، ونسي العدو عدواً لعدوه عليك اذا ظهر بك - نصح الصديق تأديب ونصح العدو تأنيب - لا يزال الاخوان يسافرون في المودة حتى يبلغوا الشقة فسادا بلغوها القوا عصا التسيار واطمأنت بهمسم الدار ، واقبلت وفود النصائح وامنت خبايا الضائر ، فحملوا عقد التعفظ ونزعوا ملابس التخلق .
علامة الكذاب جوده باليمين لغير مستحلف ، وقد نظم هذا المعنى فقال :

وفي اليمين على ما انت فاعله ما دل انك في الميعاد متهم
اجتنب مصاحبة الكذاب فان اضطرت اليه فلا تصدقه ، ولا تعلمه انك تكذبه فينتقل عن وده ولا ينتقل عن طبعه - يعتري حديث الكذاب من الاختلاف ما لا يعتري الجبان من الارتعاد عند الحرب - لا تصح للكذاب رؤيا لانه يخبر عن نفسه في اليقظة بما لم ير فتويه في النوم ما لا يكون ، وقد نظمه قائلاً :

لا يكذب المرء الا من مهانته او عادة السوء او من قلة الادب
من كثر مزاحه لم يخجل من استخفاف به او حقد عليه .
وله في المشورة والمستشير :

من رضى بحاله استراح والمستشير على طرف النجاح - من اكثر المشورة في الاصابة لم يعدم الصواب وكان في الاصابة مادحاً وفي الخطأ عاذراً .

وله في الزهد وذم الدنيا :
الموت سهم مرسل اليك وعمرك بقدر سيره اليك ، وقد نظمه قائلا :
لا تأمن الموت الخئو ن وخف بوادر آفته
فالموت سهم مرسل والعمر قدر مسافته
وعد الدنيا الى خلف وبقاؤها الى تلف ، وبعد عظامها المنع وبعد
امانها الفجع ، طواحة طراحة آسية جراحة ، كم راقد في ظلها قد ايقظته
وواثق بها قد خانته حتى يلفظ نفسه ويودع دنياه ويسكن رمله ، وينقطع
عن امله ويشرف على عمله ، وقد رجح الموت بحياته ونقض قوى حركاته
وطمس البلى جمال بهجته وقطع نظام صورته ، وصار كخط من رماذ
تحت صفائح انضاد ، وقد اسلمه الاحباب وافتوش التراب في بيت قد
نجسته المعاول وفرشت فيه الجنادل ، ما زال مضطربا في امله حتى استقر
في اجله ، ومحت الايام ذكره واعتادت الالحاظ فقده .

ولابن المعتز في الاوصاف الادبية القدم الراسخة والقدح المعلى ،
وقد وصف البلاغة والبيان بقلمه فأجزأ وأبدع حين قال يصف البيان :
« البيان ترجمان القلوب وصيقل العقول وبحلى الشبهة وموجب الحجة ،
والحاكم عند اختصام الظنون والمفرق بين الشك واليقين ، وهو من
سلطان الرسل الذي انقاد به المستعصب واستقام الأصيل وبُهِت الكافر
وسلم الممتنع * »

وله ايضا في المعاني والالفاظ كلام صحيح الفكرة سليم النظرة قال :
« لحظة القلب اسرع خطرة من لحظة العين وابعد مجالا ، وهي الغائصة
في اعماق اودية الفكر ، والمتأمل لوجوه العواقب ، والجامعة بين ما غاب
وحضر ، والميزان الشاهد على ما نفع وضر ، والقلب كالملي للكلام على
اللسان اذا نطق ، واليد اذا كتبت ، والعقل يكسو المعاني ونشي الكلام

* زهر الآداب الجزء الاول ص ٩١ الطبعة الاولى .

في قلبه ثم يبدئها بألفاظ كواسٍ في احسن زينة ، والجاهل يستعجل
بإظهار المعاني قبل العناية بتزيين معارضها واستكمال محاسنها .

الفصول القصار

ان دأب ابن المعتز على تقييد خواطره كلما همس في نفسه خاطر ،
وعلى تصوير مشاهداته كلما مرَّ به حادث قد جُمع له في النهاية جملة كبيرة
من الحكم والآراء السديدة والمواعظ الصادقة ما لا يجتمع لغيره من حكماء
الكتاب الذين لا ينهجون نهجه في هذا التقييد والتدوين ، ولو طالت
اعمارهم الى مثلي عمر ابن المعتز او الى امثال عمره .

ولو اتيح لكاتب من كتاب الناس وحكمائهم في ذلك الزمان ان
ينحوا نحوه لما استطاع ان يدون من الحكم والآراء الا ما يمس طبقة
التي يعيش فيها من طبقات الناس ، اما هذا فقد علا حق عاشر الخلفاء
والوزراء والعلمية من العلماء والرؤساء والمثقفين وذوي الجاه والمال والفن ،
ثم دنا من الطبقات الدنيا فعاشر اهلها ، فدرس الناس جميعاً على مختلف
مشاربهم وحياتهم .

واقام له هذا التقلب بين الطبقات ان يعرف احوالها ويرى امورها عن
كثب ، وأن يدرس ما يفسدها وما يصلحها ، فذهب يصور ذلك في شعره
حيناً وفي نثره حيناً ، الا ان الشعر لا يستقيم في كل آن ، ولا يسعف
المريد الا بعد المحاولة والتلين والوزن ولا سيما في عصور الصنعة لا الطبع ،
اما النثر فغني عن تلك القيود ولا سيما ان كان تقييداً لخواطر ومشاهدات
في عبارات قصيرة موجزة لا ترى ضرورة الى ارتباط فصلها وبسطها في
اطالة واسهاب .

وربما كان تقييد هذه الخواطر المنشورة اولا مدداً للشعر من بعد
فيعود عليها فينجزها ولم تفر منه ، ويجعل ما يليق منها للشعر شعراً ،
ويقسمها بين فنون شعره ، كل فن يأخذ منها ما يناسبه من حيث تبقى

هي مادة مستقلة للادب النثري تزيد من ثروته وغناه .
وما من شك في انه قرأ لابن المقفع كلامه ، وقرأ لغير ابن المقفع
ما نثروا من الحكم والمواعظ والآراء والخواطر والوصف ، فأراد ان
يشبهه بابن المقفع ويتروتم طريقه فيكون له أدب كبير مثله أو أدب
صغير ، فسمي ما أشبه فيه ابن المقفع وما جرى فيه مجراه بالفصول القصار .
ولا أتهيب ان أقول ان سلوكه هذا المسلك وكثرة اقواله في الاخلاق
والسلوك والآداب قد يكون اعجب الادباء والمثقفين والأمينين في صلاح
الامور فأحبوه من نثره حيث كرهوه من شعره ، ونثر الكاتب اقرب
في الدلالة على خلقه من شعره ، لان الشعر احوج الى الصنعة واقبل
للکذب والمبالغة والمجون والشر ، والشاعر لا يجيد شعره الا وهو في
حمى الانفعال الشعري وفي غيبوبة البحث عما يعجب ويضطرب من المعاني
والالفاظ والمجازات ، ومهما يكن من قرب لسان ابن المعتز الى قلبه
في الشعر كما حدثنا من قبل فانه كان لا بد له حين يقول الشعر من هذا
الانفعال . اما النثر فلا يحتاج كل ذلك ، وخصوصاً اذا كان تدويناً
لمشاهدات وخواطر تعبر عما يحدث في محيط الناس لا داخل النفس ،
فانه حينئذ يكون اسهل ولا سيما ان كان في فصول قصار وجمل موجزة
كما فعل ابن المعتز ، ويكون أدل على الطبع واقرب الى الخلق ،
والنفس تميل الى ما يشبهها ويمثل صفاتها .

فابن المعتز محبوب من هذه الناحية ، يظن الناس فيه الخير كلما رأوه
دؤوباً على تدوين خواطره واذا عتها ، وكلما شاع عنه انه يعني بروابط
الناس وشئون الحياة يعالجها معالجة الادباء الحكماء في فنهم الجميل .
ولا أتهيب مرة ثانية أن أقول : ان بين فصوله القصار ورغبته في الخلافة
وسعيه لها ، او سعي الناس له من اجلها نسباً وصهرأ ، فانه ينظم فيها
شئون الملك وآدابه وواجباته ، ويذكر عيوبه ويقترح ما يصلحه ، وما يجب
ان يكون بين الناس من معاملة حسنة واخلاق كريمة ، فلا غرابة ان

ود الادباء والعلماء والاملون أن يجدوا في هذه الفصول دعاية واغراء على نصرته ليحقق لهم ما جاء فيها من الواجبات التي فرضتها على السلطان وأعوانه للرعية وأفرادها وصالح حالها . ولا غرابة ان يقتصر أنصاره على هذا العنصر من الادباء والعلماء والفقهاء ، وان يكونوا - فقط - من عنصر العرب المظلوم .

وما من شيء تحدثنا عنه قبل الآن لابن المعتز يرشحه للخلافة او يدنيه منها ، فامارته لا تمت الى ولاية العهد بصلة ، وكبر سنه لا يُطمع الوزراء والحجاب فيه ، وليس الشعر بسلم يُرقى فيه الى المنصب الرفيع ، وليس تأليف الكتب والقدرة على النقد بمؤدية اليه ، وحياته الخاصة اكثر ما يبعده عنه ، بل ان هذه الحُصَال جملة لتبعده وتتساند في ابعاده عن هذا المقام .

ولكن شيئاً واحداً كان كفيلاً ان يكون دعاية لترشيحه للمنصب ، ويجعل له انصاراً يعينونه عليه ، هو هذه الآراء المنشورة في الفصول القصار ، وما يُسمع عنه منها ومن أمثالها في الرسائل والكتب والاحاديث والتأملات :

واليك جملة منها على سبيل المثال :

السياسة

فساد الرعية بلا ملك كفساد الجسم بلا روح - اذا زادك السلطان تأنيساً فزده إجلالاً - الملك بالدين يبقى والدين بالملك يقوى - من نصح الخدمة نصحته المجازاة - لا تعينن من وليته على جباية بقلة جراية فليس يكفيك من لم تكفه - أشقى الناس بالسلطان صاحبه كما أن أقرب الأشياء إلى النار أسرعها احتراقاً - لا تلبس بالسلطان في وقت اضطراب الامور عليه فان البحر لا يكاد يسلم صاحبه في حال سكونه ، فكيف عند اختلاف رياحه واضطراب أمواجه - من صعب السلطان صبر على قسوته كصبر

الفواص على ملوحة بجره .

الزهد

الدهر سريع الوثبة شنيع العثرة - أهل الدنيا كركب يُسار بهم
وهم نيام - الناس وفد البلى وسكان الثرى وأقران الردى - الدنيا
تهين من اكْرَمَتْ وتأكل من أطعمت - كل علو خطر وربما أذى
الى الهلاك الحذر .

الآمال :

المرء اسير الاغتيال - الآمال حصائد الرجال - من جرى في غنان
امله عثر بأجله - ربما شرق شارب الماء قبل ربه - الاماني تعمي اعين
البصائر - من لم يتأمل الامر بعين عقله لم يقع سيف حيلته الا على مقاتله .

الصفات الذميمة :

الحرص : الحرص ينقص المرء من قدره ولا يزيد في رزقه ، من
أرحله الحرص انضاه الطلب .
الكذب : الكذب والحسد والنفاق اثنائي الذل .
الحسد : الحاسد اسمه صديق ومعناه عدو - الحاسد ساخط على
القدر ، مفتاظ على من لا ذنب له ، بخيل بما لا يملكه ،
طالب لما لا يجده ، يشفيك انه يغتم في وقت سرورك .
الشهوة : عبد الشهوات اذل من عبد الرق .
التقريع : لا تشن وجه العفو بالتقريع .
الطمع : ربما اورد الطمع ولم يصدر ، وضمن ولم يوف .
البخل : بئس مال البخيل لحادث او وارث .
الجهل : غضب الجاهل في قوله .
الظلم : كفى بالظلم داعيا لنقمة وطاردا لنعمة - انتظر عند

الظلم عدل الله فيك ، وعند المقدرة قدرة الله عليك .
اللجاج : لا يملك اللجاج على اقتراف اثم فتشفي غيظك وتسقم دينك .

الصفات الحميدة :

الصبر : الصبر على المصيبة يَفْلَحُ حد الشامت بها ويطيل عبوس المتضاحك منها .

التواضع : التواضع سلم الشرف .
الجود : الجود صَوَّان العرض من الذم - من كرمته عليه نفسه هان عليه ماله .

الصمت : وعاء الخطأ بالصمت يُخْتَم .

الرفق : الحرق بالرفق يُلْجَم .

الانجاز : الوعد مرض المعروف والانجاز بروءه والمطل تلفه - خير المعروف ما لم يتقدمه مطل ولم يتبعه من - المعروف رق والمكافأة عتق .

الوفاء : شكرك نعمة سائلة تقيض لك نعمة مستأنفة .

اليقظة : الفرصة سريعة الفوت بطيئة العود .

متفرقات :

العقل : قلوب العقلاء حصون الاسرار .

الحكمة : الحكمة شجرة تنبت في القلب وتثمر من اللسان .

السر : كلما كثر حفاظ الامرار ازدادت ضياعا .

البشر : البشر دال على السخاء كما يدل النور على الشر .

الغريزة : كما ان الشمس لا تخفى ضوءها وان كانت تحت السحاب ، كذلك الصبي لا تخفى غريزة عقله وان كان مغمورا بأخلاق الحديثة ...

صِفَةُ وَأَخْلَاقُ

صفته

كان ابن المعتز فتى بمثل البدن رطيب العود معتدل القوام كقضب
البان ، وكان شديد السمرة مسنون الوجه ، ورث ملامح ابيه في جمال
الوجه واسايريه ، وقد بادره الشيب قبل الثلاثين فأهمله حيناً حتى اذا
فشا سترة بالحضاب ، ثم أغدّ الشيب اليه بعد الثلاثين فابيض رأسه ثم
ابيضت لحيته فخضبها ، ثم أسرع اليه الهرم من انكبابه على اللهو والسرف
فلما امتنع عن لهوه او منعه الامام أسرع اليه الهرم ، ولكنه كان
يصرفه عنه الفينة بعد الفينة مخفياً او مقتصداً .

وليس فيما وصل اليها من اخبار ابن المعتز انه تزوج او اعقب نسلا
بل هو يقول في ذلك بما لا يدع مجالاً للشك ، وهو يخاطب الدنيا :
فان ارتحل يوماً أدعك ذميمة وما فيك من فرعي غراس ولا بذر
ولا عجب ، فمثل الحياة التي عاشها ابن المعتز في شبابه لاتشجع على

الزواج وبناء الاسر ، بل هي حياة ان لم تكن بوهيمية فهي شبه بها .

طباعه واخلاقه

وقلنا من قبل انه كان ذكياً حاد الذهن من طبيعته ، ورث ذلك عن ابيه ، وزاد هذه الموهبة قوة ومضاء مؤدبوه الذين تولوه صبيّاً ويافعلاً ثم مدارس علمه ، وحرية البحث والمناظرة للوصول الى الحقائق في تلك المدارس والمجالس ، وكثيراً ما اسعفته بديته في المناسبات واعانتة على الارتجال ليتخلص احسن تخلص ، من ذلك ما حكاه الصولي في أدب الكتاب : قال : جاء يوماً عبد الله بن المعتز في المسجد الجامع الى ابي العباس احمد بن يحيى - يريد ثعلباً - ليسلم عليه ، فقام له وأجلسه مكانه ، فداس ابن المعتز قلماً فكسره ، فلما جلس قال لمن حوله :

لكفسي وتر عند رجلي لأنها أثارَت قتيلاً ما لأعظمه جبر

فعجب الناس من سرعة بديته .

ولكنه كثيراً ما كان يؤثر الروية على البديهة ليكون آمن له وأوثق وكما يقول :

والقول بعد الفكر يؤمن زيفه شتان بين روية وبديه
ويبدو أن ابن المعتز كان في حياته - مهما اختلط بالناس - متعالياً
تعالى الامراء ، فان غضب وكان الحق في جانبه او رآه كذلك لم يلن
جانبه او ينزل عن مكانه لصاحبه الذي غاضبه ، وهذا النميري صاحبه
كاشفه ابن المعتز بسرّه في شريح حبيبته فاذاغ سرّه فجفاه فقاطعه فرجع ذات
مرة فكتب الى الامير من دير جرجس يذكره بالخمر ويدعوه اليها في
آخر شعبان فلم يرد عليه ابن المعتز جواباً وأبدله من ذلك هجاء وتكراراً
في الهجاء .

ولما كان من مراسم العقلاء ان يضع المرء نفسه في مكانه الذي يليق
به لم يتعال ابن المعتز على من هو أسى منه او يتساوى معه ، معتقداً

أنه إن فعل ذلك أصابه الضر وانحدر اليه الأذى وقد قال في ذلك :

وكن كرامي كوكب ببصاقه فردّ عليه وبله ومواطره
والعلماء أولى الناس عنده بالتجلة والاكبار فهو يقربهم اليه ويؤثرهم عليه
وقد تحاشى ابن المعتز المجر في القول إلا قليلاً وهذا طبع الامراء وجبيلتهم .
ولكنه حذر أقاربه ، ورأيه فيهم أنضج الآراء ، إذ العباسيون
كاثروا اقارب يتعادون ويتقاتلون بالمكر والحداع والحسد ، ولا عجب إذا
ملك المرء قلوب الغرباء ولم يملك قلوبهم فصاحب الفضل مهما اتسع جاهه
وعظم فضله وطال باله لا يفي بمطالب الحساد ، وفي ذلك يقول :

المجد والحساد مقرو نان (إن ذهبوا) فذهاب

وإذا ملكك المجد لم تملك مودات الاقارب

وكان طول حياته يرى بمنظار الفطن البصير فيحذر ويدعو الى الحذر
ويكرر الدعوة اليه - الى أن جرى القدر بحتفه - وطالما نصح أهله
بالحرص على قوتهم لملاقاة الاعداء ، ودعا أن يحذر الانسان عدوه فلا
يأمنه ويكون منه على يقظة دائمة في مثل قوله :

لست تنجو من كل ما حدث عنه فاصحب الصبر دائماً واتبعنه
وتيقظ اذا اضطرت الى وصف ل عدو ودم على الخوف منه

وما كان لرجل كابن المعتز نشأ حراً وقدس الحرية ان يحجر على

الحسد ان يحسد او على متمني المجد ان يتمناه ، وانما يرجو ان يكون

هذا وذاك اهلاً للحسد او بلوغ المأرب ان تأجبت نار الحسد او اشتعلت

ثورة الأمان فيقول :

يا طالباً للملك كن مثله تستوجب الملك والا فلا

فان نار الحسد بغيا وظلماً فانه يسكت حساده بخلائقه ، وهو يقول :

وأصمت عني حاسدي بخلائق مهذبة ليست لمن عيوب

فمن قال خيراً قيل انك صادق ومن قال شراً قيل انت كذوب

ولقد يكثر الحسد حين تحتل موازين العدل بين الناس ، فيكثر ذم

الحساد للمعظوظين ، ولا دواء افعل للحساد من السكوت عنهم حتى
ياكل الحسد قلوبهم وهو يعبر عن هذا بقوله :

يا من عناني حسده يقيمه ويقعده
فانه في خلقه طعم شجا يردده

وقوله :

كم حاسد حنق عليّ بلا جرم فلم يضّرني الحنق
متضاحك نخوي كما ضحكت نار الذبالة وهي تحترق

هذا ، ولسنا من يقول ان الشاعر - ولا سيما في عصر الصنعة -
يبين خلقه من شعره دائماً ، فقد لا يعبر مذهب الشعري عن صفاته ،
وليس ابن المعتز فيلسوفاً ولا صاحب مذهب حتى ينطبع خلقه في قوله ،
وانما نجتهد ان نراه من ادلة يقينية اخرى ، وهو نفسه يحكم معنا على
نفسه فلا يرى من الضروري ان تطابق الاخلاق الاقوال في مثل قوله :
اعقل في قولي ولكنني من بعده اجعل في فعلي

ونحن نعتقد - بما قرأنا - انه كان رجلاً بمارحاً ظريفاً جواداً يحيط
بـه اصدقاؤه ويتطرح حوله الندماء والظرفاء وهو يرتحل بهم ويتلقاهم
ويخوض معهم في خوضهم ، ويخلع عليهم الالقاب بمازحة وتسلية .
وقد علمته التجارب والبيئة ان يكون رجلاً كتوماً للسر ، ولا عجب
فهو خلق القصور واجدرها بالمرعاة ، وقد ظهر منه ذلك في كتابه عن
الناس اسم حبيبه التي كنى عنها بشير ولم يخبر به - على ما اظن -
غير النميري ، فكان من مضيعات التاريخ ، وظهر كتابه اوضح من هذا
في تدبيره وتدبير اصحابه للخلافة الذي لم يفلح ، فلم يعرف احد اسماء
مبايعيه حتى أتى بالصدوقين الذين احرقهما ابن الفرات وزير المقتدر .

والوفاء اجلى اخلاق ابن المعتز وابينها ، فما كان مدحه لآل وهب
إلا ضرباً من الوفاء ، وقد آجل معليه جميعاً ووفى لهم ، وقد تعود

ذلك من نعمة اظفاره ، قيل : كان احمد بن سعيد الدمشقي يؤدبه
فوسط البلاذري قوما الى صبيحة جدة الامير ليلقاه بالتأديب وقتنا من
النهار فأجابت او كادت تجيب ، قال ابن سعيد : فلما اتصل الخبر بي
جاست في منزلي غضبان لما بلغني عنها فكتب إليّ ابن المعتز وله ثلاث
عشرة سنة :

أصبحت يا ابن سعيد حزت مكرومة عنها يقصر من يحفى وينتعل
سربلتني حكمة قد هذبت خلقي واجبت نار ذهني فهي تشتعل
أكون إن شئت قسا في خطابته او حارثا وهو يوم الفخر مرتجل
وإن أشأ فكزيد في فرائضه او مثل نعمان لما ضاقت الخيل
او الخليل عروضا أبا فطن أو الكسائي نحوياً له علل
تغلي بداهة ذهني في مركبها كمثل ما عرفت آباي الاول
وفي في صارم ما سله أحد من غمده فدرى ما العيش والجدل
عقبك شكر طويل لا نفاذ له تبقى معاملة ما أظت الابل *
ثم هو رجل مجذ دهب لم يضع يوما ولا لحظة دون ان يعمل وان
يكتب وان ينشر وينقد ويحقق حتى انتج لنا كل تلك الثمار الطيبة من
العلم والادب ، ولكن يظهر ان مقتله قد عصف ببعض ما كتب وانشد
او بكتير منه .

وقد رأينا في أخريات أيامه قانعا برزقه مصابا بفلسفة القناعة كما
أصيب بها كثير من أبناء عصره وأفذاذه ، ولعل هذه القناعة من
الاسباب التي قربته من الخلفاء حيناً وقربته من مريديه دائماً فأحبوا له
الخلافة ، وفي القناعة يقول :

أرى المرء يدري أن الرزق ضامنا وليس يزال المرء ما عاش طالبا

* قس : ابن ساعدة خطيب الجاهلية . حارثا : الحارث بن حنظلة أحد اصحاب
المعلقات . زيد : ابن ثابت البارح في الميراث . نعمان : أبو حنيفة صاحب المذهب .
الخليل : ابن احمد الفراهيدي صاحب علم العروض . الكسائي : النحوي المشهور .

وما قاعدٌ إلا كآخر سائرٍ وإث أداب العيس المراسيل لإدآبا
فيا نفس إن الرزقَ نَحْوَك قاصدٌ فلا تتعي ، حسي من الرزق اتعابا
وابن المعتز كان ممن يتفاهل باختلاج أجفان العين ، ويرى اختلاجها
بشرى بروية الحبيب ، وقد عرف ذلك من قوله :

مرحباً باختلاج أجفان عينٍ بشرت نفسها بروية خيرٍ
وبعد فإن ابن المعتز قد خبر الدنيا منذ صغره وعرفها حق معرفتها
فكانت أحكامه صادقة عليها وأقواله تدل على خبرته بها ، فهل نستطيع
ان نعرف من ذلك أنه وجل متزن معتدل الخلق حصيف الرأي ؟
لقد روى بعض أصحابه أنه كان عفيفاً * لا يشارك جلساءه فيما
ينغمسون فيه ولكنها رواية فرد لم تؤيدها روايات أخرى ، وحتى ذلك
الفرد قد عاد فتمّ عن ابن المعتز بما يكتمه ، وأكثر أخبار ابن المعتز
تدل على أنه كان رجلاً مسرفاً : مسرفاً في المال ينفقه على ندمائه
وجلسائه ، مسرفاً في اللهو والمجون ، قضى فيه شرح شبابه حتى نهاه
الامام ، مسرفاً في العاطفة يحزن فيشتد حزنه ويفرح فيشتد فرجه ،
وينأى عن الشيء فيبتعد في النأي ويتقرب منه فيشب عليه ، قد ورث
مزاج أبيه المفرط ، وليس أدل على ذلك من تباعده عن الخلافه وعن
الطمع فيها ثم إقباله عليها - وقد كبرت سنه - أقبال الجهلاء على
الحتوف .

انه شرب الخمر ولها هو الأمراء بالنساء ، ما من شك في ذلك ، ولكنه
كان ايضاً كاتباً أديباً وشاعراً ذا مذهب شعري وعالمياً أريباً ومفكراً
حصيفاً وحرّاً مبتكراً . والله في خلقه شئون .

* نهاية الأرب الجزء الثاني ص ١٤١ طبعة دار الكتب المصرية .

مراجع الكتاب

أ	الاذكياء	لابن الجوزي	حياة الحيوان	للمميوي
	ابن الرومي	للعقاد	حديث الشعر والنثر	لظه حسين
	الاغاني	للاصفهاني	الخلبة	للحميت
	اخبار ابي تمام	للسولي	حسن التوسل	للبيدي
	الامالي	للمرتضى	خ	للبيدي
	الاسلام والحضارة العربية	لكرد علي	د	للبيدي
ب	البديع	لابن المعتز	ديوان ابن المعتز	ديوان ابن المعتز
ت	تاريخ بغداد	للخطيب البغدادي	ديوان المعاني	لابن هلال العسكري
	تاريخ النقد الأدبي	لظه ابراهيم	ز	للحصري
	تاريخ الطبري	لابن جرير الطبري	س	للخفاجي
	تاريخ الخلفاء	للسيوطي	ش	للخفاجي
	التاج في اخلاق الملوك	لجاحظ	شذرات الذهب	لابن العماد
	تاريخ حكماء الاسلام	للسيوطي	ض	للحميت
	تاريخ الشعوب الاسلامية	لبروكلمان	ط	للحميت
ث	ثمار القلوب	للشعالي	طبقات الشعراء المحدثين	لابن المعتز
ح	حضارة الاسلام	لنخلة المدور	ع	للحميت
			عصر المأمون	للحميت



العمدة	لابن رشيق	معجم البلدان	لياقوت
العصر العباسي	للاسكندري	المقدمة	لابن خلدون
غ		مسالك الابصار	للعيري
الغرر	للوواط	المختارات	للبارودي
ف		الموازنة بين ابي تمام والبحتري	
فصول التماثيل	لابن المعتز	محاضرات الحضري	
الفخري	لابن طباطبا		
فهرس مؤلفات ابن المعتز بمكتبة جامعة		ن	
فؤاد الاول بالقاهرة .		نثار الازهار	لابن منظور
الفهرست	لابن النديم	النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة	
فوات الوفيات	لابن شاكر	نظرات في تاريخ الادب	للكيلاني
م		نهاية الارب	للتويري
المكافاة	لابن الداية	ه	
مروج الذهب	للمسعودي	هبة الايام	للبيدي
محاضرات الادباء	للسيوطي	و	
الموشح	للمرزباني	وفيات الاعيان	لابن خلكان
معجم الادباء	لياقوت	الوسيط	للاسكندري

الفهرس

مقدمة

(١) العصر العباسي المتوسط

البيئة العامة :

٨	فانون المصادر	٨	المال والجند	٧	التخلخل العام
١٠	المذاهب	١٠	الامراض	٩	الترف والجود
١١	العلوم الحديثة	١١	العلم والادب	١١	المعتزلة
١٤	المغايرة	١٣	طارق جديد	١٢	الشعر والشعراء
١٦	المنهج التطبيقي	١٦	باب الوصف	١٥	تحول الاغراض
١٧	شعر النجوم	١٧	المقطوعات	١٦	شعر الصنعة

البيئة الخاصة :

٢١	معلموه	٢٠	تنشئته	١٩	مولد ابن المعتز
٢٣	ثعلب والمبرد	٢٣	الدمشقي	٢٢	البلاذري
٢٧	أثر البيهقي فيه	٢٦	عشراؤه	٢٦	ابن هبيرة

(٢) مذهب الشعري

٣٢	العروض	٣١	التجديد	٢٩	السهولة والوضوح
٣٧	المذهب الكلامي	٣٥	البديع	٣٣	المغايرة
٤٥	الاستيعاب	٤٢	التصوير	٣٧	التشبيه

(٣) فنون شعره

الوصف :

٥٩	الدور والقصور	٥٦	الروض والمطار	٤٨	فن جديد
----	---------------	----	---------------	----	---------

الفخر :

٦٠ بنو العباس	٦٤ الطالبيون	٦٦
٦٧ بدعة سياسية	٦٨ مادة فخره	٦٨
٧٢ عيب فخره		

الغزل :

٧٣ اسلوب غزله	٧٤ غزله العلمي	٧٧
٨٠ حبه الصادق	٨٤ شرير	

الحمر والغناء :

٨٧ الغناء في العصر العباسي	٨٩ في دار ابن المعتز	٩٠
٩٣ الديارات والحانات	٩٥ حانات الخلفاء	٩٦
٩٧ ابن المعتز والديارات	٩٩ ابن المعتز والحمر	١٠٤
١٠٦ كتاب فصول التماثيل		

المدح :

١٠٩ لماذا مدح ؟	١١١ طابع مدحه	١١٢
١١٣ المعتمد	١١٣ المعتضد	١١٤
١٢٠ المكتفي	١٢١ بنو وهب	١٢٤
١٢٥ الهجاء والسخرية		

الحكمة والشكوى :

١٢٨ قيم الناس	١٣٠ مشيه	١٣٢
١٣٣ زهده	١٣٥ حكمه	

(٤) الاراجيز

١٣٧ قبل العصر العباسي	١٣٩ في العصر العباسي	١٤١
١٤٦ الموشحة	١٤٩ الذوق الغنائي	١٥١

(٥) النقد والبلاغة

١٥٣ الشعر ديوان العرب	١٥٥ قدسية الشعر	١٥٥
١٥٧ ابن المعتز وقدامة	١٦٠ مذاكرة ابن المعتز	١٦٢
	دراسة النقد	
	المنهج النقدي	

١٦٥	سرقات ابن المعتز	١٦٣	أصول وموازن
١٦٩	اثر الكتاب	١٦٦	تأثر الشعراء به

(٦) أنواع نثره

١٧٤	فنون نثره	١٧١	نثره العلمي
١٨٠	الفصول القصار	١٧٥	رسائله
١٨٣	الآمال	١٨٢	السياسة
١٨٤	متفرقات	١٨٣	الصفات الذميمة

(٧) صفته وأخلاقه

١٨٦	طباعه وأخلاقه	١٨٥	صفته
		١٩١	مراجع الكتاب
		١٩٣	الفهرس

1901-2-129

AUC - LIBRARY



DATE DUE

21 JUL 1988	

DEC 1974

PJ
7745
I 16
Z3x
1951

b. 12556963
i. 14012947



1 0 0 0 0 0 6 6 1 4 3

